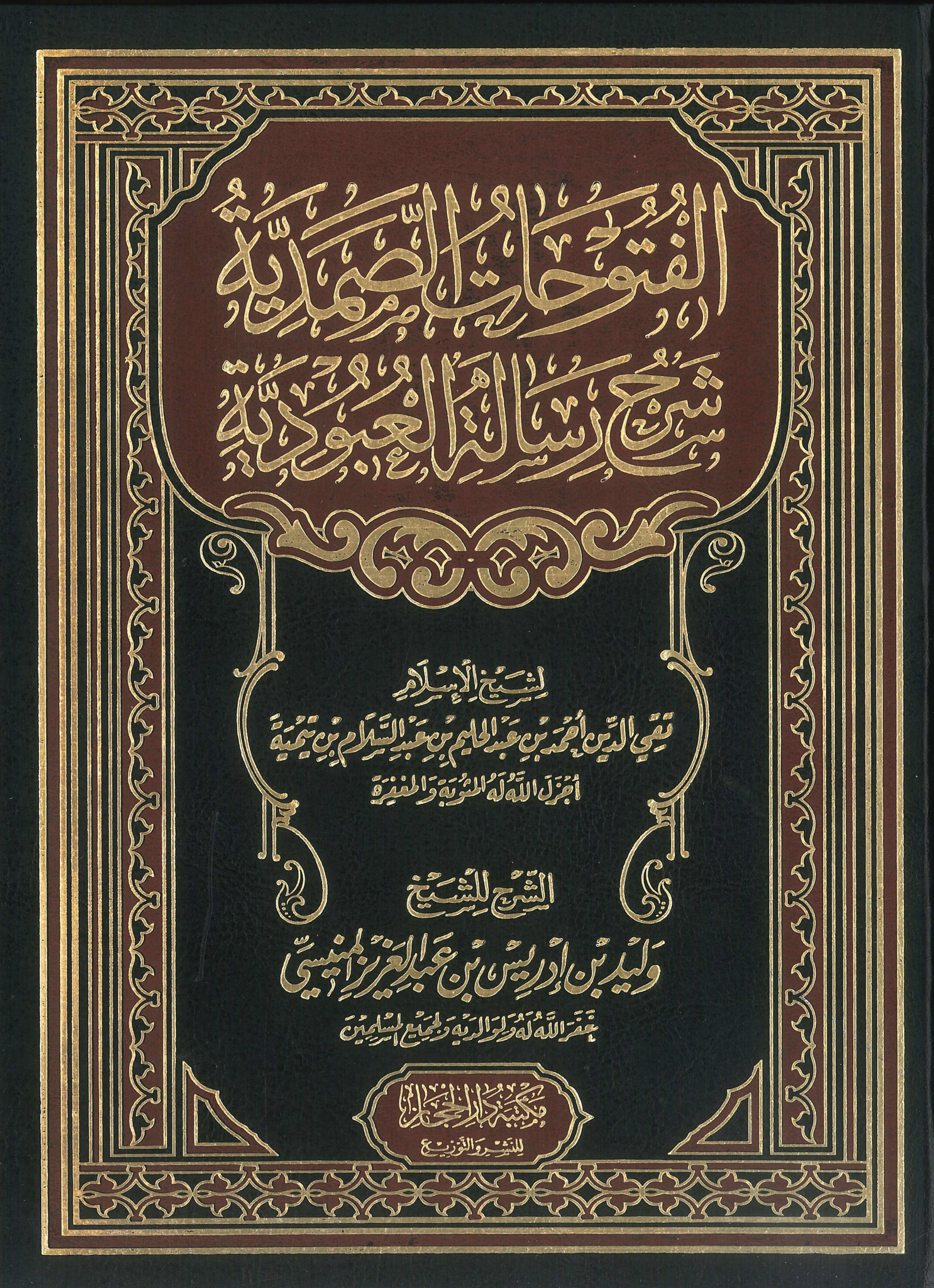
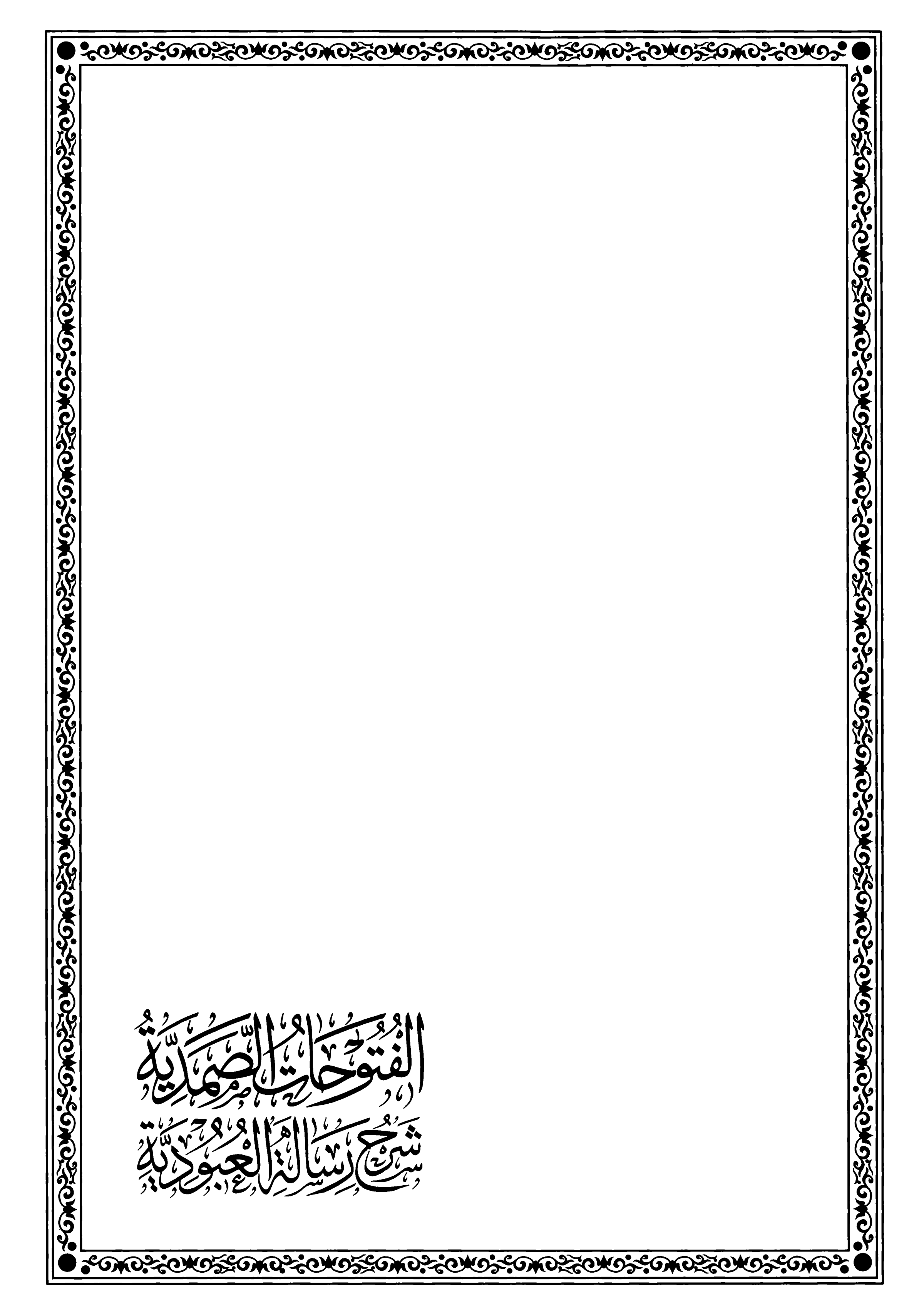


الفتوحات الصمدية
شرح رسالة العبودية
لشيخ الإسلام
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
أجزل الله له المثوبة والمغفرة
الشرح للشيخ
وليد بن إدريس بن عبد العزيز المنيسي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع


الفتوحات الصمدية
شرح رسالة العبودية



عنوان المصنف: **الفتوحات الصمدية شرح رسالة العبودية**

شـــرح : **وليد بن إدريس بن عبد العزيز المنيسي**

رقم الإيداع: ٢٥٢٢٣/ ٢٠١٤

الترقيم الدولي: ٦-٨١-٥٢٣٢-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ



الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣

الإسكندرية - ١٧٥ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١

القاهرة - ٦ش الدراسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢

جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - فاكس: ٠٠٢/٠٢٢٦٦٣٣٦٧٨

البريد الالكتروني: dar_alhijaz@hotmail.com

الفُتُوحَاتُ الصَّمَدِيَّةُ
شَرْحُ رِسَالَةِ العُبُودِيَّةِ

لِشَيْخِ الإِسْلَامِ

تَقِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ تَيْمِيَةَ

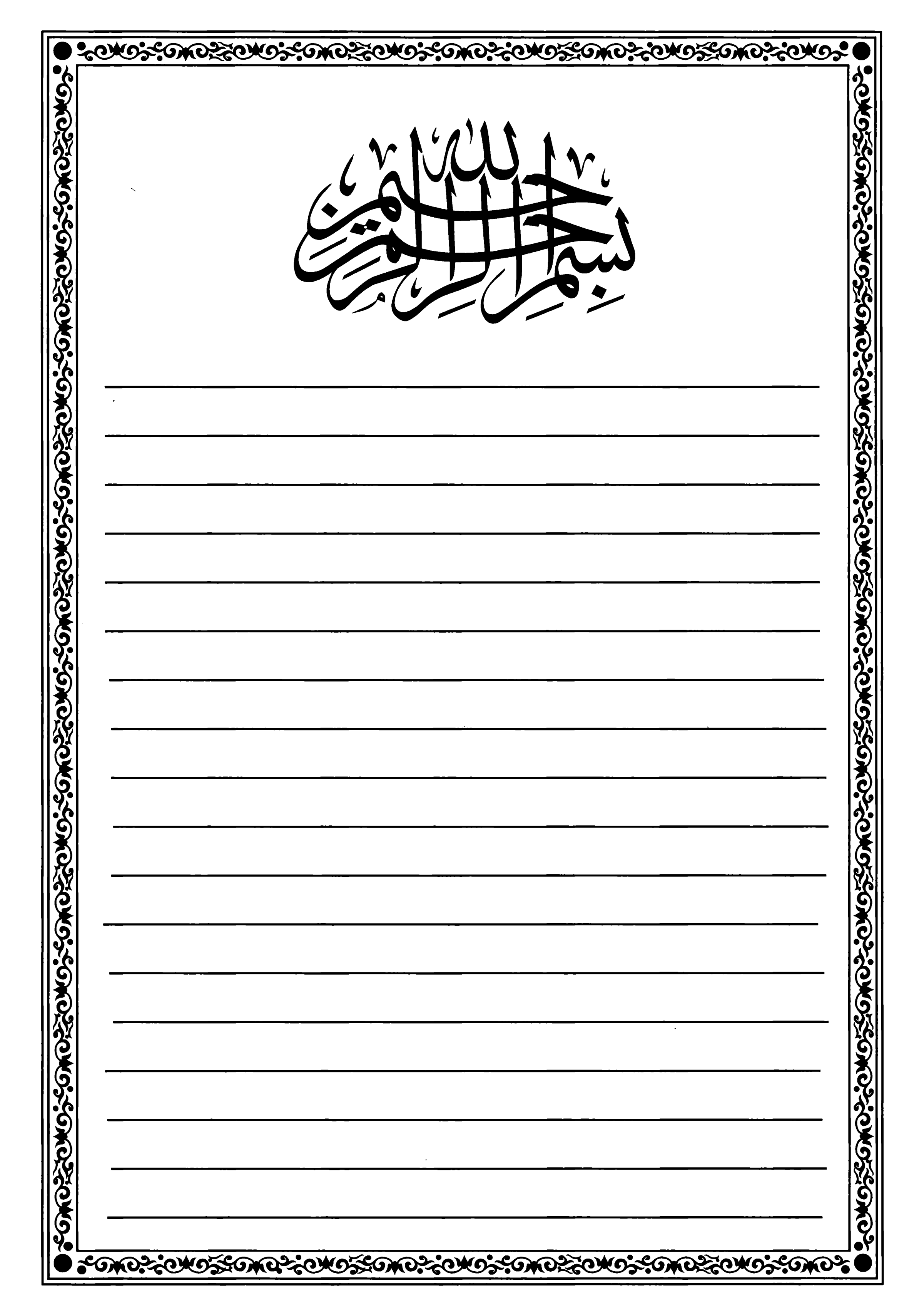
أَجْزَلَ اللهُ لَهُ المَثُوبَةَ وَالمَغْفِرَةَ

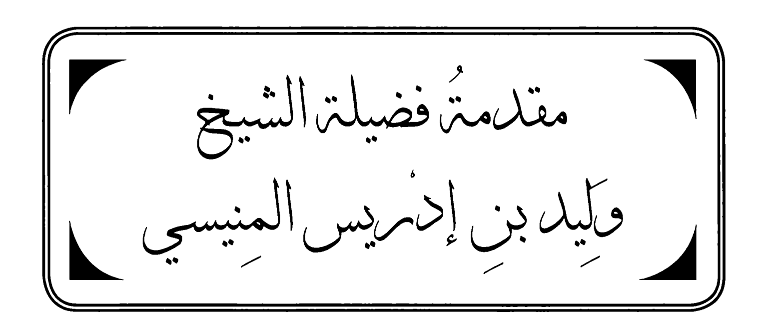
الشَّرْحُ لِلشَّيْخِ

وَلِيدِ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ المَنِيسِيِّ

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ

مَكْتَبَةُ دَارِ الحِجَازِ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد:

فإن رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ من أنفع ما كُتب في هذا الباب العظيم، وتنبع أهميتها أولًا من أهمية موضوعها وهو: «العبودية»، الذي هو الغاية من خَلْق الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات] .

ثم تنبع أهميتها ثانيًا من مكانة مؤلفها شيخ الإسلام وعلم الأعلام ابن تيمية ﵀ وقيامه علمًا وعملًا بمراتب العبودية حقَّ قيامٍ والله تعالى حسيبه .

والعبودية مصدر صناعي بمعنى العبادة، والمصدر الصناعي عند علماء الصرف: «هو كل اسم زيد في آخره حرفان هما الياء المشددة ثم تاء التأنيث المربوطة»، ولم أجد عند علماء السنة تفريقًا دقيقًا بين العبودية والعبادة، إلا أن زيادة المبنى عادةً يصاحبها زيادةً في المعنى .

والمصدرُ الصناعي كثيرًا ما يُحوِّل الاسم إلى ما يدل على مذهب أو طريقة في الحياة، كما هو في الحنيفية من جهة والنصرانية واليهودية من جهة أخرى، فكأن المؤلف أراد في هذه الرسالة العظيمة أن يتناول مفهوم العبادة وأقسامها وأحوالها من حيث هي طريقة ملازمة للمسلم ونهج ينتهجه في حياته .

وهذا الشرح كان في أصله محاضرات سبق أن ألقيتُها في إحدى الدورات العلمية بمركز الفاروق الإسلامي بولاية منيسوتا بأمريكا، سنة ١٤٣١ هـ، ثم رغب بعض إخواني في تفريغها وتنسيقها لتطبع لعله يستفيد منها طلاب العلم في توضيح مقاصد المؤلف .

ولا يفوتني هنا أن أتقدم بالشكر الجزيل للشيخ الفاضل الكريم أحمد نعمان الماس -حفظه الله تعالى- على ما قام به من جهد مشكور في تفريغ المحاضرات وتنسيقها وتدقيقها، وتخريج الأحاديث، حتى خرجت في هذه الحلة البهية، وقد رأيتُ أن أسمي هذا الشرح:

الفتوحات الصمدية شرح رسالة العبودية

حيث أرجو أن يفتح الله الواحد الأحد الصمد بركات من بركاته على الشارح وعلى كل مطالع لهذه الشرح، سائلًا الله سبحانه أن يجعله ذخرًا لي عنده، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]، وبالله تعالى التوفيق .

وكتب:

أبو خالد وليد بن إدريس بن عبد العزيز المِنيسي.

السلمي نسبًا، الإسكندري مولدًا، الحنبلي مذهبًا.

في مدينة منيابولس، الخامس من شهر ربيع الأول ١٤٣٥ هـ

ترجمة الشارح

هو الشيخ الدكتور / وليد بن إدريس بن عبد العزيز المِنيسي.

مؤهلاته وخبراته:

* ولد في الإسكندرية سنة ١٣٨٦هـ = سنة ١٩٦٧م.

* رئيس اتحاد الأئمة بأمريكا NAIF، ورئيس الجامعة الإسلامية بولاية منيسوتا IUMN، وعضو لجنة الإفتاء بمجمع فقهاء الشريعة AMJA ، وأستاذ بالجامعة الأمريكية المفتوحة AOU ، وأستاذ بجامعة جراديوت ثيولوجيكال GTF

* تخرج من كلية الآداب جامعة الإسكندرية قسم اللغة العربية وآدابها سنة ١٩٨٨ م، ثم حصل على الماجستير في الفقه والدكتوراه في الدراسات الإسلامية .

* حصل على إجازات عديدة في القرآن الكريم بقراءاته العشر الصغرى والكبرى وفي الحديث الشريف .

* عمل مدرسًا للغة العربية والدراسات الإسلامية في عدد من المدارس المتوسطة والثانوية في مصر والسعودية من سنة ١٩٨٨ م إلى ١٩٩٨ م.

* عمل إمامًا بعدد من المساجد بمصر وأمريكا وداعية بمكتب الدعوة والإفتاء بالسفارة السعودية بأمريكا.

* قام بتدريس القراءات القرآنية منذ عام ١٤١٢ هـ الموافق ١٩٩١ م في عدد من

المساجد بالسعودية ومصر وأمريكا، وتخرج على يديه أكثر من مائة طالب بعضهم حصل على إجازة منه بالقراءات العشر الكبرى وبعضهم بالعشر الصغرى وبعضهم بقراءة أو أكثر.

* شارك بأبحاث علمية ومحاضرات في مؤتمرات وندوات بالكويت والبحرين وأمريكا وكندا وإيرلندا

* متزوج وله ثلاثة أبناء وثلاث بنات.

شيوخه:

أولًا: في القرآن الكريم والقراءات:

١- فضيلة الشيخ الدكتور عباس بن مصطفى أنور المصري ﵀ قرأ عليه ختمة برواية حفص من طريقي الشاطبية والطيبة، وختمة برواية ورش من طريق الشاطبية، وبعض القرآن بالقراءات العشر الصغرى وأجازه بذلك .

٢- فضيلة الشيخ الدكتور إيهاب بن أحمد فكري حيدر المقرئ بالحرم النبوي الشريف، قرأ عليه ثلاث ختمات كاملات واحدة برواية قالون وروايتي شعبة وحفص، والثانية بالقراءات السبع من الشاطبية جمعًا، والثالثة بالقراءات الثلاث من الدرة جمعًا وأجازه بذلك .

٣- فضيلة الشيخ الدكتور محمد سامر بن محمد ممدوح النص، قرأ عليه ختمة جمعًا بالقراءات العشر الكبرى من أول القرآن إلى أثناء سورة الإسراء وأجازه بالقراءات العشر الكبرى .

٤- فضيلة الشيخ محمد بن عبد الحميد بن عبد الله خليل ﵀ شيخ القراء بالإسكندرية

قرأ عليه ختمة كاملة بالقراءات العشر الكبرى وأجازه بها.

٥- فضيلة الشيخ مصباح بن علي بن إبراهيم ودن الدسوقي قرأ عليه ختمة كاملة بالقراءات العشر الصغرى وأجازه بها.

٦- فضيلة الشيخ محمد يونس الغلبان قرأ عليه ختمة كاملة بالقراءات السبع من الشاطبية وأجازه بها .

٧- فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد سراج الطويلي قرأ عليه ختمة كاملة بالقراءات العشر الكبرى والأربع الشواذ وأجازه بذلك.

٨- فضيلة الشيخ أحمد مصطفى أبو حسن المليجي ﵀ قرأ عليه بعض القرآن بروايتي ورش وحفص وأجازه بهاتين الروايتين.

٩- فضيلة الشيخ عبد الله بن صالح العبيد قرأ عليه بالقراءات الأربع الشواذ وأجازه بها.

١٠- فضيلة الشيخ محمد كريِّم بن سعيد بن كريم راجح شيخ قراء الشام قرأ عليه بعض القرآن بالقراءات العشر الصغرى والكبرى وأجازه بالقراءات العشر الصغرى والكبرى.

ثانيا: في الحديث والفقه والأصول والعقيدة والتفسير واللغة وغيرها، منهم:

١- الشيخ عبد العزيز بن باز ﵀ درس عليه في الجامع الكبير بمدينة الرياض وفي جامع الأميرة سارة وفي بيته من سنة ١٤١٠ إلى ١٤١٨ هـ في دروسه في شرح الصحيحين، وسنن النسائي، وسنن الدارمي، ومسند أحمد، وكتاب التوحيد، وتفسير ابن كثير، وإغاثة اللهفان، وغيرها من كتب السنة والعقيدة والفقه والتفسير.

٢- الشيخ عبد الرزاق عفيفي ﵀ لازمه خمس سنوات من ١٤١٠-١٤١٥هـ، كان يزوره في بيته كل يوم سبت بين المغرب والعشاء، ليسأله عن المسائل التي تحتاج إلى توضيح في متون العقيدة والفقه .

٣- الشيخ محمد بن صالح العثيمين ﵀ درس عنده عدة دورات علمية في العقيدة والفقه بالرياض وبالمسجد الحرام.

٤- الشيخ عبد الله بن غُدَيَّانَ ﵀ درس عليه في شرح الكوكب المنير في الأصول والزاد في الفقه بمسجده بالرياض.

٥- الشيخ عبد الله بن جبرين ﵀ درس عليه في شرح العقيدة الطحاوية وغيرها بمسجد الراجحي بالرياض.

٦- الشيخ صالح بن فوزان الفوزان درس عليه في شرح العمدة في الفقه بمسجده بحي الملز بالرياض .

٧- فضيلة الشيخ محمد نجيب المطيعي ﵀ درس عليه في شرح صحيح البخاري بالإسكندرية.

٨- فضيلة الشيخ عبد العزيز البرماوي ﵀ درس عليه في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك في النحو، وشرح السنة للبغوي، ونيل الأوطار للشوكاني بالإسكندرية .

٩- فضيلة الشيخ السيد بن سعد الدين الغباشي – حفظه الله- درس عليه لمدة عشر سنوات دروسًا يومية من سنة ١٩٧٩ إلى سنة ١٩٨٩م في مسجد الإمام أحمد بن حنبل بالإسكندرية كثيرًا من كتب الفقه والأصول والحديث وعلومه والتفسير والسيرة.

١٠- أصحاب الفضيلة المشايخ عبد الله بن قعود، وصالح آل الشيخ، ومحمد

الحسن الددو، وغيرهم.

١١- من أساتذته الذين درس عليهم في كلية الآداب جامعة الإسكندرية الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة ﵀ أستاذ الأدب العربي، والأستاذ الدكتور عبده الراجحي ﵀ أستاذ النحو والصرف.

١٢- له إجازات في الحديث وفي عموم المرويات من أكثر من مائة عالم من علماء الحديث بعضها بالسماع المتصل، وبعضها بالإجازة، ومن شيوخه في الإجازات الحديثية إسماعيل الأنصاري، وعبد القادر كرامة الله، وعبد الرحمن الملا الأحسائي، وعبد القيوم الرحماني، وظهير الدين المباركفوري، وصفي الرحمن المباركفوري، ومحمد إسرائيل الندوي، وعبد الرحمن بن عبد الحي الكتاني، وعلي زوبر الأهدل وغيرهم.

مؤلفاته، منها:

١- الفتوحات الصمدية شرح رسالة العبودية .

٢- نثر الفوائد شرح نظم القواعد.

٣- منحة واهب الحلم شرح حلية طالب العلم .

٤- الخير الكثير شرح النظم الحبير .

٥- الأرجوزة الوليدية في المواريث وشرحها.

٦- شرح التحفة العراقية .

٧- شرح الرسالة التبوكية .

٨- شرح الإيمان الأوسط .

٩- ترجمة الشيخ عبد الرزاق عفيفي وفتاويه .

١٠- أثر اختلاف القراءات الأربعة عشر في مباحث العقيدة والفقه (رسالة الماجستير).

١١- منهجية إثبات الأهلة (رسالة الدكتوراه).

١٢- العمل القضائي خارج ديار الإسلام .

١٣- الشورى والتعددية السياسية .

١٤- المرأة والتعليم دراسة فقهية .

ترجمة شيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

١ - اسمُه ونسبُه:

هُوَ الشَّيْخُ الإِمَام الرباني، إِمَامُ الْأَئِمَّة، ومفتي الْأمة، وبحرُ الْعُلُوم، سيدُ الْحفاظ، وَفَارِسُ الْمعَانِي والألفاظ، فريدُ الْعَصْر، وقريعُ الدَّهْر، شيخُ الْإِسْلَام، بركَةُ الْأَنَام، وعلامةُ الزَّمَان، وترجمانُ الْقُرْآن، علمُ الزهاد، وأوحدُ الْعباد، قامعُ المبتدعين، وَآخرُ الْمُجْتَهدين، تَقِيّ الدّين أَبُو الْعَبَّاس أَحْمَد بن الشَّيْخ الإِمَام الْعَلامَة شهَاب الدّين أبي المحاسن عبدِ الحليم بْن الشَّيْخِ الإِمَام الْعَلامَة شيخ الْإِسْلَام مجد الدّين أبي البركات عبدِ السلام بن أبي مُحَمَّد عبد الله بن أبي الْقَاسِمِ الْخضر بن مُحَمَّد بن الْخضر بن عَليّ بن عبد الله ابْن تَيْمِية الْحَرَّانِي، نزيل دمشق .

وقِيل في تلقيبه بابن تيمية: أن جده مُحَمَّد بن الْخضر حج على درب تيماء، فَرَأى هُنَاكَ طفلة، فَلَمَّا رَجَعَ وجد امْرَأَته قد ولدت لَهُ بِنْتا فَقَالَ: «يَا تَيْمِية، يَا تَيْمِية» فلقب بذلك .

وقيل: أَن جده مُحَمَّدًا كَانَت أمه تسمى: «تَيْمِية» وَكَانَت واعظة، فنُسِب إِلَيْهَا وَعُرف بهَا .

مولده ونشأته:

وُلد بِحرَّان - بلد مشهورة فِي الجزيرة بين الشام والعراق - يَوْم الْاثْنَيْنِ، ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ، وسافر والده بِهِ وبإخوته إِلَى الشام عِند جور التتار، وَقدمُوا دمشق فِي أثْنَاء سنة ٦٦٧ هـ .

مشايخه:

شيوخه الَّذين سمع مِنْهُم أَكثر من مِائَتي شيخ، فسمع من أبيه - وكان من كبار الْحَنَابِلَة وأئمتهم - الْكثير، ومن ابْن أبي الْيُسْر، والكمال ابْن عَبْدٍ، وَالْمجد بن عَسَاكِر، وَأحمد بن أبي الْخَيْر، وَالقَاسِم الأربلي، وَالشَّيْخ فَخر الدّين بن البُخَارِيّ، والكمال عبد الرحيم، وَأبي الْقَاسِم بن عَلان، وَأحْمَدْ بن شَيبَان، وخَلق كثير .

وَسمع مُسْند الإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل مَرَّات، وَسمع الْكتب السِّتَّة الْكِبَار والأجزاء، وَسمع مُعْجم الطبرابي الْكَبِير، وعني بِالْحَدِيثِ، وَقَرَأَ وَنسخ، وَتعلم الْخط والحساب، وَحفظ الْقُرْآن، وَأَقْبل على الْفِقْه، وَقَرَأَ الْعَرَبِيَّة على ابْن عبد القوى، ثمَّ فهمها وَأخذ يتأَمَّل كتاب سِيبَوَيْهٍ حَتَّى فهم فِي النَّحْو، وَأَقْبل على التَّفْسِير إقبالًا كليًّا حَتَّى حَاز فِيهِ قصب السَّبق، وَأحكم أصول الْفِقْه وَغير ذَلِك .

هَذَا كُله وَهُوَ بعد ابْن بضع عشرَة سنة، فانبهر أهلُ دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه، وَقُوَّة حافظته وَسُرْعَة إِدْرَاكه .

قلّ كتابٌ من فنون العلم إلا وقف عليه، كأن الله قد خصه بسرعة الحفظ، وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء - غالبًا - إلا ويبقى على خاطره، إما بلفظه أو معناه، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره.

قَالَ الإمامُ أبو المظفر السرمري: «وَمن عجائبِ مَا وَقع فِي الْحِفْظ فِي أهل زَمَاننَا شيخُ الإسلام أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن عبد الْحَلِيم ابْن تَيْمِية، فَإِنَّهُ كَانَ يمر بِالْكتاب فيطالعه مرّة فينتقش فِي ذهنه فيذاكر بِهِ وينقله فِي مصنفاته بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ».

نشأته:

نَشأ من حِين نَشأ فِي حجور الْعلمَاء، راشفًا كؤوس الْفَهم، راتعًا فِي رياض التفقه ودوحات الْكتب الجامعة لكل فن من الْفُنُون، لَا يلوي إِلَى غير المطالعة والاشتغال وَالْأَخْذ بمعالي الْأُمُور، خُصُوصًا علم الْكتاب الْعَزِيز وَالسّنة النَّبَوِيَّة ولوازمها .

نَشأ ﵀ فِي تصون تَامّ، وعفاف وتأله وَتعبد، واقتصاد فِي الملبس والمأكل.

علمه:

كَانَ ﵀ يحضر الْمدَارِس والمحافل فِي صغره، ويناظر ويفحم الْكِبَار، وَيَأْتِي بِمَا يتحير مِنْهُ أَعْيَانُ البَلد فِي العلم، فَأفْتى وَله تسع عشرَة سنة بل أقل، وَشرع فِي الْجمع والتأليف من ذَلِك الْوَقْت، وأكبَّ على الِاشْتِغَال، وَمَات وَالِدُه فدرَّس بعده بوظائفه وَله إِحْدَى وَعِشْرُونَ سنة، واشتهر أمرُه وَبعد صيتُه فِي الْعَالم .

لَا تكَاد نَفسه تشبع من الْعلم، فَلَا تروى من المطالعة وَلَا تمل من الاشتغال، وَلَا تكل من الْبَحْث، وَقل أَن يدْخل فِي علم من الْعُلُوم من بَاب من أبوابه إِلَّا وَيُفتح لَهُ من ذَلِك الْبَاب أَبْوَاب، ويستدرك مستدركات فِي ذَلِك الْعلم على حذاق أَهله .

كَانَ آيَة فِي الذكاء، وَسُرْعَة الْإِدْرَاك، رَأْسًا فِي معرفَة الْكتاب وَالسّنة وَالِاخْتِلَاف، بحرًا فِي النقليات، هُوَ فِي زَمَانه فريد عصره علمًا وزهدًا وشجاعةً وسخاءً وأمرًا بِالْمَعْرُوفِ ونهيًا عَن الْمُنكر وَكَثْرَة تصانيف، برع في كل العلوم -عدا علم القراءات-

لذا استحق لقب شيخ الإسلام .

قال عنه المزي: «مَا رَأَيْتُ مثله، وَلَا رأى هُوَ مثل نَفسه، وَمَا رَأَيْتُ أحدًا أعلم بِكِتَاب الله وَسنة رَسُوله وَلَا أتبع لَهما مِنْهُ» .

وَقَالَ الْعَلامَة كَمَال الدّين بن الزملكاني - رغم أنه من المخالفين له -: «كَانَ إِذا سُئِلَ عَن فنٍ من الْعلم ظن الرَّائِي وَالسَّامِع أَنه لَا يعرف غير ذَلِك الْفَنّ، وَحكم أَن أحدًا لَا يعرفهُ مثله، وَكَانَ الْفُقَهَاء من سَائِر الطوائف إِذا جَلَسُوا مَعَه استفادوا فِي مذاهبهم مِنْهُ مَا لم يَكُونُوا عرفوه قبلَ ذَلِك، وَلَا يُعرف أَنه نَاظر أحدا فَانْقَطع مَعَه، وَلَا تكلم فِي علم من الْعُلُوم سَوَاء أَكَانَ من عُلُوم الشَّرْع أم غَيرها إِلَّا فاق فِيهِ أَهله والمنسوبين إِلَيْهِ، وَكَانَت لَهُ الْيَد الطُّولى فِي حسن التصنيف وجودة الْعبارَة وَالتَّرْتِيب والتقسيم والتبيين» .

أخلاقه:

كان ﵀ صَالحًا سلفيًّا متألهًا عَن الدُّنْيَا، صَيِّنًا تقيًّا برًّا بِأُمِّهِ،ورعًا عفيفًا عابدًا ناسكًا صوّامًا قوّامًا ذَاكِرًا لله تَعَالَى فِي كل أَمرٍ وعَلى كلِّ حَال، رجّاعًا إِلَى الله فِي سَائِر الْأَحْوَال والقضايا، وقّافًا عِنْد حُدُود الله تَعَالَى وأوامره ونواهيه، آمرًا بِالْمَعْرُوفِ، ناهيًا عَن الْمُنكر بِالْمَعْرُوفِ، مَقْصُودَه الْكتاب وَالسّنة .

قال ﵀: «إِنَّه ليقفُ خاطري فِي الْمَسْأَلَة وَالشَّيْء أَو الْحَالة الَّتِي تشكل عليَّ فأستغفر الله تَعَالَى أَلف مرّة أَوأكثر أَو أقل، حَتَّى ينشرح الصَّدْر، وينحل إِشْكَال مَا أشكل، وأكون إِذ ذَاك فِي السُّوق أَو الْمَسْجِد أَو الدَّرْب أَو الْمدرسَة لَا يَمْنعنِي ذَلِك من الذّكر وَالِاسْتِغْفَار إِلَى أَن أنال مطلوبي» .

وَكَانَ ﵀ يَقُول: «رُبمَا طالعتُ على الْآيَةِ الْوَاحِدَة نَحْو مائَة تَفْسِير، ثمَّ أسأَل الله

الْفَهم، وَأَقُول: يَا معلم آدم وَإِبْرَاهِيم عَلمنِي، وَكنت أذهب إِلَى الْمَسَاجِد المهجورة وَنَحْوهَا وأمرغُ وَجْهي فِي التُّرَاب وأسأل الله تَعَالَى، وَأَقُول: يَا معلم إِبْرَاهِيم فهمني» .

خَلْقُهُ:

كان رحمه الله أسودَ الرأس، قليلَ شيب اللحية، ورِبْعةً من الرجال، جهوري الصوت، أبيضَ، مقتصدًا في لباسه وعمامته، يقص شعره دائمًا.

محنته:

ابتلي بالسجن سبع مرات، بلغت جملتها خمس سنوات تقريبًا .

الأولى: في دمشق عام ٦٩٣ هـ، وكانت عدة أيام، سببها أن نصراني سب النبي ﷺ، وكان ابن أحد الأمراء قد دافع عن النصراني بكل ممكن، فعندما بلغ الخبرُ شيخَ الإسلام التقى بالشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث في وقته، فرفعا أمره إلى نائب السلطان بدمشق، وكلّماه فِي أمر الملعون، فأجاب إلى إحضاره وخرجوا.

فرأى الناس ابن الأمير، فكلّموه فِي أمره، وكان معه بدويّ، فقال: «إنّه خيرٌ منكم»، فرَجَمَتْه الخلق بالحجارة، وهرب ابن الأمير، فبلغ ذلك نائب السلطنة، فغضب لافتئات العوامّ، وطلب الشيخين فأخرق بهما، وضُرِبا بين يديه، وحُبسا عدة أيام، ثم دعاهما وأرضاهما، وكان هذا سبب تأليف سفره العظيم: «الصارم المسلول على شاتم الرسول»

الثانية: في مصر، وكانت مدتها سنة ونصف من رمضان ٧٠٥هـ إلى ربيع أول ٧٠٧هـ، وكان معه في سجنه أخواه عبد الله وعبد الرحمن، وسببها كان مسألة العرش، ومسألة الكلام، ومسألة النزول.

الثالثة: في مصر، وكانت مدتها أسبوعين من ٣/ ١٠/ ٧٠٧هـ إلى ١٨/ ١٠/ ٧٠٧هـ، وسببها أنه ألف كتابه المعروف بـ «الرد على البكري».

الرابعة: في مصر، لمدة شهرين وأيام، من آخر شهر شوال ٧٠٧هـ، إلى أول سنة ٧٠٨هـ، وسببها مكيدة نصر المنبجي وبيبرس الجاشنكير.

الخامسة: بالإسكندرية من يوم ١/ ٣/ ٧٠٩هـ إلى ٨/ ١٠/ ٧٠٩هـ، لمدة سبعة شهور،وسببها مكيدة نصر المنبجي وبيبرس الجاشنكير.

السادسة: بدمشق، لمدة ستة أشهر، من يوم الخميس ١٢/ ٧/ ٧٢٠هـ إلى يوم الاثنين ١٠/ ١/ ٧٢١هـ، بسبب مسألة الحلف بالطلاق .

السابعة: بدمشق لمدة عامين وثلاثة أشهر ونصف تقريبًا، من يوم الاثنين ٦/ ٨/ ٧٢٦هـ إلى وفاته الاثنين ٢٠/ ١١/ ٧٢٨هـ، وكانت بسبب مسألة الزيارة .

عبادته:

قال ا بن القيم: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة» .

وقال لي مرة: «ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة» .

وكان يقول في محبسه في القلعة: «لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة» . أو قال: «ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا» .

وكان يقول في سجوده - وهو محبوس -: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» .

وقال لي مرة: «المحبوس من حُبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه» .

وعلم الله، ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه؛ فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينةً) .

تلامذته:

❁ شمس الدين ابن قيم الجوزية ﵀ وهو من أشهر تلاميذه ولازمه ستة عشر عامًا .

❁ ابن مفلح ﵀ .

❁ أبو عبد الله محمد الذهبي ﵀.

❁ إسماعيل بن عمر بن كثير ﵀.

❁ محمد بن عبد الهادي المقدسي ﵀.

وغيرهم كثير .

مؤلفاته:

له موروثٌ كبير من المؤلفات، وكان يكتب من حفظه، وأتلف من مؤلفاته كثير .

قال الحافظ البزار ﵀: «وأما مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها

أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالبًا أحد؛ لأنها كثيرة جدًا، كبارًا وصغارًا، أو هي منشورة في البلدان، فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه» .

قال الذهبي رحمه الله: «لعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلاث مائة مجلد، لا، بل أكثر».

قال ابن عبد الهادي رحمه الله: «أملى شيخنا المسألة المعروفة بالحموية بين الظهر والعصر».

ومن أشهر المطبوع: «مجموع الفتاوىٰ»، «منهاج السنة النبوية»، «درء تعارض العقل والنقل»، «الصارم المسلول على شاتم الرسول»، «بيان تلبيس الجهمية»، «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، «الرد علىٰ البكري»، «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، «الفتاوى الكبرى»، «العبودية»[١]، «الحموية»، «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، «العقيدة الواسطية» .

وفاته:

توفي رحمه الله ليلة الاثنين ٢٠/ ١١/ ٧٢٨هـ في السجن، وكان مدة حبسة مداومًا على الذكر والعبادة، ختم الْقُرْآن مُدَّة سجنه بالقلعة ثَمَانِينَ أَو إِحْدَى وَثَمَانِينَ ختمة، وفاضت روحه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر][٢].

---

[١] وهي مطبوعة أيضًا ضمن «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩)، وفي «الفتاوى الكبرى» (٥/ ١٥٥) .

[٢] مصادر الترجمة:

العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، لابن عبد الهادي .

تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي .

الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، تقديم الشيخ بكر أبو زيد .

بسم الله الرحمن الرحيم

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَمُ الْأَعْلَامِ، نَاصِرُ السّنّةِ، وَقَامِعُ الْبِدْعَةِ، أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ ابْنِ تَيْمِية -رضي الله عنه وَأَرْضَاهُ- عَنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] . **فَمَا الْعِبَادَةُ وَمَا فُرُوعُهَا؟**

وَهَلْ مَجْمُوعُ الدِّينِ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ أَمْ لَا؟

وَمَا حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ؟

وَهَلْ هِيَ أَعْلَى الْمَقَامَاتِ، أَمْ فَوْقَهَا شَيْءٌ مِنْ الْمَقَامَاتِ؟

وَلْيَبْسُطْ لَنَا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ .

الموضوع الذي تتناوله الرسالة هو «العبادة وتعريفها وأقسامها وما يتعلق بها»، وهي أجَلُّ موضوع؛ لأنها الغاية من خلق الخلق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات] .

وهذه الرسالة جوابٌ عن سؤالٍ قد قسمه سائله أجزاء، وقد وفَّى شيخ الإسلام رحمه الله الإجابة على كل جزء .

وقول السائل: «رَضِيَ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ» .

الترضي هو شعار للصحابة رضي الله عنهم كلما ذكر اسم أحدهم؛ لأنه إخبار بحالهم، لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ

ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾[التوبة: ١٠٠] .

أما على غير الصحابة؛ فيجوز إن كان للدعاء والرجاء، كقول القائل: «رحمه الله وغَفَرَ له» فهذا دعاء بالرحمة والمغفرة .

أما إن كان للإخبار فلا يجوز؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله .

وأما أن يُجعلَ الترضي لغير الصحابة بقصد الدعاء والرجاء شعارًا ملازمًا كلما ذكر اسم الشخص كحال الصحابي؛ فلم يستحبه العلماء .

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، «الْعِبَادَةُ» هِيَ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ.

هذا تعريف العبادة عند شيخ الإسلام رحمه الله، وهو أحسن تعريف للعبادة، وسيأتي التعريف اللغوي لاحقًا.

وبعض أهل العلم استدرك على تعريف شيخ الإسلام وأضاف كلمة: «**التروك**»، كالشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله؛ لأن ما يحبه قد يكون فعلًا لطاعة، وقد يكون تركًا لمعصية، والترك نوعان: «ترك ظاهر، وترك باطن» .

فالترك الظاهر: كترك السرقة والخمر والزنا ....، وفي الحديث: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ... وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»[١] .

[١] أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والترك الباطن: كترك الكبر والحسد والنفاق والغل ...، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] .

لذلك أضاف الشيخ السعدي رحمه الله كلمة: «التروك» إلى تعريف العبادة .

قال الشيخ السعدي رحمه الله: « الْعِبَادَةُ وَالْعُبُودِيَّةُ للهِ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الْعَقَائِدِ وَأَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، فَكُلُّ مَا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ مِنْ الْأَفْعَالِ وَالتُّرُوكِ فَهُوَ عِبَادَةٌ؛ وَلِهَذَا كَانَ تَارِكُ الْمَعْصِيَةِ للهِ مُتَعَبِّدًا مُتَقَرِّبًا إِلَى رَبِّهِ بِذَلِكَ» [١] .

وعرّفها ابنُ القيم رحمه الله بتعريف آخر فقال: «وَالْعِبَادَةُ هِيَ: كَمَالُ الْحُبِّ مَعَ كَمَالِ الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ» [٢] .

وقال في النونية:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ: غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ، هُمَا قُطْبَانِ [٣]

أي ركنا العبادة: كمال الحب وكمال الذل، وهذا التعريف مقتبس من كلام شيخ الإسلام، وسيأتي مفصًلا - بإذن الله - في الرسالة .

وعرَّفها بعض الفقهاء بقوله: «فِعْلُ الْمُكَلَّفِ عَلَى خِلَافِ هَوَى نَفْسِهِ تَعْظِيمًا لِرَبِّهِ» [٤] .

وكذلك عُرِّفت بـ: «فِعْل مَا يُرْضِي الرَّبُّ» [٥].

---

[١] «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن»، ص ٣٦١، ط / وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ .

[٢] «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، ص ٥٣٢، ط / دار عالم الفوائد بجدة، ١٤٢٩ هـ

[٣] «القصيدة النونية»، ص ٣٥، ط / مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ١٤١٧هـ .

[٤] «التوقيف على مهمات التعاريف» للمناوي (٢٣٤)، ط / عالم الكتب .

[٥] «الكليات» لأبي البقاء الكفوي، ص ٦٥٠، ط / مؤسسة الرسالة - بيروت .

وغير ذلك من التعريفات التي تدور حول هذا المعنى، وتعريف شيخ الإسلام أحسن التعريفات .

وقوله ﷬ **في التعريف: «الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»** تعود على **«الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ»** معًا .

فالأقوال الباطنة: هو ما يُسمى: «قول القلب»، وهو: التصديق .

والأقوال الظاهرة: هي أقول اللسان كذكر الله ﷻ ...

والأعمال الباطنة: هي أعمال القلب، كمحبة الله ورسوله، وخشية الله، والإخلاص له، والإنابة إليه ...

والأعمال الظاهرة: هي أعمال الجوارح .

هذا، وإن العبادات الظاهرة لا تكون قربة مقبولة عند الله إلا إذا اشتملت على أعمال وأقوال باطنة، كالتصديق والإخلاص .

***

فَالصَّلَاةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالْحَجُّ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ، وَالْأَمْرُ بِالمعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْجَارِ، وَالْيَتِيمِ، وَالْمِسْكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالْمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ، وَالدُّعَاءُ، وَالذِّكْرُ، وَالْقِرَاءَةُ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ.

وَكَذَلِكَ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَخَشْيَةُ اللهِ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ، وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ، وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ هِيَ مِنْ الْعِبَادَةِ للهِ .

ذكر رحمه الله نماذج من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

قوله رحمه الله: «**فَالصَّلَاةُ**» الصلاة تشتمل على الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، فمن أعمال القلب الباطنة: «النية والخشوع»، ومن أعمال الجوارح الظاهرة: «الركوع والسجود» .

قوله رحمه الله: «**الْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ**» الجهاد قد يكون قولًا باللسان، وقد يكون عملًا بالجوارح، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَأَنْفُسِكُمْ، وَأَلْسِنَتِكُمْ**»[١] .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما **في قوله** جل وعلا: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾[الفرقان] قال: «**بالقرآن**»[٢] .

فسمى اللهُ الجهادَ بالقرآن: ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾، وهو جهاد الدعوة والتعليم والرد على أعداء الدين، وهذا من الجهاد باللسان .

قوله رحمه الله: «**وَالْمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ**» أي: العبيد والإماء، يحسنون إليهم كما أوصى بذلك النبي في قوله لأبي ذر رضي الله عنه: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»[٣] .

قوله رحمه الله: «**وَالْبَهَائِمِ**» أي ويُحسن أيضًا إلى المملوك من البهائم، لما ورد في

---

[١] أخرجه أحمد (١٢٢٤٦)، وأبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦، ٣١٩٢)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «المشكاة» (٣٨٢١) .

[٢] أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٩ / ٢٨١)، ط / مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ هـ، ت / محمود شاكر .
وأخرجه ابن كثير في «تفسيره» (٦ / ١١٦)، ط / دار طيبة ١٤٢٠ هـ، ت / سامي بن محمد سلامة .

[٣] رواه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١) .

الحديث: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلاَ سَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ» [١].

❊ ❊ ❊

وَذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ للهِ هِيَ الْغَايَةُ الْمَحْبُوبَةُ للهِ، وَالْمَرْضِيَّةُ لَهُ، الَّتِي خَلَقَ الْخَلْقَ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

وَبِهَا أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣] **وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ، وَصَالِحٌ، وَشُعَيْبٌ، وَغَيْرُهُمْ لِقَوْمِهِمْ.**

يُبين رحمه الله أهمية العبادة ومنزلتها، بأنها هي: الغاية المحبوبة والمرضية لله، ومن أجلها خلق الله الخلق، وأرسل الله الرسل، وما من رسول أرسله الله إلا وبدأ قومه بالدعوة إلى إفراد الله بالعبادة، وهذا يبين أهمية العبودية ومنزلتها، فما بدأ الرسل دعوتهم ببعض مسائل الفروع كالأحكام الفقهية ولا بإنكار منكرات قومهم، وإنما بأصل الدين بدأوا.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤].

---

[١] رواه البخاري (٧٤٥) عن أسماء رضي الله عنها، ورواه أيضًا (٢٣٦٥) ومسلم (٢٢٤٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما. ورواه مسلم (٩٠٤) عن جابر رضي الله عنه، و (٢٢٤٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه، (٢٢٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم بعد ذلك تناول كل رسول أو نبي منكرات قومه وحذَّر منها ونهى عنها، بعد تقرير التوحيد والدعوة إلى إفراد الله بالعبادة، كما هو مبين في قصص الرسل عليهم السلام، فنبي الله شعيب ﷺ يحذر قومه من إنقاص الكيل والميزان، ونبي الله لوط ﷺ يحذر قومه من الفاحشة، وهود وصالح عليهما السلام يحذران قومهما من التجبر في الأرض والعلو فيها .

وقوله رحمه الله: «**كما قال تعالى:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾» .

اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾هي لام التعليل، وهذا مذهب أهل السنة؛ لأن أهل السنة يثبتون الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، فالحكمة من خلق الجن والإنس هي إفراد الله تعالى وحده بالعبادة[١] .

وقد يشكل على البعض في فهم الآية فيقول: « الله تعالى خلق الخلق لعبادته ولكن مِن الخلق مَن لا يعبد الله» .

والإجابة عن هذا الإشكال في قولين:

الأول: ما جاء عن علي بن أبي طالب في تفسيرها، قال: «﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**أي: إِلَّا لِآمُرَهُمْ أَنْ يَعْبُدُونِي وَأَدْعُوَهُمْ إِلَى عِبَادَتِي**»[٢]، فمنهم من امتثل، ومنهم من خالف .

الثاني: أن العبادة لله نوعان:

---

[١] **قال العثيمين** رحمه الله: «التعليل لبيان الحكمة من الخلق وليس التعليل الملازم للمعلول، إذ لو كان كذلك للزم أن يكون الخلق كلهم عبادا يتعبدون له، وليس الأمر كذلك، فهذه العلة غائية وليست موجبة.
فالعلة الغائية لبيان الغاية والمقصود من هذا الفعل، لكنها قد تقع وقد لا تقع، مثل: بريت القلم لأكتب به، فقد تكتب وقد لا تكتب.
والعلة الموجبة معناها: أن المعلول مبني عليها، فلابد أن تقع، وتكون سابقة للمعلول ولازمة له، مثل: انكسر الزجاج لشدة الحر». [القول المفيد ١ / ٢٥، ط/ دار ابن الجوزي] .

[٢] تفسير البغوي (٧/ ٣٨٠) ط / دار طيبة، ١٩٩٧ م، ورجح ابن كثير في «تفسيره» هذا التفسير .

❁ عبادة طوع.

❁ وعبادة كُره[١].

❁ فالمؤمنون يعبدون الله طوعًا، والخلق كلهم - ومعهم المؤمنون - معبّدون لله كرهًا؛ بامتثالهم لأوامر الله الكونية، كإماتةٍ أو إحياءٍ، أو مرضٍ، أو صحةٍ ... إلخ، من المقادير التي تسري على العباد دون اختيار منهم، فهم عبيد لله من هذا الباب، إذ لا يستطيع أحدٌ أن يخالف ما قدره الله كونًا .

❁❁❁

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾[النحل: ٣٦] .

بعث الله تعالى في كل أمة رسولًا؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[فاطر: ٢٤] .

وكلمة ﴿ أُمَّةٍ ﴾وردت في القرآن بعدة معانٍ يحددها السياق:

❁ فوردت بمعنى: «**الجماعة من الناس**»، وهو المقصود هنا، وتنقسم الأمة بهذا المعنى إلى قسمين: (أمة إجابة، وأمة الدعوة) .

فأمة الدعوة: الذين أُرسل إليهم رسول من الرسل ليدعوهم، وتشمل مؤمنهم وكافرهم .

وأمة الإجابة: الذين استجابوا لدعوة الرسل .

والسياق يوضح المراد، فإذا كان السياق فيه ثناء فالمقصود أمة الإجابة، كقوله

---

[١] وسيأتي تفصيل ذلك في الرسالة - إن شاء الله - .

تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾[الأعراف]، وإن كان السياق بيان أن رسولًا أُرسل إلى أمة من الناس، فالمقصود أمة الدعوة .

❁ ووردت بمعنى «**الرجل الذي يُقتدى به**»؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل: ١٢٠] .

❁ ووردت بمعنى «**المدة من الزمن**»؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[يوسف: ٤٥]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾[هود: ٨] .

❁ ووردت بمعنى «**الملة**»؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾[يونس: ١٩] . وقوله تعالى:﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣] .

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

الطاغوت لغةً: من «الطغيان»، وهو مجاوزة الحد [١]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾[الحاقة: ١١]، أي: لما جاوز الماء حدَّه .

واصطلاحًا: كل معبود أو متبوع أو مطاع من دون الله، أو في معصية، أو بغير إذن الله من الله .

وفسره السلف ببعض أفراده؛ لذلك تعددت التفسيرات عنهم في الآيات التي ورد فيها ذكر الطاغوت:

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «**الطاغوت: الشيطان**» [٢] .

---

[١] انظر «مختار الصحاح» مادة: طغا .

[٢] أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥ / ٤١٧) .

وقال جابر رضي الله عنه: «**الطواغيت: كهان كانت تنزل عليهم الشياطين**»[١].

وأحيانًا يسمون حاكمًا يحكم بغير ما أنزل الله طاغوتًا، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠] قال: «﴿الطَّاغُوتِ﴾ رجل من اليهود كان يقال له: كعب بن الأشرف»[٢]، وكان كعب من زعماء قومه، وكان يحكم بالرشوة.

وسبب نزول الآية: أنه كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فقال اليهودي- وكان صاحب الحق -: «نحتكم إلى محمد»، وقال المنافق: «نحتكم إلى كعب بن الأشرف»[٣].

وفسره بعض السلف بقوله: «**الطاغوت: ما عُبد من دون الله**»[٤].

واستدرك بعض العلماء وأضافوا كلمة «**وهو راض**»؛ احترازًا ممن عُبِد من دون الله وهو غير راضٍ، كالمسيح وأمه عليهما السلام، والملائكة، وبعض الصالحين، فلا يكونون طواغيت.

والبعض قال: «لو قلنا: «وهو راض» سنخرج الحجر والشجر والشمس ... الذين عبدوا من دون الله؛ لأنه لا يُتصوَّر منهم الرضا».

لكن الأحسن أن نضيف: «وهو راض»، لأن الشجر والحجر هو في الأصل مسبحٌ

---

[١] أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥ / ٤١٨).

[٢] أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨ / ٥١١).

[٣] أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨ / ٥١١).

[٤] قاله الطبري في «تفسيره» (٥ / ٤١٩).

لله ولا يرضى أن يُعبد من دون الله، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[النحل]، وقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء].

والآية تفيد معنى «لا إله إلا الله»، وأن الرسل أرسلوا بهذا الكلمة؛ لدعوة الناس إليها.

فمعنى كلمة «لا إله إلا الله»: اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

فلا إله إلا الله فيها: «نفي، وإثبات».

فالنفي «لا إله»: هو نفي عبادة الطاغوت، وما يُعبَد من دون الله.

والإثبات «إلا الله»: هو إفراد الله ﷻ بالعبادة، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[البقرة: ٢٥٦].

والعروة الوثقى فُسرت بأنها لا إله إلا الله.

***

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

هذا معناه أن كل الرسل ﷺ دعوا أممهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، وأن النصارى يكذبون في ادعائهم بأنهم يتبعون عيسى ﵇، وكذلك اليهود بالنسبة لموسى ﵇، بينما هو مشركون بالله، ويفترون على الأنبياء بأنهم دعوا إلى هذا الشرك !!

والله ﷻ أخبر بأن جميع الرسل دعوا إلى إفراد الله بالعبادة وحذروا من عبادة غيره، كما قال سبحانه عن عيسى ﵇: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى

وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾[المائدة: ١١٦-١١٧] .

***

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٩٢] .

الأمة هنا بمعنى: «الملة والدين»، فقوله تعالى: ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي أن جميع الرسل الكرام عليهم السلام كانوا على دين واحد، على الإسلام،وهذا الذي يُسمى: «الإسلام العام»، فكل الرسل والأنبياء كانوا مسلمين بالمعنى العام للإسلام، الذي هو: «الاستسلام لله تعالى وإفراده بالعبادة» .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران: ١٩] .

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ [آل عمران: ٢٠] .

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[آل عمران] .

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[يونس] .

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[آل عمران] .

وقال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ

مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[البقرة] .

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[البقرة] .

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[يوسف: ١٠١] .

وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾[الأعراف: ١٢٦] .

وقال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴾[النمل: ٤٢] .

وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ ﴾[المائدة: ٤٤] .

وقال تعالى عن ملكة سبأ: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[النمل: ٤٤] .

وقال تعالى عن أتباع عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٥٢] .

فكل الأنبياء وأتباعهم شهدوا أنهم كانوا مسلمين .

***

كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾[المؤمنون: ٥١]، **وَجَعَلَ ذَلِكَ لَازِمًا لِرَسُولِهِ إِلَى الْمَوْتِ كَمَا قَالَ:** ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[الحجر: ٩٩] .

قوله رحمه الله: «**وَجَعَلَ ذَلِكَ لَازِمًا لِرَسُولِهِ**»، المقصود هو نبينا محمد ﷺ، وفي إحدى

النسخ: «**لرسله**». واليقين هو الموت، وسمي الموت يقينًا؛ لأنه حقيقة متيقنة .

فجعل سبحانه العبادة لازمة للنبي ﷺ إلى الموت، ويصح أن يقال: إن الله جعل العبادة لازمة لكل رسله حتى الموت؛ لأن ما ينطبق على النبي ﷺ ينطبق على كل الرسل .

وقد عَبدَ النبيُّ ﷺ ربَّه حق العبادة، حتى أتاه اليقين -الموت-، وفي هذا رد على من يزعم أن اليقين مرتبة من المراتب إذا وصل إليها العبد ارتفع عنه التكليف!! فهذا كلام باطل، فاليقين هو الموت، ودليل ذلك ما ذكره عن أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾[المدثر] .

فقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أمرٌ من الله بالعبادة حتى الموت، والنبي ﷺ في مرض موته يخرج إلى الصلاة يهادى بين رجلين، وعجز عن الصلاة قائمًا فصلى في بيته قاعدًا، وصلى أبو بكرٍ بالناس، وظل إلى آخر نفس يتنفسه يعبد الله ويذكره حتى فاضت روحه إلى بارئها .

* * *

وَبِذَلِكَ وَصَفَ مَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الأنبياء] . **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٦]۩

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: الملائكة، ووُصِفوا بذلك

لأن الملائكة في السماء، والله سبحانه من صفاته العُلُوُّ، قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾؛ أي: لا ينقطعون ولا يملون.

ففي الآيتين يُخبر الله تعالى عن الملائكة أنهم يعبدون الله تعالى، ولا يملون عن عبادته ولا ينقطعون عنها.

فشيخ الإسلام يبينُ أن العبادة ليست قاصرةً على الجن والإنس، بل الملائكة أيضًا يعبدون الله ﷻ.

والفرق: أن الإنس والجن مكلفون، فمنهم من يطيع فيمتثل لأمر الله الشرعي، ومنهم من يعصي، أما الملائكة فهم مجبولون على العبادة والطاعة، قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

***

وَذَمَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿عَنۡ عِبَادَتِي﴾ فُسرت: عن دعائي، وذلك لدلالة السياق.

وعن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1].

[١] أخرجه الترمذي (٢٩٦٩)، وأبو داود (١٤٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٧).

وقوله تعالى: ﴿دَاخِرِينَ﴾، أي: أذلاء، فالداخر هو الذليل الصاغر[١] .

فهنا ذم الله الذين يستكبرون عن عبادته، وتوعدهم بجهنم داخرين، وهنا الجزاء من جنس العمل، فكما استكبروا عن عبادة الله تعالى يعاقبهم الله تعالى بأن يذلهم ويهينهم جزاءً وفاقًا.

فكل من تكبر عن عبادة الله؛ يذله الله في الدنيا والآخرة .

أما ذله في الدنيا: أن يكون عبدًا لغير الله، إذ العزة والرفعة أن يكون العبد عبدًا لله، ليس عبدًا لمخلوق مثله، أو أدنى منه، ليس عبدًا لبشر أو لحجر، أو لهوى ... إلخ .

فالعبد إذا ترك عبادة الله، صار عبدًا لغيره، كما قال النبي ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ...**»[٢] .

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية: ٢٣] .

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَـٰنَ﴾[يس: ٦٠] .

وأما ذله يوم القيامة: يدخله الله جهنم ذليلًا صاغرًا .

***

وَنَعَتَ صَفْوَةَ خَلْقِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] .

وَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَـٰهِلُونَ قَالُوا سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾[الفرقان] **الْآيَاتِ.**

---

[١] قاله ابن عباس وغيره، انظر: تفسير الطبري (١٩/ ٥٠٥) .

[٢] رواه البخاري (٢٨٨٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الفعل «يشرب» فعل متعد؛ لذلك تعدى بالباء، والمعنى: يروى بها أو يرتوي بها، من الرِّيِّ، المقابل للشبع في الأكل .

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: تُسَال وتجري .

فالله ﷻ جعل لأهل الجنة - جعلنا الله وإياكم منها - عينًا تنبع في أي مكان أرادوه؛ فتنفجر بماء يَرْتَوُونَ به .

والشاهد في الآية: أن الله لما أثنى على أهل الجنة ومدحهم؛ وصفهم بـ «عباد الله» .

وفي الآية الثانية وصف الله صفوة خلقه بالعبوية، فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، واختار سبحانه من أسمائه اسم «الرحمن» وأضافهم إليه؛ إشارة إلى أنه ﷻ سيرحمهم .

فقوله ﷻ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ هذه إضافة تشريف، إذ المضاف إلى الله إما صفة لله، وإما إضافة مخلوق .

فإضافة الصفة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] .

وإضافة المخلوق على وجهين:

الأول: المضاف إلى الله على سبيل عموم الخلق؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦] .

الثاني: أن يكون على سبيل الخصوص تشريفًا؛ كقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣].

وَلَمَّا قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الحجر].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

موضع الاستشهاد هنا في قوله سبحانه: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ ﴾، وقوله: ﴿ عِبَادِى ﴾ فهنا ثناء على الذين لا يستطيع الشيطان إغواءهم، الذين أخلصهم الله تعالى، وأخلصوا له.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين اصطفاهم الله واختارهم؛ فأخلصهم له.

وقرأها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: (المخلصين)، وهم الذين أخلصوا لله.

وما اصطفاهم الله بالإخلاص إلا لأنهم أخلصوا له؛ فجزاهم من جنس عملهم، ولذلك كان معروف الْكَرْخِيُّ [١] رحمه الله يقول: «**يَا نَفْسُ، أَخْلِصِي تَخْلُصِي**».

***

وَقَالَ فِي وَصْفِ الْمَلَائِكَةِ بِذَلِكَ: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[الأنبياء].

ادَّعى المشركون أن الملائكة بنات الله، وأنهم يشفعون لهم عند الله !! فرد على المشركين زعمهم بقوله: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ فوصف الملائكةَ بالعبودية والامتثال له؛ تنزيهًا لهم عما افتراه المشركون.

---

[١] أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، ت ٢٠٠ هـ، انظر ترجمته في «السير» (٩ / ٣٣٩).

ولا يشفع الملائكة إلا بإذن الله، وكذلك لا يشفع الأنبياء والصالحون إلا بإذن الله، والشفاعة جميعًا تكون للموحدين.

أما المشركون ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر].

***

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

ادعى مشركو العرب أن الملائكة بنات الله !! وادعى النصارى أن المسيح ابن الله !! وادعى اليهود أن عزيرًا ابن الله !!

فقال الله عن كل هؤلاء جميعا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾

فالطائع في عبودية الطوع، والمستكبر عن العبادة في عبودية الكَره، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]

فمن عبادةِ الكَرهِ: سجودُ الظل، فتطول وتقصر على هيئة الساجد، جعله الله سبحانه سجودًا له، وإظهارًا لخضوع العبد وعبوديته لله، شاء العبدُ أم أبى .

وكذلك تسبيح جسد الكافر وذراته، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

***

وَقَالَ تَعَالَى عَنْ الْمَسِيحِ - الَّذِي ادُّعِيَتْ فِيهِ الْأُلُوهِيَّةُ وَالْبُنُوَّةُ -: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الزخرف: ٥٩] .

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» [١] .

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾: أي آيةً وعبرةً .

وقول النبي ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي**» من الإطراء، وهو المبالغة في المدح .

فيُحذّر النبي ﷺ من المبالغة ومجاوزة الحد في مدحه؛ فيدَّعى فيه ما لا يليق إلا لله، كما فعلت النصارى في المسيح، فادعوا أنه ابن الله، وادعوا أنه وأُمّه إلهين من دون الله، فصرفوا العبادة لهما؛ ولذلك سيقول الله للمسيح يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ﴾[المائدة: ١١٦] .

ومن صور إطراء النبي: ادعاءُ علمه بالغيب، فعن الرُّبَيِّع بِنْتِ مُعَوِّذِ بنِ عَفْرَاءَ قالت: «**جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ حِينَ بُنِيَ عَلَيَّ ... فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَاتٌ لَنَا يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ وَيَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدْرٍ، إِذْ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: «وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ» فَقَالَ ﷺ: «دَعِي هَذِهِ وَقُولِي بِالَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ»**» [٢].

فإنكاره على الجارية دليلٌ على عدم علمه بالغيب، وكذلك قوله تعالى لنبيه: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ

---

[١] أخرجه البخاري (٣٤٤٥)، عن عمر ﵁ .

[٢] أخرجه البخاري (٤٨٥٢) .

وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ [الأعراف].

فلو كان ﷺ يعلم الغيب؛ لما مسه السوء مِن أذى قومه له، ومِن قتلٍ لأصحابه ... إلخ، فالنبي لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه من الوحي، وما عدا ذلك فهو لا يعلم، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

ومن الإطراء أيضًا: صرف العبادة له، كالاستغاثة بالنبي، ودعاء النبي، فإذا استغيث به أو دُعي ﷺ فقد اطري، وصُرِف له ما يجوز صرفه إلا لله، وهكذا في كل أبواب العبادة.

وقد زعم بعض المتصوفة أن المقصود من الحديث النهي عن إطراء النبي بوصفه إلهًا كما فعلت النصارى، وأما سائر الإطراء فجائز[١]!!

وهذا كلام باطل غير صحيح، فآخر الحديث يرد على ذلك، فقد قال ﷺ: «**فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**».

ولو كان كل إطراء مأذون به عدا وصفه بالألوهية؛ لَمَا أنكر النبي ﷺ على الجارية قولها كما مر.

ولَمَا أنكر على الأعرابي لمَّا قال له: «**مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ**»، فقال: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[٢].

---

[١] كالبوصيري في بردته؛ إذ قال:

دَع مـا ادَّعَتهُ النصارى في نَبِيِّهِـم ... واحكُم بما شئتَ مَدحًا فيه واحتكِمِ

ثم قال ما لا يُرضي اللهَ والرسولَ؛ فقال:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

[٢] أخرجه أحمد (١٩٦٤)، وابن ماجة (٢١١٧)، عن ابن عباس ﷺ، وصححه الألباني في «الصحيحة»

وقال أحد الصحابة: «قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق» . فقال النبي ﷺ: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ**»[١] .

وقال ﷺ في مرض موته: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»[٢] .

وغير ذلك من النصوص التي كان ينكر النبي ﷺ فيها الإطراء .

والإطراء ليس من محبة النبي، فالحب هو الاتباع والتأسي به، ولا يكون المرء مؤمنًا إلا بحب النبي ﷺ، كما قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[٣] .

وتمام المحبة طاعته فيما أمر، والكف عما نهى، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[آل عمران] .

وأما مدح النبي والثناء بالحق فجائز، كمدحه بأنه سيد ولد آدم، وأنه خليل الله، وأنه أشرف خلق الله .

***

وَقَدْ نَعَتَهُ اللهُ بِالْعُبُودِيَّةِ فِي أَكْمَلِ أَحْوَالِهِ، فَقَالَ فِي الْإِسْرَاءِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾[الإسراء: ١] .

وَقَالَ فِي الْإِيحَاءِ: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[النجم: ١٠] .

. (١٣٩)

[١] أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠ / ٢٤٦)، وفيه ابن لهيعة .

[٢] أخرجه مالك في «الموطأ» (٨٥)، ت / محمد فؤاد عبد الباقي، وصححه الألباني في «المشكاة» (٧٥٠)

[٣] أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، عن أنس ﷺ .

وَقَالَ فِي الدَّعْوَةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩] .

وَقَالَ فِي التَّحَدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، **فَالدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ.**

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ جِبْرِيلَ لَمّا جاءَ إِلَى النَّبِيِّ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ وَسَأَلَهُ عَنْ الْإِسْلَامِ وْالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: «فَمَا الْإِيمَانُ؟» قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: «فَمَا الْإِحْسَانُ؟» قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك»، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1] فَجَعَلَ هَذَا كُلَّهُ مِنْ الدِّينِ.

يبين رحمه الله أن أعلى المنازل وأجلها هي منزلة العبودية، واستشهد على ذلك بأن الله وصف نبيه بالعبودية في أكمل مقامات التشريف، فقال سبحانه في مقام الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ ولم يقل: «بنبيه، ولا بخليله، ولا برسوله» .

وكذلك في مقام الوحي، إذ اصطفاه الله من بين الخلق بالرسالة، وكذلك في مقام الدعوة، وكذلك في مقام التحدي، لمَّا تحدى الله الكافرين أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾.

فهذا يدل على أن العبودية لله هي أشرف المقامات وأعلاها، وأشرف لقب وأعظم تكريم أن يكون الإنسان عبدًا لله جل وعلا .

---

[١] أخرجه مسلم (٨)، عن عمر رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩، ١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقوله ﷺ: «**فَالدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ**» هذه إجابة على سؤال السائل: «**وَهَلْ مَجْمُوعُ الدِّينِ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ أَمْ لَا؟**»؛ لأنه عرَّف العبادة بقوله: «**اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ**» .

فدخل في ذلك الدين كله، فالذبح عبادة، والنذر عبادة، والطواف عبادة، ومن لوازم ذلك أن هذه العبادات إذا صرفت لغير الله كانت شركًا، فالشرك عبادة غير الله، ومعنى «لا إله إلا الله» أي: لا معبود بحق إلا الله .

واستشهد بحديث جبريل ليبين أن هذه المقامات الثلاثة «الإسلام والإيمان والإحسان» كلها من الدين؛ لأنه لمَّا سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان؛ أجابه ثم قال: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**».

* * *

وَالدِّينُ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، يُقَالُ: دِنْتُهُ فَدَانَ، أَيْ: أَذْلَلْتُهُ فَذَلَّ، وَيُقَالُ: نَدِينُ اللهَ [١]، وَنَدِينُ للهِ أَيْ: نَعْبُدُ اللهَ وَنَطِيعُهُ وَنَخْضَعُ لَهُ، فَدِينُ اللهِ عِبَادَتُهُ وَطَاعَتُهُ وَالْخُضُوعُ لَهُ.

وَالْعِبَادَةُ أَصْلُ مَعْنَاهَا الذُّلُّ أَيْضًا، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ إِذَا كَانَ مُذَلَّلًا، قَدْ وَطِئَتْهُ [وَطَّئَتْهُ] الْأَقْدَامُ.

لَكِنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الذُّلِّ وَمَعْنَى الْحُبِّ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ للهِ بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ، فَإِنَّ آخِرَ مَرَاتِبِ الْحُبِّ هُوَ التَّتَيُّمُ، وَأَوَّلُهُ «الْعَلَاقَةُ» لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ، ثُمَّ «الصَّبَابَةُ» لِانْصِبَابِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، ثُمَّ «الْغَرَامُ» وَهُوَ

[١] مما اشتهر على ألسنة البعض (نُدين) بضم النون، وهذا خطأ فاحش، إذ «نُدين» بمعنى الإدانة والاتهام .

الْحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، ثُمَّ «الْعِشْقُ»، وَآخِرُهَا «التَّتَيُّمُ» يُقَالُ: تَيْمُ اللهِ أَيْ: عَبْدُ اللهِ، فَالْمُتَيَّمُ الْمُعَبَّدُ لِمَحْبُوبِهِ.

هنا يريد أن يصل إلى أن الدين هو العبادة؛ لأنه إذا كان الخضوع والذل هو العبادة، والدين هو الخضوع والذل، فإن الدين إذًا هو العبادة.

ثم جاء بالتعريف اللغوي للعبادة تأكيدًا بأن الدين هو العبادة، فقال: «**طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ إِذَا كَانَ مُذَلَّلًا قَدْ وَطِئَتْهُ [وَطَّئَتْهُ] الْأَقْدَامُ**» .

[**وَطِئَتْهُ، وَطَّئَتْهُ**] اختلاف نسخ .

[**وَطَّئَتْهُ**] **الْأَقْدَامُ**، أي: ذللته الأقدام ومهدته، بسبب وطئها عليه .

والأخرى، أي: طريق مذلل ممهد تطؤه الأقدام .

ثم قال: «**لَكِنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الذُّلِّ وَمَعْنَى الْحُبِّ**» أي العبادة في اللغة تتضمن معنى الذل، أو معنى الحب، فيطلق على الحب في اللغة: عبادة، وكذلك على الذل .

أما في الاصطلاح، فلا بد أن تجمع العبادة بين غاية الحب وغاية الذل جميعًا .

ثم ذكر خمسة مراتب للحب فقال: «**وَأَوَّلُهُ الْعَلَاقَةُ ... ثُمَّ «الصَّبَابَةُ»... ثُمَّ «الْغَرَامُ» ... ثُمَّ «الْعِشْقُ» وَآخِرُهَا «التَّتَيُّمُ»**».

وأهل اللغة وشارح الطحاوية وغيره يذكرون أن مراتب المحبة عند العرب عشرة مراتب[١]، وهي:

---

[١] وانظر: «الداء والدواء» لابن القيم .

أولًا: العلاقة، وهي تعلق القلب بالمحبوب[١].

الثانية: الإرادة، يقال: أراد فلان فلانًا، أي أحبه، وهي ميل القلب إلى المحبوب وطلبه له .

الثالثة: الصبابة، وهي انصباب القلب إلى المحبوب، بحيث لا يملكه صاحبه، يقال: «صَبَا وَصَبْوَةً، وَصَبَابَةً» . فالصَّبا: أصل الميل، والصَّبْوة: فوقه، والصَّبَابَةُ: الميل اللازم، وانصباب القلب بكليته[٢].

الرابعة: الغرام، وهو الحب اللازم للقلب[٣]، ومنه سمي الغريم غريمًا؛ لملازمته لصاحبه، ومنه قوله ﷻ عن النار: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، أي: ملازمًا لا انفكاك عنه .

الخامسة: المودة أو الوُدُّ، وهي صَفْوُ المحبةِ وَخالِصُهَا ولُبُّهَا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم]، أي: محبة في قلوب الخلق، ومنه اسم الله ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ .

السادسة: الشَّغَفُ، وهي وصول المحبة إلى شَغَاف القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] .

السابعة: العشق، وهو محبة مع شهوة، أو حب مفرط يُخَافُ على صاحبه منه .

---

[١] ومنه قول الشاعر:
وَعُلِّقْتُ لَيْلَى وَهْيَ ذَاتُ تَمَائِمِ

[٢] ومنه قول الشاعر:
تَشَكَّى الْمُحِبُّونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي ... تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي

[٣] **قال ابن القيم** ﷺ: «وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب، وقلَّ أن تجده في أشعار العرب». [الداء والدواء: ١٨٣] .

الثامنة: التَّيْمُ أو التَّتَيُّمُ، وهو التعبد [١].

التاسعة: التعبد، وهو أعلى من التتيم، وهو عبودية المحبوب ظاهرًا وباطنًا .

العاشرة: الْخُلَّةُ، وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه [٢].

ومن الفوائد المتعلقة بهذه الدرجات: أن الله تعالى يُوصف بالحب والود والإرادة والخُلة .

فالحب؛ كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة: ٥٤] .

والود؛ كقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، فتشمل المودة في قلوب الخلق، وتشمل أيضًا أن الله تعالى يحبهم .

والإرادة؛ كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[النساء: ٢٧] .

والخُلَّة، التي انفرد بها الخليلان إبراهيم عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] .

وقال النبي ﷺ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَما اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**» [٣] .

---

[١] **قال ابن القيم**: «وبينه وبين اليتم – الذي هو الانفراد – تلاق في الاشتقاق الأوسط، وتناسب في المعنى. فإن المتيم المنفرد بحبه وشجوه، كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه، وكل منهما مكسور ذليل، هذا كسره يتم، وهذا كسره تتيم» . [مدارج السالكين: ٣ / ٣١] .

[٢] **ومنه قول الشاعر**:
قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَلِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلَا.

[٣] رواه مسلم (٥٣٢) عن جندب بن جنادة رضي الله عنه.

أما بالنسبة لمحبة العبد لله: فمن الخطأ أن يُوصف العبدُ بعشق الله! كقول بعض المتصوفة: «العشق الإلهي»؛ لأن العشق حب مع شهوة، وهذا غير لائق ولا يصح في حق الله ﷻ.

وتلك التقسيمات العشرة للمحبة باعتبار دراجتها من الأدنى إلى الأعلى، وقسمها ابن القيم باعتبار آخر .

فقال ﵀: «المحبة أربعة أنواع يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها.

أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يُحب الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام، وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يُحب، ولا تستقيم محبةُ ما يحب إلا فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئا مع الله لا لله، ولا من أجله، ولا فيه، فقد اتخذه ندا من دون الله، وهذه محبة المشركين»اهـ[١].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾[البقرة: ١٦٥].

ومن كمال محبة الله أن يُبغِضَ العبد ما يَبْغَضَه الله، وأن يُبغِضَ لله، فعن أبي أمامة

[١] «الداء والدواء» (ص ٤٤٣).

ﷺ، عن رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»[١].

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه: وهي المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يُلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تُذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله، وشغلت عن محبته، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]»[٢].

❁ ❁ ❁

وَمَنْ خَضَعَ لِإِنْسَانٍ مَعَ بُغْضِهِ لَهُ فَلَا يَكُونُ عَابِدًا لَهُ، وَلَوْ أَحَبَّ شَيْئًا وَلَمْ يَخْضَعْ لَهُ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا لَهُ، كَمَا قَدْ يُحِبُّ وَلَدَهُ وَصَدِيقَهُ، وَلِهَذَا لَا يَكْفِي أَحَدُهُمَا فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ اللهُ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ اللهُ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ لَا يَسْتَحِقُّ الْمَحَبَّةَ وَالذُّلَّ التَّامَّ إِلَّا اللهُ.

يوضح هنا أن العبادة هي «**كمال الحب مع كمال الذل**»، وأن الحب الذي خلا عن الذل لا يكون عبادة، كمحبة الإنسان ولدَه وصديقَه، وكذلك الذل الذي خلا عن الحب لا يكون عبادة؛ كأن يذل أو يخضَع لسلطان ظالم وهو يبغضه .

فلابد من اجتماع «**كمال الحب مع كمال الذل**» لكي يصدق عليه أنه عبادة، هذا من الناحية الشرعية.

---

[١] أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (٣٨٠) .

[٢] «الداء والدواء» (ص ٤٤٤) .

لكن في اللغة - كما ذكرنا - يطلق العرب على الذل عبادة، وعلى الحب عبادة.

***

وَكُلُّ مَا أُحِبَّ لِغَيْرِ اللهِ فَمَحَبَّتُهُ فَاسِدَةٌ، وَمَا عُظِّمَ بِغَيْرِ أَمْرِ اللهِ كَانَ تَعْظِيمُهُ بَاطِلًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[التوبة: ٢٤].

هذه الأمور الثمانية التي ذُكرت في الآية الكريمة: الآباء والأبناء والإخوان... إذا صارت أحب إلى الإنسان من الله ورسوله فقد توعَّد اللهُ من كان كذلك.

وهنا تأتي مسألة المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يُلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد...، فتلك لا تذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله، وشغلت عن محبته، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٣٧] [١].

وكذلك إذا جئنا لمسألة الكره الجبلي، فقد يقع من المؤمن كراهية جبلية للمشقة الناشئة عن بعض التكاليف الشرعية، كما قال ﷺ عن المؤمنين من أهل بدر: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۝٥﴾[الأنفال]، فهنا الكراهة جبلية، فالإنسان بطبعه يكره أن يتعرض للقتل أو الجراح أو الأسر أو الإخراج من البلد أو المعاناة.

---

[١] «الداء والدواء» (ص ١٩٠).

وكذلك كره النساء الجبلي للتعدد، كما ورد عن السيدة عائشة قَالَتْ: «**كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَقُولُ أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١] **قُلْتُ: مَا أُرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ**»[١].

والكراهة الجبلية تقصيرٌ؛ لكنها إن وقعت مع امتثاله لأمر الله ومحبته لشرع الله ﷻ فإنها لا تُخرج العبد من الإيمان.

أما الكراهة التي تُخرج عن الإيمان: فهي التي وردت في قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد].

فالمنافق لا يكره الكراهة الجبلية، وإنما يكره ما شرعه الله لأن الله شرعه، فمِن كُرْهِهِ للدين وللإسلام؛ ربما وجد شيئًا تشتهيه نفسُه لكن يكرهه لأن الله شرعه والمؤمنين يفعلونه!! وربما وجد شيئا من المحرمات في الإسلام لا تشتهيه نفسُه ولا يميل له طبعه، فيحبه - رغم كرهه الجبلي - محبة شركية من أجل أن الله كرهه وحذر منه ونهى عنه، وهذا حال المنافق.

لكن المؤمن بخلاف ذلك، فالمؤمن قد ينفر طبعه من شيء لكن يحبه المحبة الشرعية؛ لأن الله أمر به، وإن وُجدت أحيانًا كراهية في النية، لكن هناك محبة شرعية، ومجاهدة لنفسه، وامتثال لأمر الله تعالى.

***

فَجِنْسُ الْمَحَبَّةِ تَكُونُ للهِ وَرَسُولِهِ، كَالطَّاعَةِ؛ فَإِنَّ الطَّاعَةَ للهِ وَرَسُولِهِ، وَالْإِرْضَاءَ

---

[١] أخرجه البخاري (٤٧٨٨).

لِلهِ وَرَسُولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[التوبة: ٦٢]، **وَالْإِيتَاءَ لِلهِ وَرَسُولِهِ:** ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[التوبة: ٥٩].

وَأَمَّا الْعِبَادَةُ وَمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ التَّوَكُّلِ، وَالْخَوْفِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ إِلَّا لِلهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[آل عمران]، **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾

[التوبة: ٥٩].

فَالْإِيتَاءُ لِلهِ وَالرَّسُولِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾

[الحشر: ٧].

يبين المؤلف رحمه الله أن هناك حقًّا لله تعالى لا يشاركه فيه غيره، وهناك حق مشترك لله تعالى وللرسول ﷺ، وثبوته للرسول ﷺ من حيث أن الله تعالى أمرنا بإثبات هذا الحق للنبي ﷺ.

فمن الحقوق المشتركة بين الله ورسوله ﷺ: «المحبة والطاعة، والإرضاء، والإيتاء».

فالمحبة؛ تكون لله تعالى وللرسول ﷺ، قال ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا...**»[1].

وكذلك **الطاعة؛** من الحقوق المشتركة لله وللرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[الأنفال: ٢٠].

---

[١] أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) عن أنس رضي الله عنه.

والإرضاء لله ورسوله؛ أيضًا من الحقوق المشتركة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ٦٢].

وكذلك الإيتاء لله ولرسوله؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩]، والإيتاء من معانيه «الإعطاءُ»، ويشمل أيضًا: «ما أباح لكم وأحل لكم»، لذلك قال شيخ الإسلام: «**فَالْإِيتَاءُ للهِ وَالرَّسُولِ كَقَوْلِهِ:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]» .

فقرن اللهُ تعالى رسولَه ﷺ باسمه ﷻ الكريم؛ لبيان أن الرسول ﷺ له هذه الحقوق على المؤمنين، وهذه الحقوق إنما ثبتت لرسول الله ﷺ تابعة لأمر الله تعالى بذلك؛ لأن الله تعالى هو الذي أثبتها له، وليست حقوقًا شركيةً مع الله فنجعله لله ندًّا .

فحقوقه ﷺ المشتركة هي من جهة أنها محبة ما يحبه الله، ولله، وفي الله، ليست محبة أو طاعة شركية مع الله فنجعله لله ندًّا، ولكن هي تابعة لمحبة الله ﷻ؛ لأن الله يحبه، ولأن الله أمرنا بحبه وطاعته؛ وطاعة الرسول وإرضاءه هي طاعة لله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قوله رحمه الله: «**وَأَمَّا الْعِبَادَةُ وَمَا يُنَاسِبُهَا مِنْ التَّوَكُّلِ، وَالْخَوْفِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ..**» ..

يُبين رحمه الله حقوقَ اللهِ التي لا يشاركه فيها غيره، كالتوكل والخوف، ويقصد بالخوف خوف العبادة؛ إذ الخوف نوعان: «خوف جبلي، وخوف عبادة» .

فالجبلي، كالخوف من لصٍّ أو سبُعٍ أو حريقٍ أو سلطانٍ جائرٍ أو حيةٍ ...، كما ورد في قصة موسى عليه السلام حين رأى العصا انقلبت حيةً عظيمةً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾[النمل]، وكذلك لما

قتل نفسًا بدون قصد، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[القصص: ١٨]، ولما كلمه ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[القصص: ٣٣].

والصحابة ﭫ في غزوة الأحزاب قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[الأحزاب: ١٠]، والخوف الجبلي بلاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة] . فمثل هذا الخوف لا شيئ فيه .

وأما خوف العبادة، فيقال له: «خوف السر»، كمن يخاف من مخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، وكمن يخاف من ميتٍ في قبره، أو من وليٍّ، أو من غائبٍ، أن يمرضه أو يفقره أو يميته ...إلخ، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ.

وقوله ﷺ: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾.

الإيتاء من الحقوق المشتركة – كما مرّ – فقال تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾.

وأما الرغب فحق لله وحده، لذلك قال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ ولم يقل: إنا إلى الله ورسوله راغبون .

***

وَأَمَّا الْحَسْبُ وَهُوَ الْكَافِي فَهُوَ اللهُ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٤]، **أَيْ: حَسْبُك وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَك اللهُ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَعْنَى حَسْبُك اللهُ**

وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، فَقَدْ غَلِطَ غَلَطًا فَاحِشًا، كَمَا قَدْ بَسَطْنَاه فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ[١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر: ٣٦] .

أيضًا الحسب من حق الله وحده، والحسب من معاني التوكل؛ فالحسب هو الكافي، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾أي: يكفينا الله، فالكافي هو الله تعالى وحده، فتفويض الأمر إلى الله، والثقة في كفايته، والاعتماد عليه، من معاني التوكل[٢] .

فقوله تعالى: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾أي: يكفيك الله .

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾أي: ويكفي اللهُ من اتبعك من المؤمنين .

وليس المعنى حسبك الله والمؤمنون، فالاسم الموصول ﴿وَمَنِ﴾معطوف على الضمير المتصل «الكاف» الذي يعود على النبي ﷺ في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾، فالمعنى: الله حسبك، وحسب من اتبعك من المؤمنين .

❊❊❊

وَتَحْرِيرُ ذَلِكَ، أَنَّ الْعَبْدَ يُرَادُ بِهِ: «الْمُعَبَّدُ الَّذِي عَبَّدَهُ اللهُ فَذَلَّلَهُ وَدَبَّرَهُ وَصَرَّفَهُ».

وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ الْمَخْلُوقُونَ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللهِ مِنْ الْأَبْرَارِ، وَالْفُجَّارِ، وَالْمُؤْمِنِينَ، وَالْكُفَّارِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلِ النَّارِ، إِذْ هُوَ رَبُّهُمْ كُلِّهِمْ وَمَلِيكُهُمْ، لَا يَخْرُجُونَ عَنْ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ .

يتكلم هنا عن العبد بمعنى المعبَّد، وهذه عبودية الكَره، ويقال لها أيضًا: «العبودية العامة» .

---

[١] انظره في «منهاج السنة» (٧/ ٢٠١) ط/ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٦ هـ .

[٢] انظر: «منزلة التوكل ومعناه» في كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم.

والعبودية العامة تشمل الجميع، المؤمن والكافر، والصالح والفاجر، كلهم معبَّدون لله خاضعون له ﷻ بأوامره الكونية، فهذه مشيئة الله التي تتعلق بالأمر الكوني وكلماته التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر.

فقوله: «**وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ**» يقصد بها الكلمات الكونية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾[يس]، فإذا أراد الله تعالى أن يُحْيِ عبدًا أو يميته أو يهديه أو يضله أو يصحه أو يمرضه أو يغنيه أو يفقره ... إلخ؛ كل هذا يكون بـ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فهذه الأوامر الكونية هي كلمات الله التامات التي لا يجاوزها برٌّ ولا فاجرٌ.

❧❧❧

فَمَا شَاءَ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَاءُوا، وَمَا شَاءُوا إِنْ لَمْ يَشَأْهُ لَمْ يَكُنْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾[آل عمران].

فَهُوَ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُهُمْ، وَرَازِقُهُمْ، وَمُحْيِيهِمْ، وَمُمِيتُهُمْ، وَمُقَلِّبُ قُلُوبِهِمْ، وَمُصَرِّفُ أُمُورِهِمْ، لَا رَبَّ لَهُمْ غَيْرُهُ، وَلَا مَالِكَ لَهُمْ سِوَاهُ، وَلَا خَالِقَ إِلَّا هُوَ، سَوَاءٌ اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرُوهُ، وَسَوَاءٌ عَلِمُوا ذَلِكَ أَوْ جَهِلُوهُ؛ وَلَكِنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ عَرَفُوا ذَلِكَ وَاعْتَرَفُوا بِهِ، بِخِلَافِ مَنْ كَانَ جَاهِلًا بِذَلِكَ؛ أَوْ جَاحِدًا لَهُ مُسْتَكْبِرًا عَلَى رَبِّهِ، لَا يُقِرُّ وَلَا يَخْضَعُ لَهُ، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ.

كل من في السموات والأرض أسلم لله طوعًا وكَرهًا، ومن لم يسلم لله طوعًا أسلم له كَرهًا؛ بمعنى خضع وانقاد لأوامر الله الكونية. فالعبادة العامة: الكره، ويدخل فيها

الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر، والعبادة الخاصة: الطوع .

ثم أشار إلى ربوبية الله ﷻ وأنه ﷻ هو الرب وهو الخالق والرازق والمحيِ والمميت، فكل العباد - المؤمن والكافر - سواء شاء العباد أم أبَوا؛ لا رب لهم سوى الله ﷻ، ولا خالق لهم سواه .

لكن أهل الإيمان علموا ذلك وأقروا به واعترفوا به، وأما غير أهل الإيمان فمنهم من جهل ربَّه ﷻ، ومنهم من جحد واستكبر، فالذي جهل هؤلاء هم الضالون، والذي علم وجحد واستكبر عن علمه فهؤلاء هم المغضوب عليهم.

* * *

فَالْمَعْرِفَةُ بِالْحَقِّ إِذَا كَانَتْ مَعَ الِاسْتِكْبَارِ عَنْ قَبُولِهِ وَالْجَحْدِ لَهُ، كَانَ عَذَابًا عَلَى صَاحِبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[النمل: ١٤] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٤٦] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾هذه الآية في فرعون وأهل فرعون لمَّا جحدوا بالآيات - المعجزات- التي جاء بها موسى عليه السلام، وهي دليل على نبوته وصدق رسالته، وهم في أنفسهم كانوا موقنين أن موسى عليه السلام على حَقٍّ وأنه مرسل من عند الله، ومع ذلك جحدوا هذه الآيات، وأنكروها .

وكذلك أيضًا في قول موسى عليه السلام لفرعون عن التوراة أو الآيات التي جاء بها: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ففرعون كان يعلم في قرارة نفسه أن الله رب السماوات والأرض، وأنه هو الذي أنزل التوراة على موسى، وهو الذي أرسله وأعطاه هذه المعجزات، ومع ذلك جحد بها وأنكرها .

وهذا يفيد أن المعرفة وحدها لا تكفي، وحتى اليقين والتصديق وحده لا يكفي للنجاة؛ إذ الإيمان قول وعمل، فلا يكفي التصديق القلبي ليكون الإنسان مؤمنًا، فهذا فرعون كان يعلم أن الله رب السماوات والأرض وأنه أنزل الآيات، فلم يكفِ لنجاته لأنه جحد واستكبر وأعرض .

وكذلك إبليس كان يُقرُّ بربوبية الله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾[الحجر: ٣٩]، ويُقر بعزة الله ويحلف بها: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص: ٨٢]، ويُقر باليوم الآخر ويؤمن به ﴿فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الحجر: ٣٦]، ومع ذلك لم يكفه هذا للنجاة؛ لأنه أبى واستكبر.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة] .

﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي: يعرفون النبي ﷺ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ .

فالله ﷻ وصف لهم النبي ﷺ وصفًا؛ حيث إذا رأوا النبي ﷺ أيقنوا أنه الرسول ﷺ الذي أُخْبِروا به، كما يُوقن أحدُهم ابنَه ويعرفه ويميزه بين أبناء الناس، كذلك يعرِف رسولَ الله ﷺ ويميزه ويعرِف أنه النبي الخاتم، ومع ذلك لم يكفهم هذا للنجاة .

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣] .

كان المشركون في قرارة أنفسهم لا يكذبون النبي ﷺ، ويعلمون أنه صادق فيما جاء به، ولكنهم يجحدون ويتكبرون عن اتباع الحق وينكرون آيات الله .

***

فَإِنْ عَرَفَ الْعَبْدُ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، عَرَفَ عُبُودِيَّتَهُ الْمُتَعَلِّقَةَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ.

وَهَذَا الْعَبْدُ يَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، لَكِنْ قَدْ يُطِيعُ أَمْرَهُ، وَقَدْ يَعْصِيهِ، وَقَدْ يَعْبُدُهُ مَعَ ذَلِكَ، وَقَدْ يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ وَالْأَصْنَامَ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَ أَهْلِ النَّارِ، وَلَا يَصِيرُ بِهَا الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] .

فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[لقمان: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[المؤمنون].

يشير رحمه الله إلى: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية .

توحيد الربوبية هو: إفراد الله تعالى بأفعاله، أي: الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق والرازق والمدبر والمحي والمميت والمتصرف في الكون .

وتوحيد الألوهية هو: إفراد الله تعالى بالعبادة، ويقال له أيضًا: «**توحيد العبادة**» .

فمن ناحية عبادة العبد لربه واتخاذه إلهًا سُمي: توحيد الألوهية .

ومن جهة فعل العبد الذي هو العبادة سُمى: توحيد العبودية .

والصلة بين توحيد الربوبية والألوهية: أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فمن أقر أن الله تعالى هو ربه الذي خلقه ورزقه وأحياه ويميته؛ فليلزمه أن يفرد الله تعالى بالعبادة وألا يعبد غيره .

وبعض الناس يقر بتوحيد الربوبية ولا يلتزم بلازمه الذي هو إفراد الله بالعبادة!!

مثل ما رواه عمران بن حصين ﵄ عن أبيه قبل إسلامه، قال: قال النبيُّ ﷺ لِأَبِي: «**يَا حُصَيْنُ، كَمْ إِلَهًا تَعْبُدُ الْيَوْمَ؟**» قَالَ أَبِي: «**سَبْعَةً: سِتَّةٌ فِي الْأَرْضِ، وَوَاحِدٌ فِي السَّمَاءِ**»، قَالَ: «**فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟**» قَالَ: «**الَّذِي فِي السَّمَاءِ**»[١] .

فيشير ﵀ إلى أن مَن وحّدَ الله أو أقر لله بالربوبية، لا يكفيه للنجاة حتى يُفرِد اللهَ بالعبادة، وأن توحيد الربوبية وحده لا يفرّق بين أهل الجنة وأهل النار، ولا يصير به المرءُ مؤمنًا كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[يوسف:] .

واستشهد ﵀ بآيات تفيد إيمان المشركين بربوبية الله وإقرارِهم لها، فكانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فمشركو قريش ما كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام - الحجر والخشب - التي صنعوها بأيديهم هي التي خلقت السماوات والأرض وما بينهما، ولا تحيهم وتميتهم، إنما أقروا بالربوبية لله، وأشركوا مع الله آلهة أخرى، وزعموا أن هذه الأصنام شفعاء لهم عند الله،فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[الزمر: ٣] .

إذًا، فالمشركون أقروا لله تعالى بالربوبية، وأن الله تعالى هو رب السماوات السبع

[١] أخرجه الترمذي (٣٤٨٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» .

ورب العرش العظيم، وأنه بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، فأقروا بهذه الأمور كلها وهذا نوع من العبودية، ومع ذلك وصفهم الله بالشرك وحكم عليهم بالهلاك؛ لأنهم استكبروا عن لا اله إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات].

فاستكبروا عن إفراد الله بالعبادة، فكانوا يعبدون الله ويعبدون معه آله أخرى، فيذبحون لها وينذرون لها ويستغيثون بها ويطوفون حولها ويدعونها من دون الله ويخافونها خوف السر ويحبونها كحب الله، فصرفوا هذه العبادات لتلك الأوثان فلم يكفهم إقرارهم بربوبية الله تعالى .

***

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي الْحَقِيقَةِ وَيَشْهَدُهَا، يَشْهَدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ وَهِيَ «الْحَقِيقَةُ الْكَوْنِيَّةُ»، الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا وَفِي شُهُودِهَا وَمَعْرِفَتِهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَإِبْلِيسُ مُعْتَرِفٌ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَأَهْلُ النَّارِ.

قَالَ إِبْلِيسُ: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩]، **وَقَالَ:** ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، **وَقَالَ:** ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، **وَقَالَ:** ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]

وَأَمْثَالُ هَذَا مِنَ الْخِطَابِ الَّذِي يُقِرُّ فِيهِ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَخَالِقُ غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠] .

فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَعِنْدَ شُهُودِهَا، وَلَمْ يَقُمْ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ

الدِّينِيَّةِ الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِإِلَهِيَّتِهِ وَطَاعَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ كَانَ مِنْ جِنْسِ إِبْلِيسَ وَأَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ ظَنَّ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ خَوَاصِّ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ الَّذِينَ يَسْقُطُ عَنْهُمْ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الشَّرْعِيَّانِ، كَانَ مِنْ شَرِّ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ.

قوله: «**الْحَقِيقَة**» مصطلح يستعمله بعض المتصوفة، فيقسمون الدين إلى «حقيقة وشريعة»، فيزعمون أن «الشريعة» للمبتدئين والعوام، ثم يترقى الإنسان فيصبح من أهل «الحقيقة» -من الخواص- فيترك الشرائع ولا يصبح مكلَّفًا بها !!

فزعم هؤلاء الخواص الذين أدركوا الحقيقة!! أن الجميع مطيع لله وعابد له، وأن الحقيقة الكونية هي «الإقرار بكلمات الله الكونية»، فيقولون: «الذي يعبد الله، أو الصنم، أو المسيح، كلهم مطيعون لله!! لأن هذا أمْرُ الله وإرادته ومشيته، فالذي عبد الصنم ما كان ليعبده إلا لأن الله شاء أن يعبده، فالجميع ممتثل لأمر الله الكوني، والجميع مطيع لله، والذي يصلي ويصوم ويتصدق وفي المقابل الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق، كله مطيع لله؛ لأن الله شاء أن يكون هذا مصليًا في المسجد، وشاء لهذا أن يكون في الخمارات» !!

ولهذا يقع في كلام بعض المتصوفة كالشعراني[١] في «طبقات الأولياء» وغيره من

---

[١] أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري المشهور بالشعراني، ت (٩٧٣ هـ)، له مؤلفات، أشهرها «الطبقات» قد حوى من العجائب ما الله به عليم، وهو رجل ضال مضل، وكتابه الطبقات أعظم شاهد على زيغه وضلاله، لما فيه من الدعوة إلى الشرك بالله تعالى والتعلق بالمقبورين والاستغاثة بهم ودعائهم وعبادتهم من دون الله واعتقاد أنهم يعلمون الغيب ويدبرون أمور الكون، فضلًا عما فيه من الخزعبلات والفسق والفجور، فتجده يذكر في كتابه كرامات الشيخ إبراهيم العريان ﷺ !! فيقول في الطبقات (٢/ ١٤٢): « وكان يخرج الريح بحضرة الأكابر ثم يقول: هذه ضرطة فلان ويحلف على ذلك، فيخجل ذلك الكبير منه، مات ﷺ سنة نيف وثلاثين وتسعمائة، وكان ﷺ يطلع المنبر ويخطب =

العجائب، فيذكرون بعض الناس ويصفونهم بالوَلاية، ويذكر أنه كان يشرب الخمر، أو لا يصلي، أو يعمل عمل قوم لوط ... ولا يرون أن هذا قادحًا في وَلايته بحجة أنه من أهل الحقيقة[١]، والشريعة للمبتدئين، وأن هذه إرداة الله ومشيئته بالولي، والولي ممتثل لإرادة الله .

والمشركون كذلك كانوا يحتجون بمشيئة الله على شركهم قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٤٨] .

والرد على احتجاج بعض المتصوفة والمشركين بما يلي:

إن الله له إرادة كونية، وله إرادة شرعية .

فالإرادة الكونية بمعنى المشيئة، وهي شاملة لكل ما يحب وما لا يحب، فكل ما يقع في الكون لا يخرج عن مشيئته أبدًا .

= عريانًا فيقول: (السلطان ودمياط باب اللوق وجامع طولون الحمد لله رب العالمين) فيحصل للناس بسط عظيم .اهـ

ويذكر في الطبقات ٢ / ١٨٥ ترجمة سيده شعبان المجذوب ﷺ !! فيقول: « كان من أهل التصريف بمصر المحروسة، وكان يخبر بوقائع الزمان المستقبل وأخبرني سيدي علي الخواص ﷺ: إن الله تعالى يطلع الشيخ شعبان على ما يقع في كل سنة من رؤية هلالها، فكان إذا رأى الهلال عرف جميع ما فيه مكتوبا على العباد وكان يقرأ سورًا غير السور التي في القرآن على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها فلا ينكر عليه أحد، وكان العامي يظن أنها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل» اهـ

ويذكر في كتابه أن من كرامات سيده فلان (ﷺ ! بزعمه) أنه كان ينكح الحمير في الطرقات ! نعوذ بالله من الخذلان .

وأمثال ذلك مما لو قرأته لشاب شعر رأسك، وحمدت الله ليل نهار على أن منّ عليك باتباع السنة، وَلَدَعَوْتَ لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - عليه سحائب الرحمات - فقد جعله الله تعالى وأولاده وتلاميذه سببًا في تخليص الأمة الإسلامية من هذا الخزي الذي كانت ترتع فيه إلا من رحم الله، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

[١] انظر كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية .

والإرادة الشرعية بمعنى المحبة، فكل ما يحبه الله تعالى وأمر به وكلف العباد به إرادة شرعية .

فالشرك والذنوب والمعاصي بإرادة الله الكونية؛ لأنه لا يقع في الوجود شيء إلا بإرادته ومشيئته .

والتوحيد والطاعة بإرادة الله الكونية والشرعية، فلا بد للعبد أن تجتمع فيه الإرادتان الكونية والشرعية؛ ولذلك ذم الله المشركين لما احتجوا بالإرادة الكونية فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾[الأنعام] .

قوله: «**وَإِبْلِيسُ مُعْتَرِفٌ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَأَهْلُ النَّارِ**» .

أي: إبليس وأهل النار معترفون مقرون بالربوبية لله تعالى، فإبليس كما في الآيات أقر لله بالربوبية، وأنه خالقه وخالق غيره، والبعث، وباليوم الآخر، وأقر بأن الله تعالى يغوي من يشاء، ويهدى من يشاء، ومع هذه الإقرارات لم يكن إيمانه نافعًا، ولم يكفهِ للنجاة .

وكذلك أهل النار أقروا لله بالربوبية، ولكن لم ينفعهم ولم ينجِهم .

ولذلك قال رحمه الله: «**فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَعِنْدَ شُهُودِهَا، وَلَمْ يَقُمْ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِإِلَهِيَّتِهِ وَطَاعَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ كَانَ مِنْ جِنْسِ إِبْلِيسَ وَأَهْلِ النَّارِ**» .

وَإِنْ ظَنَّ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ خَوَاصِّ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ الَّذِينَ يَسْقُطُ عَنْهُمْ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الشَّرْعِيَّانِ، كَانَ مِنْ شَرِّ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْخِضِرَ وَغَيْرَهُ سَقَطَ عَنْهُمْ الْأَمْرُ لِمُشَاهَدَةِ الْإِرَادَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ هَذَا مِنْ شَرِّ أَقْوَالِ الْكَافِرِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، حَتَّى يَدْخُلَ فِي النَّوْعِ الثَّانِي مِنْ مَعْنَى الْعَبْدِ، وَهُوَ الْعَبْدُ بِمَعْنَى الْعَابِدِ، فَيَكُونُ عَابِدًا للهِ لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ؛ فَيُطِيعُ أَمْرَهُ وَأَمْرَ رُسُلِهِ، وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ؛ وَيُعَادِي أَعْدَاءَهُ، وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِإِلَهِيَّتِهِ، وَلِهَذَا كَانَ عُنْوَانُ التَّوْحِيدِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» بِخِلَافِ مَنْ يُقِرُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَلَا يَعْبُدُهُ، أَوْ يَعْبُدُ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ.

وَأَمَّا الْعَبْدُ بِمَعْنَى الْعَبْدِ سَوَاءٌ أَقَرَّ بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ؛ فَتِلْكَ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ.

يبين رَحِمَهُ اللهُ أنه إذا أقر عبد بالربوبية لله وأعرض عن عبادة الله تعالى، وظن أنه من خواص أولياء الله ومن أهل المعرفة والتحقيق، فهذا قد زاد ضلالًا على ضلاله وصار من شر أهل الكفر.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْخِضِرَ وَغَيْرَهُ سَقَطَ عَنْهُمْ الْأَمْرُ لِمُشَاهَدَةِ الْإِرَادَةِ**».

يشير إلى ما يزعمه بعض المتصوفة أن الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ انكشفت له الحقائق واطلع على إرادة الله، وَوَسِعَه أن يخرج عن شريعة موسى!! فكانت في شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تحريم قتل الغلام وتحريم خرق سفينة المساكين وقتل الغلام، والخضر كان عبدًا صالحًا وخرج عن شريعة النبي لأنه أتته إلهامات!! فيزعمون أن الإنسان يمكن أن يصل إلى درجةٍ أو مقامٍ لا يحتاج فيه للعمل بالشريعة الواردة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ويقولون: «أنتم تأخذون دينكم عن الأموات، ونحن نأخذ عن الحي الذي لا يموت»!!.

فيزعمون أن كل واحد منهم يأتيه كشف أو إلهام من الله تعالى مباشرة، وقد يكون هذا الإلهام مخالفًا للشريعة، فيأتيه إلهام - مثلًا- بإباحة الخمر، وترك الصلوات ... إلخ .

وإن كان صادقًا يأتيه إلهام ووحي فعلًا؛ فهو من الشيطان، إذ الوحي وحْيَان، وحيٌ من الله، ووحيٌ من الشيطان، فقد قِيلَ لابنِ عمر وابنِ الزبير ﷺ: «إِنَّ الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ[١] يَزْعُمُ أَنَّهُ يُنَزَّلُ إِلَيْهِ»، فَقَالا: «صَدَقَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء٢٢١-٢٢٢]» [٢].

وقيل لابن عباس ﷺ: «زَعَمَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّيْلَةَ»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «صَدَقَ، هُمَا وَحْيَانِ: وَحْيُ اللهِ، وَوَحْيُ الشَّيْطَانِ، فَوَحْيُ اللهِ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَوَحْيُ الشَّيَاطِينِ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، ثُمَّ قَرأَ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]» [٣].

فالوحي الذي يسمونه إلهامًا أو كشفًا بترك العبادة وفعل الحرام، هذا وحي من الشيطان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ

---

[١] المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، أبو إسحاق، أسلم أبوه في حياة النبي ﷺ، ولم تعلم له صحبة. ولد المختار عام الهجرة، وقد سار من الطائف بعد مصرع الحسين إلى مكة فأتى ابن الزبير، وكان قد طرد لشره إلى الطائف، فأظهر المناصحة. فلما مات يزيد استأذن ابنَ الزبير في الرواح إلى العراق، فأذن له، وصار إلى العراق، ودعا فيها إلى إمامة محمد بن الحنفية، حتى علا قدره، ثم طالب بدم الحسين وتتبع قتلته، وقتل ابنَ زياد، وشاع في الناس أخبار عنه بأنه ادعى النبوة، ونزول الوحي عليه، ومكث كذلك ستة عشر شهرًا، ثم قاتله مصعب بن الزبير أمير البصرة من قبل أخيه عبد الله، فقتله في الكوفة سنة ٦٧ هـ .انظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٥٨٣)، و «البداية والنهاية» (٥/ ١٢).

[٢] أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٩ / ١١٤)، عن ابن الزبير، ورواه عن ابن عمر الطبرانيُّ في «الأوسط» (٩٢٤) .

[٣] أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٨٦) .

يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾[البقرة: ٢٦٨].

وبالنسبة للخضر ﷺ، القول الصواب الذي عليه المحققون من أهل العلم أنه كان نبيًّا يُوحى إليه، وقصته تشير لذلك؛ لأنه قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾[الكهف: ٨٢] وقال قبلها: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾[الكهف: ٨٢].

فالصواب أنه كان نبيًّا يُوحى إليه، أوحى الله إليه بهذه الأمور التي تخالف شريعة موسى لكنها توافق شريعته، وهو لم يكن مكلفًا بشريعة موسى ﷺ، بل كان له تشريعه الخاص الذي كلفه الله به.

وبعض العلماء يقولون: «أنه ربما كان عبدًا صالحًا، وكان تابعًا لنبي آخر في هذا الزمن - إذ كان يُرسل أكثر من نبي في الوقت الواحد- لم يقص الله علينا الله خبره، وأمره ذلك النبي بالأوامر فهو يمتثل لها»[١].

والصواب: أنه كان نبيًّا وكُلّف بذلك.

وشيخ الإسلام يشير هنا إلى بطلان قول من ظن أن الخضر أو غيره من الناس يمكن أن يكون عبدًا صالحًا فتسقط عنه التكاليف الشرعية؛ لأن أعبد الناس وأعلاهم شأنا ومنزلة رسول الله ﷺ وصحابته الكرام لم يستحلوا الحرام ولا تركوا الواجبات ولا تركوا عبادة الله إلى آخر لحظة من لحظات حياتهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩].

قوله رحمه الله: **«حَتَّى يَدْخُلَ فِي النَّوْعِ الثَّانِي مِنْ مَعْنَى الْعَبْدِ، وَهُوَ الْعَبْدُ بِمَعْنَى الْعَابِدِ، فَيَكُونُ عَابِدًا للهِ...»**.

---

[١] انظر: «الزهر النضر في أخبار الخضر» لابن حجر، تحقيق / صلاح الدين مقبول أحمد.

العبد له معنيان: «العبد بمعنى المعبَّد، والعبد بمعنى العابد» .

العبد بمعنى المعبَّد: هذه العبودية العامة أو عبودية الكَره التي تنطبق على المؤمن والكافر والطائع والعاصي، وهي طاعة أوامر الله الكونية التي لا اختيار للعبد في امتثالها أو تركها أو طاعتها أو عصيانها، فإذا قال سبحانه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، فطاعة أوامر الله الكونية العامة لا تكفي للنجاة .

النوع الثاني: **العبد بمعنى العابد،** هو عبودية الاختيار، فيطيع أوامر الله تعالى الشرعية، كأمره بالصلاة، والزكاة، وطاعة الرسول ﷺ بالعمل بالقران والسنة... إلخ، وهذا هو توحيد الألوهية، وهو سبيل النجاة؛ ولهذا كان عنوان التوحيد وشعاره «لا إله إلا الله» أي: لا معبود بحقٍّ إلا الله، فليس شعار التوحيد «لا رب إلا الله».

والإله معناه: معبود، فالإله على وزن فِعَال، وفِعَال تأتي بمعنى مفعول؛ ككتاب بمعنى مكتوب، «أَلِهَ يَأْلَهُ» بمعنى: «عبد يعبد» .

فلا إله إلا الله، أي: «لا معبود بحق إلا الله»، ويقال: «بحق» لأن هناك معبودات باطلة .

قوله رحمه الله: « بِخِلَافِ مَنْ يُقِرُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَلَا يَعْبُدُهُ، أَوْ يَعْبُدُ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ» .

ذكر هنا قسمين من الذين أعرضوا عن توحيد الألوهية:

- إما أنه أعرض عن عبادة الله وعن عبادة غيره.
- أو أنه عبد الله وعبد غيره.

وكلاهما ضل وانحرف، فالمؤمن يعبد الله وحده ولا يعبد غيره، فإذا عبد اللهَ و عبد غيره؛ هلك، وإذا لم يعبد الله ولم يعبد غيره؛ هلك، فالنجاة في عبادة الله وحده وترك

عبادة ما سوى الله.

قوله ﵀: «وَأَمَّا الْعَبْدُ بِمَعْنَى الْعَبْدِ سَوَاءٌ أَقَرَّ بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ، فَتِلْكَ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ».

سواء أقر العبد بمعنى المُعبّد أنه تنفذ فيه أوامرُ الله ﷻ الكونية وتقديراته، وأن الله تعالى يقضي عليه بما يشاء، فسواء أقر بذلك أم أنكره فهذا النوع من العبودية يشترك فيها المؤمن والكافر والتي هي عبودية الكَره، فالكل -المؤمن والكافر- مندرج في هذه العبودية.

❊ ❊ ❊

وَبِالْفَرْقِ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ يُعْرَفُ الْفَرْقُ بَيْنَ «الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ» الدَّاخِلَةِ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَدِينِهِ وَأَمْرِهِ الشَّرْعِيِّ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، وَيُوَالِي أَهْلَهَا وَيُكْرِمُهُمْ بِجَنَّتِهِ، وَبَيْنَ «الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ» الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ الَّتِي مَنْ اكْتَفَى بِهَا، وَلَمْ يَتَّبِعْ الْحَقَائِقَ الدِّينِيَّةَ كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ، وَالْكَافِرِينَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَمَنْ اكْتَفَى بِهَا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ، أَوْ فِي مَقَامٍ، أَوْ حَالٍ، نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ وَوَلَايَتِهِ لِلهِ بِحَسَبِ مَا نَقَص مِنْ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ.

هنا يبين أن الحقيقة نوعان: «حقيقة كونية وحقيقة شرعية».

فالحقيقة الكونية أو القضاء الكوني: هي تقديرات الله ﷻ الكونية التي لا اختيار للعبد فيها أن يفعل أو لا يفعل، فالله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويحي ويميت، ويُصح ويُمرض.

والحقيقة الشرعية: هي أوامر الله ﷻ ونواهيه التي فيها اختيار للعبد أن يفعلها أو لا يفعلها، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾[التكوير]، مثل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال، وما نهى الله ﷻ عنه من الأقوال والأعمال.

فالتفريق بين هذين النوعين لابد منه، فمن اكتفى بمشاهدة الحقيقة الكونية واقتصر عليها، ثم لم يلتفت إلى الحقيقة الشرعية؛ فلم يبحث عما أمر الله تعالى به ليفعله وعما نهى الله عنه ليتركه ويجتنبه، كان من أتباع إبليس اللعين؛ لأن إبليس هو مقر بالحقيقة الكونية، مقر بأن الله ﷻ هو الذي خلقه، وأنه ما من شيء يحصل في هذا الكون إلا بمشيئة الله، وهذا لم ينفع إبليس ولم ينجه من عذاب الله ﷻ، ومرت بنا الآيات الكريمة التي يخاطب فيها إبليسُ ربَّ العالمين ﷻ فيقول: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص] فهو يعلم أن هناك عباد لله ﷻ لا طاقة له على إغوائهم، ويعلم أن الله تعالى موجود، وأن الله تعالى عزيز.

ويقول إبليس أيضًا وهو يخاطب رب العالمين ﷻ: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الأعراف:١٤]، فهو يعلم أن هناك يومًا آخر، وبعثًا بعد الموت، وحسابًا وجزاءً، وأن الله ﷻ يُنظِر من يشاء ويقضي بالموت على من يشاء، فطَلَب من الله تعالى أن يبقيه حيًّا .

إذًا إبليس مقرٌ بالحقيقة الكونية، أن كل شيء بمشيئة الله وبإرادة الله، لن يُضِلَّ إلا من شاء الله تعالى أن يضله، وأنه ليس له سلطان على من هداه الله ﷻ، هذا الأمر علمه إبليس ومع ذلك لم ينفعه، ولم يكن سببًا في نجاته.

والكفار أيضًا -كما مر بنا وكما سيأتي توضيحه- يقرون بأن كل شيء بمشيئة الله، وكانوا يحتجون على شركهم بأنها مشيئة الله ﷻ، فلما كان النبي ﷺ يدعو مشركي

قريش ومشركي العرب إلى الإسلام كانوا يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٤٨].

فهم شهدوا هذه الحقيقة الكونية واقتصروا عليها، ولم يستجيبوا للحقيقة الشرعية، فلم ينظروا ما الذي يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال حتى يسلكوه ويعملوا به، حتى اكتفوا بأن يحتجوا بالقدر وأن يبقوا على ما هم عليه من الشرك والضلال.

فمن اقتصر على هذا الأمر الذي هو الحقيقة الكونية؛ كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين.

قوله رحمه الله: «وَمَنْ اكْتَفَى بِهَا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ، أَوْ فِي مَقَامٍ، أَوْ حَالٍ، نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ وَوَلَايَتِهِ لِلَّهِ بِحَسَبِ مَا نَقَصَ مِنْ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ».

بعض المؤمنين لم يحتج بالحقيقة الكونية في ترك الإيمان أوالإشراك بالله تعالى مثلما فعل المشركون، وإنما من المؤمنين من عنده نقص في إيمانه فربما يحتج بالقدر على بعض المعاصي والذنوب التي يقع فيها، فهذا ينقص من إيمانه بقدر ذلك، فهو على أصل الإيمان والطاعة لله تبارك وتعالى، لكن يتهاون فيترك بعض الواجبات ويقع في بعض المحرمات، ثم يتعلل ويعتذر بأن ذلك هو قضاء الله وقدره!! فهذا ينقص من إيمانه بمقدار ما تركه من الواجبات أو ما وقع فيه من المحرمات.

مثلًا: الشخص الذي يشرب الخمر ويقول: «هو تقدير الله وهذا قضاء الله» وهو مستمر في هذه المعصية فهو هنا شهد الحقيقة الكونية.

فنقول له: «لماذا لا تترك شرب الخمر وتكون أيضًا قد سرى عليك قدر الله وتقدير الله»، لأن هذا الذي يشرب الخمر ويقول: «هذا قضاء الله، وكل شيء بقضاء الله تعالى»، إذا ترك شرب الخمر فهذا قضاء الله أيضًا؛ إذ الحقيقة الكونية تسري على

الطائع والعاصي، فلماذا تعصي وتقول: «هو قضاء الله»؟! فالله جعل لك اختيار وقدرة واستطاعة على ترك المعصية وفعل الطاعة .

فمن ترك واجبًا من الواجبات، وقال: «هذا قضاء الله وتقدير الله»، فنقول له: أنت الآن شهدت الحقيقة الكونية واعتذرت بها، لماذا لا تنظر إلى الحقيقة الشرعية أن الله تعالى أمرك بفعل هذا الواجب، فتتوب إلى الله فتفعل هذا الواجب ؟ وسيكون هذا بقضاء الله أيضًا، فالحقيقة الكونية تشمل الطائع والعاصي.

وقد يكون أيضًا الاعتذار بالقضاء والقدر في ترك شيئًا من المستحبات والسنن، فهناك درجات ممن يحتج بالقدر على الشرك والكفر ويستمر في شركه وكفره، وهناك من يحتج بالقدر على فعلٍ محرم أو ترك واجب، وهناك من يحتج بالقدر على تهاونه وتركه لفعل المستحبات أو وقوعه في المكروهات والشبهات...، لكن هناك أيضًا حقيقة شرعية، أن الله حثك على فِعل هذه الطاعة أو ترك هذا العمل المكروه .

ومن هذا الباب حديث علي رضي الله عنه: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ لَيْلَةً، فَقَالَ: «أَلاَ تُصَلِّيَانِ؟» فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ:** ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف: ٥٤]» [١].

من شُراح الحديث من قال: «إنَّ النبيَّ ﷺ كَره منه هذا الجواب»[٢].

---

[١] رواه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥) .

[٢] **قال ابن حجر في الفتح:** قوله: «**أنفسنا بيد الله**» اقتبس عليٌّ ذلك من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[**الزمر: ٤٢**] الآية، وفيه إثبات المشيئة لله، وأن العبد لا يفعل شيئًا إلا بإرادة الله.
قوله: «**ولم يَرجع**» أي لم يُجبني، وفيه أن السكوت يكون جوابًا والإعراض عن القول الذي لا يطابق المراد وإن كان حقًّا في نفسه.
وقال ابن التين: «كره احتجاجه بالآية المذكورة وأراد منه أن ينسب التقصير إلى نفسه» .

فعلي رضي الله عنه هنا شهد الحقيقة الكونية أنه لم يستيقظ للصلاة بالليل؛ لقضاء الله وقدره، لكن هناك حقيقة شرعية أن الله تعالى حثَّ على قيام الليل ورغّب فيه.

وقوله: «أَوْ فِي مَقَامٍ، أَوْ حَالٍ..».

المقامات والأحوال هي أعمال القلوب كالمحبة والخشية والإنابة ... إلخ .

فإذًا، هناك درجات قد يشهد الإنسان الحقيقة الكونية ويتكل عليها في ترك مستحب أو في ترك واجب، وقد يتمادى به إلى أن يقع في الشرك متحجًّا بأنه بقضاء الله وبمشيئة الله .

***

وَهَذَا مَقَامٌ عَظِيمٌ غَلِطَ فِيهِ الْغَالِطُونَ، وَكَثُرَ فِيهِ الِاشْتِبَاهُ عَلَى السَّالِكِينَ، حَتَّى زَلَقَ فِيهِ مِنْ أَكَابِرِ الشُّيُوخِ الْمُدَّعِينَ لِلتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْعِرْفَانِ مَا لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْإِعْلَانَ، وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ رحمه الله فِيمَا ذُكِرَ عَنْهُ، فَبَيَّنَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الرِّجَالِ إِذَا وَصَلُوا إِلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ أَمْسَكُوا، إِلَّا أَنَا فَإِنِّي انْفَتَحَتْ لِي فِيهِ رَوْزَنَةٌ فَنَازَعْت أَقْدَارَ الْحَقِّ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ، وَالرَّجُلُ مَنْ يَكُونُ مُنَازِعًا لِلْقَدَرِ لَا مَنْ يَكُونُ مُوَافِقًا لِلْقَدَرِ.

قوله رحمه الله: «الْمُدَّعِينَ لِلتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْعِرْفَانِ» .

للتحقيق: أنهم من أهل الحقائق.

والتوحيد: أنهم ممن يوحدوا الله سبحانه وتعالى .

والعرفان: وأنهم ممن عرف الله جل وعلا.

قوله: «وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ رحمه الله» .

هو الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله، وكان فقيهًا حنبليًّا، وكان تصوفه من التصوف المحمود الموافق للشريعة، ومن تلاميذه الإمامُ ابن قدامة، والحافظُ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي رحمه الله الذي رحل إليه من الشام وتفقه عليه ودرس عليه، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بينه وبين الشيخ عبد القادر في الرواية اثنان؛ لأن شيخ الإسلام يروي عن الشمس بن أبي عمر المقدسي، عن ابن قدامة، وابن قدامة تلميذ عبد القادر الجيلاني[١] رحمه الله.

قوله: «انْفَتَحَتْ لِي فِيهِ رَوْزَنَةٌ»

الروزنة: هي النافذة التي تكون في السقف، أوفي أعلى الجدار يدخل منها الضوء.

ويشير إلى أن الله فتح عليه وألهمه الهداية والتوفيق، فكأنه انفتحت له روزنة دخل منها نور الهداية والتوفيق من عند الله تبارك وتعالى .

قوله: «فَنَازَعْتُ أَقْدَارَ الْحَقِّ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ» .

أي: أن كثيرًا من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا.

فإن قيل: هل الإمساك في القضاء والقدر محمود أو مذموم؟

فالجواب: هو بحسب المقصود بهذا الإمساك، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَزَالُ مُتَقَارِبًا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي الْوِلْدَانِ وَالْقَدَرِ**»[٢]، أي: لا يزال أمر هذه الأمة بخير ما لم يتكلموا في مصير أولاد المشركين والقدر، فهنا حثٌّ على الإمساك في القدر، لكن هذا الإمساك الذي حث عليه النبي ﷺ هو الإمساك عن الكلام فيه بالرأي

---

[١] وتوفي رحمه الله سنة ٥٦١ هـ، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»(٢٠ / ٤٣٩) .

[٢] أخرجه ابن حبان (١٨٢٤) والحاكم (١ / ٣٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥١٥) .

والهوى وبمعارضة الشرع والاعتراض على حكمة الله ﷻ في تقديره.

والإمساك عن الولدان يعني الكلام فيهم بالهوى والرأي وبغير علم وبصيرة.

فالشيخ عبد القادر ﵀ ينكر على كثيرٍ من الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا الإمساك المذموم، فيستسلمون لما قُدِّر عليهم من المعاني، وهذا كما سيأتي من كلام شيخ الإسلام أن بعض الناس إذا كان بهم ذنبٌ من الذنوب أو المعاصي، أو تقاعسٌ عن واجب ... إلخ، فيقول: «هذا بقضاء الله وقدره» ويُمسك عن مجاهدة نفسه وعن السعي في تصحيح أمره، بل يقتصر على أنه طالما هذا شيء قضاه الله وقدره وهو بمشيئة الله فيتوقف عند هذا الحد ولا يسعى في تصحيح وضعه وتغيير أمره إلى الخير، سواء فيما يتعلق بنفسه أو فيما يتعلق بذنوب الآخرين، فهناك ذنبُ نفسك عليك أن تتوب إلى الله وتستغفره وتسعى في مجاهدة نفسك، وذنوب الآخرين أيضًا أنت مأمور بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ودعوتهم إلى الله .

فالشيخ عبد القادر ﵀ يبين أن بعض الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إما في ذنوب أنفسهم يمسكون عن تغييرها، أو في ذنوب الآخرين يمسكون عن إنكارها عليهم وأمرهم بالمعروف، فقد يكون هو مهتديًا في نفسه ويرى الناس من حوله هذا مشرك وهذا فاسق، فيمسك لمشاهدته الحقيقة الكونية، فيقول: «هذا ما أشرك إلا بمشيئة الله، وهذا الفاسق ما فسق إلا بمشيئة الله!!» فلا يسعى في تغييرهم وإصلاحهم محتجًّا بقدر الله.

فالشيخ عبد القادر ﵀ ينكر على مثل هؤلاء، ولا يرضى بحالهم ويقول: «**إلّا أنَا، فَإنِّي انْفَتَحَتْ لِي فِيهِ رَوْزَنَة**» فشبه الهداية التي شرح الله صدره بها وقذفها في قلبه بالنور.

فقال: «**فَنَازَعْت أَقْدَارَ الْحَقِّ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ**» أي: نازع أقدار الله تعالى المكروهة بالأقدار المحبوبة .

والأقدار المكروهة: هي ما قدره الله ﷻ من المعاصي والذنوب والمصائب الدنيوية، سواء ما قدره الله عليك أو على غيرك .

والمحبوبة: التي هي الطاعات والنعم .

فبالنسبة للذنوب؛ فالإنسان ينازعها -إذا كانت ذنوب نفسه- بالتوبة والاستغفار ومجاهدة النفس، وذنوب غيره ينازعها بأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر ودعوةٍ إلى الله .

وبالنسبة للمصائب، كفقر أو مرض ... إلخ، فمنازعتها بالأخذ بالأسباب الشرعية، فالفقر -مثلًا- يُسعى في إزالته بأسباب الكسب المشروع كبحثٍ عن عملٍ، والنبي ﷺ كان يتعوذ بالله من الفقر[١]، وإذا كان مريضًا يتداوى بأخذ أسباب الشفاء المشروعة، وهكذا في كل أمر.

فيقول: «**فَنَازَعْتُ أَقْدَارَ الْحَقِّ**» أي: نازعت أقدار الله تعالى المكروهة والتي هي الذنوب والمصائب، «**بِالْحَقِّ**» أي: بالاستعانة بالله ﷻ وبالتوكل عليه بالأخذ بالأسباب الشرعية التي شرعها الله، «**لِلْحَقِّ**» أي: مخلصًا لله تعالى في ذلك، أي: ما فعلتُ هذا إلا راغبًا في ثواب الله.

قوله: «وَالرَّجُلُ مَنْ يَكُونُ مُنَازِعًا لِلْقَدَرِ لَا مَنْ يَكُونُ مُوَافِقًا لِلْقَدَرِ» .

قوله: «**وَالرَّجُلُ**» جاءت في سياق المدح، مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[يس: ٢٠]، وقوله ﷻ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ ﴾[غافر: ٢٨]، وقوله ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾[الأحزاب: ٢٣]، فهنا الرجولة لها معنى محمود، وهو الشهامة والإقدام على فعل الخير

---

[١] كدعائه: «**اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ**» مسلم (٢٧١٣)، وكذلك دعاؤه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ، وَالْقِلَّةِ، وَالذِّلَّةِ**» الترمذي (١٥٤٤) بسند صحيح .

بشجاعة وجِدٍّ وقوة.

قوله: «**مُنَازِعًا لِلْقَدَرِ**» يعني الأقدار المكروهة مثل المصائب والذنوب التي في وسعه أن يأخذ في أسباب تسعى في إزالتها أو تخفيف آثارها، كما ذكرنا آنفًا .

وليس المقصود أن الإنسان يعترض على قضاء الله، فالرجل لا يكون موافقًا مستسلمًا لما قُدر عليه أو على غيره من ذنب أو معصية أومصيبة فلا يسعى في تغيير ذلك، فهذا من الجبن والخوف .

وما ذكره الشيخ عبد القادر ﷺ أخذه من قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لما خرج إلى الشام لقتال الروم، فلقيه أمراؤه يخبرونه بوقوع الطاعون بالشام، فاستشار عمر ﷺ المهاجرين والأنصار، أيرجع بالناس أم يمضي ؟ فاختلفوا، فاستشار مشيخة مهاجرة الفتح، فاجتمع رأيهم على أن يرجع بالناس... فركب عمر ﷺ ثم قال للناس: «**إِنِّي أَرْجِعُ**»، فقال له أبو عبيدة بن الجراح - وكان عمر يكره أن يخالفه -: «**أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ**»، فغضب عمر ﷺ وقال: «**لَوْ غَيْرُكَ قَالَ هَذَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ أَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا هَبَطَ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ[١] وَاحِدَةٌ جَدْبَةٌ وَالْأُخْرَى خَصْبَةٌ أَلَيْسَ إِنْ رَعَى الْجَدْبَةَ رَعَاهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَى الْخَصْبَةَ رَعَاهَا بِقَدَرِ اللهِ**».

فجاء عبد الرحمن بن عوف -وكان متغيبًا في بعض حاجته- والقوم مختلفون فقال: «**إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا**»، فقال عمر: «**فَمَا هُوَ؟**» قَالَ: **سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ**: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا يُخْرِجَنَّكُمُ الْفِرَارُ مِنْهُ**» فحمد اللهَ عمرُ، فرجع وأمر الناس أن يرجعوا [٢] .

---

[١] العُدْوَة، بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ: جانبُ الوادي. انظر: «لسان العرب» (١٥/ ٤١) .

[٢] أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، (٢٢١٩) عن عبد الله بن عباس ﷺ .

فقول عمر: «أَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ» يعني هو إذا دخلها وأصيب بالطاعون فبقدر الله، وإذا اجتنب البلد ولم يدخلها فهو أيضًا بقدر الله، وفي الحالين لن يخرج عن قدر الله، فهو عنده اختياران، وأيًّما فعل من الاختيارين فسيكون موافقًا لقدر الله، فلماذا يفعل الاختيار السيئ من أجل أن يكون موافقًا لقدر الله؟!! فهو إذا فعل الاختيار الحسن سيكون موافقًا لقدر الله أيضًا، وكان هذا وعمر لا يعلم الحديث الوارد في ذلك، فكان الذي ذهب إليه عمر ﷺ باجتهاده موافقًا لما أمر به النبي ﷺ .

فالفرار من قدر الله إلى قدر الله، بمعنى أن الإنسان يفر من المعصية إلى الطاعة، ومن المنكر إلى المعروف، ومن الشيء السيئ إلى الحسن، وكله بقدر الله، فهو يأخذ بالأسباب، وهو في الحالين يكون موافقًا لقدره.

***

وَالَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ ﷺ هُوَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ﷺ؛ لَكِنْ كَثِيرٌ مِنْ الرِّجَالِ غَلِطُوا، فَإِنَّهُمْ قَدْ يَشْهَدُونَ مَا يُقَدَّرُ عَلَى أَحَدِهِمْ مِنْ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ؛ أَوْ مَا يُقَدَّرُ عَلَى النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مِنْ الْكُفْرِ؛ وَيَشْهَدُونَ أَنَّ هَذَا جَارٍ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، دَاخِلٌ فِي حُكْمِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَمُقْتَضَى مَشِيئَتِهِ، فَيَظُنُّونَ الِاسْتِسْلَامَ لِذَلِكَ وَمُوَافَقَتَهُ وَالرِّضَا بِهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، دِينًا وَطَرِيقًا وَعِبَادَةً؛ فَيُضَاهُونَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] **وَقَالُوا:** ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧] **وَقَالُوا:** ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠] .

يبين شيخ الإسلام أن بعض الناس ينظر إلى الذنوب والمعاصي سواء التي هو نفسه واقع فيها أو الذنوب والمعاصي التي يقع فيها غيره، بل الكفر الذي وقع فيه غيره،

فينظر إلى هذا من جهة أنه شيء قد قضاه الله ﷻ وقدره وأنه داخل في حكم ربوبيته ﷻ ومشيئته، وأن الله تعالى يفعل ما يشاء وأن هذه الأمور ما حصلت إلا بمشيئة الله، ونتيجةً لذلك؛ يستسلم لهذا الأمر فلا يسعى في إصلاح نفسه ولا يسعى في إصلاح غيره، فيترك العبادات المأمور بها من التوبة والاستقامة على الدين، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويظن أن هذا من العبادة ومن الطريق ومن الدين، مع أنه غالطٌ في هذا الأمر، وهذا فيه مضاهاة للمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾، فإن المشركين حرَّموا على أنفسهم أنواعًا من بهيمة الأنعام، وأنواعًا من الإبل ومن الغنم،، وحرموا لبنها إلا للضيف، وأشياء حرموها على النساء وأباحوها للرجال إلى آخره من الشرائع الضالة المنحرفة، فعندما كان النبي ﷺ ينكر عليهم هذه الشرائع الباطلة ويبين لهم أن الله ما حرم عليهم هذه الأمور، فيحتجون بمشيئة الله .

وعندما كان الله يأمرهم ﷺ بالصدقة وإطعام الفقراء والمحتاجين يمتنعون عن إطعام الجائع والإحسان إلى الفقير ثم يحتجون بالقدر، فيقولون:﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[يس: ٤٧]، يعني هذا الجائع الذي أجاعه هو الله، وهذا الفقير ما افتقر إلا بقضاء الله، ولو شاء الله لأغناه أو أطعمه .

فيحتجون هنا بالقدر، وصحيح أنه بمشيئة الله؛ لكنهم شهدوا الحقيقة الكونية وتركوا الحقيقة الشرعية، فالله تعالى قدَّر عليه أن يكون جائعًا أو فقيرًا ليبتليه هو، ويبتليك أيها الغني القادر على إطعامه، بأن يكلفك بإطعامه والتصدق عليه والإحسان إليه، فالغني مكلف بهذا التشريع.

فالمؤمن ينظر إلى الحقيقة الشرعية أن الله تعالى أمره بالصدقة وإطعام الجائع، فيمتثل لأمر الله، لكن هؤلاء يحتجون بالقدر على ترك العمل الصالح، وعلى الشرك،

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]كانوا يحتجون بمشيئة الله تعالى على ما هم فيه من الشرك وعبادة الأوثان.

❊ ❊ ❊

وَلَوْ هُدُوا لَعَلِمُوا أَنَّ الْقَدَرَ أُمِرْنَا أَنْ نَرْضَى بِهِ وَنَصْبِرَ عَلَى مُوجَبِهِ فِي الْمَصَائِبِ الَّتِي تُصِيبُنَا، كَالْفَقْرِ، وَالْمَرَضِ، وَالْخَوْفِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن: ١١]، **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»** [١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[الحديد] .

لو أن المشركين كانوا من المهتدين؛ لعلموا أن القدر أُمِرنا أن نرضى به ونصبر على «**موجبه**» أي: ما أوجبه القدر من المصائب التي وجبت بتقدير الله، كالفقر والمرض والخوف، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه في تفسيرها: «**هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ**

[١] أخرجه البخاري معلقًا في كتاب التفسير، تفسير سورة التغابن، عن علقمة، عن ابن مسعود رضي الله عنه.
وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣ / ٤٢١) عن علقمة، ونسبه إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه التوحيد ص ٩٦، وهو علقمة بن قيس بن عبد الله أبو شبل النخعي، فقيه الكوفة، وعالمها، ومقرئها، الإمام، الحافظ، المجود، المجتهد الكبير، من كبار التابعين، لازم ابن مسعود حتى رأس في العلم والعمل، وتفقه به العلماء، وبعد صيته، حدث عن: عمر، وعثمان، وعلي، وسليمان، وأبي الدرداء، وخالد بن الوليد، وحذيفة، وخباب، وعائشة، وسعد، وعمار، وأبي مسعود البدري، وأبي موسى، ومعقل بن سنان، وسلمة بن يزيد الجعفي، وشريح بن أرطاة، وقيس بن مروان، وطائفة سواهم، وجود القرآن على ابن مسعود. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٣)

عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ» .

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ يعني من قبل أن نخلقها، والتفسيرات المأثورة عن السلف يقولون: إن الضمير يرجع إما إلى المصيبة، وإما إلى الأرض، وإما إلى الأنفس، ويمكن شموله بذلك كله.

فبعضهم قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ يعني من قبل أن نخلق المصيبة .

وبعضهم قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ يعني من قبل أن نخلق الأرض .

وبعضهم قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ يعني من قبل أن نخلق الأنفس .

فالمصيبة قد تكون في الأرض كزلزال أو خسف أو جدب وقحط ... إلخ، أو في الأنفس كمرض أو موت قريب ..إلخ، كل ذلك مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ .

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من أمر نعم الدنيا وحطامها، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ولا تفرحوا بما آتاكم من أمر الدنيا، والفرح هنا هو الأشر والغرور كقوله تعالى في شأن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] .

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ لكي لا تغتروا بنعمة أنعم الله بها عليكم من مال أو صحة أو جمال أو منصب، فتعلمون أن هذا الأمر بقضاء الله وقدره وأن الله تعالى هو الذي قضى لكم به، ولا يأسى الإنسان على ما فاته فيعلم أنه بقضاء الله وقدره ﷻ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَلِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟

فَقَالَ آدَم: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، فَهَلْ وَجَدْتَ ذَلِكَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[١] .

يذكر النبي ﷺ احتجاجَ آدم وموسى عليهما السلام، وأن موسى عليه السلام عاتب نبي الله آدم عليه السلام .

وقوله: «أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ»، هذا كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص: ٧٥]، فشرَّف اللهُ تعالى آدمَ فخلقه ﷻ بيده ﷻ، واليد من صفات الله ﷻ نثبتها لله على ما يليق بالله ﷻ.

وقوله: «وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحِهِ» الروح هنا إضافتها إلى الله ﷻ إضافة مخلوق إلى الخالق، إضافة تشريف وتكريم للمخلوق، فهي روح مخلوقة، وإضافتها إلى الله تشريف وتكريم لهذه الروح التي نُفخت في آدم عليه السلام[٢].

وقوله: «فَلِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟» ظاهر الحديث أن الجنة التي أُخرج منها آدمُ وأُهبط إلى الأرض هي جنة الخلد وجنة المأوى، وهي الجنة التي سيدخلها المؤمنون في الآخرة - نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من أهلها- وهذا الذي عليه جمع كبير من أئمة السنة ومن المفسرين، أن الجنة التي أهبط منها أدم هي الجنة التي هي المستقر للمؤمنين في الآخرة؛ لأن من معتقد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان، خلقهما الله، وأنهما موجودتان الآن، أعدتا وفُرغا من إعدادهما، وأن آدم

[١] رواه البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

[٢] انظر أنواع المضاف إلى الله، ص

كان يسكن هذه الجنة على الرأي الراجح.

وهناك رأي آخر يقول: «أن الجنة التي أهبط منها آدم هي جنة في الأرض، في مكان مرتفع في الأرض فيه بساتين وحدائق، وأهبط منه وأنزل منه إلى الأرض» .

لكن هذا القول يخالف ظاهر الآيات والأحاديث[١].

وقوله: «**فَلَمَّاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟**» هنا يلومه ويعاتبه، فآدم عليه السلام احتج على موسى، فأولُ شيءٍ ذَكَر بعض مناقبه وفضائله، فقال: «**أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاك اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، فَهَلْ وَجَدْت ذَلِكَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟**» **قَالَ**: «**نَعَمْ**». **قَالَ**: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**» .

ومعاتبة موسى عليه السلام لآدم عليه السلام، هل على الذنب أم على المصيبة التي نشأت عن الذنب؛ لأن بسبب الذنب أُهبط آدمُ من الجنة إلى الأرض، فسارت ذريته تحيا في هذه الأرض؟

يُرجح شيخ الإسلام أن موسى عليه السلام عاتب آدم على المصيبة التي نشأت عن الذنب، وهي الإهباط إلى الأرض؛ فلأجل ذلك احتج آدمُ عليه السلام بالقدر، فقال: «إن هذا الشيء قدره الله تبارك وتعالى عليه»، وهنا شهد بالحقيقة الكونية واحتج بالقدر في مصيبة، وليس في ذنب .

وهناك رأي آخر؛ قال به بعض علماء أهل السنة، ولكن شيخ الإسلام يراه مرجوحًا،

---

[١] ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم (٢٦١١) عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ**» .
وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: «والجنة التي أسكنها آدم وزوجته عند سلف الأمة وأهل السنة والجماعة هي: جنة الخلد، ومن قال: إنها جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة، أو غير ذلك، فهو من المتفلسفة والملحدين، أو من إخوانهم المتكلمين المبتدعين، فإن هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة» ثمّ ذكر رحمه الله الأدلة على ذلك، انظر: [مجموع الفتاوى ٤/ ٣٤٧-٣٤٩].

وهو أن موسى عاتب آدم عليه السلام على الذنب، وأن آدم عليه السلام احتج بالقدر، وأن احتجاج آدم عليه السلام بالقدر كان احتجاجًا صحيحًا لأنه احتج به على ذنب قد تاب منه، وموسى عليه السلام يلومه على ذنب قد تاب منه، والذنب الذي تاب منه الإنسان تحول من كونه عيب إلى كونه مصيبة، لأن هناك معائب ومصائب، فالذنب الذي لم يتب منه الإنسان وهو مستمر عليه، هو من المعائب التي لا يصح الاحتجاج بالقدر عليه، فليس عذرًا للإنسان أن يحتج بالقدر على ذنب وهو مقيم عليه ولم يتب منه، وهنا موسى عليه السلام عاتب آدم على ذنبٍ قد تاب منه فأصبح في حكم المصائب؛ لأن الله قدر على الإنسان بحكمته سبحانه أنه أذنب هذا الذنب في الماضي وتاب منه، فأصبح في حكم المصيبة مثل المرض والفقر.

والفرق بين المعائب والمصائب؛ أن العيب هنا معناه الذنب، تُذكر المعائب في مقابل المصائب، فالمعائب هي الذنوب، فكون الإنسان أذنب أو فعل حرامًا أو ترك واجبًا فهذا الذي يقال لها: المعائب أو التي تستحق أن يعاب بها الإنسان.

أما المصائب فلا يعاب بها الإنسان، فهذا الشيء بقضاء الله وقدره، والإنسان لم يكن فيه اختيار، فلا يعاب الإنسان بالمصائب، ككونه فقيرا أو مريضًا.

فاحتجاج آدم عليه السلام بالقدر على قولين:

الأول: إما أنه احتج بالقدر على المصيبة التي هي الإهباط إلى الأرض، وهي مصيبة ناشئة عن الذنب، والاحتجاج بالقدر هنا صحيح .

الثاني: أو أنه احتج بالقدر على الذنب الذي تاب منه، والذنب الذي تاب منه تحول من كونه عيبًا إلى كونه مصيبة، وصح الاحتجاج بالقدر أيضًا عليه من هذه الناحية.

ورجح شيخ الإسلام القول الأول كما سيأتي كلامه[١] .

❊ ❊ ❊

وَآدَمُ ﷺ لَمْ يَحْتَجَّ عَلَى مُوسَى بِالْقَدَرِ ظَنًّا أَنَّ الْمُذْنِبَ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ، وَلَوْ كَانَ هَذَا عُذْرًا لَكَانَ عُذْرًا لِإِبْلِيسَ، وَقَوْمِ نُوحٍ، وَقَوْمِ هُودٍ، وَكُلِّ كَافِرٍ.

وَلَا مُوسَى لَامَ آدَمَ أَيْضًا لِأَجْلِ الذَّنْبِ، فَإِنَّ آدَمَ قَدْ تَابَ إِلَى رَبِّهِ فَاجْتَبَاهُ وَهَدَى، وَلَكِنْ لَامَهُ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ بِالْخَطِيئَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَلِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟» فَأَجَابَهُ آدَم أَنَّ هَذَا كَانَ مَكْتُوبًا قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ.

فَكَانَ الْعَمَلُ وَالْمُصِيبَةُ الْمُتَرَتِّبَةُ عَلَيْهِ مُقَدَّرًا، وَمَا قُدِّرَ مِنْ الْمَصَائِبِ يَجِبُ الِاسْتِسْلَامُ لَهُ، فَإِنَّهُ مِنْ تَمَامِ الرِّضَا بِاللهِ رَبًّا.

لم يحتج آدمُ ﷺ بالقدر على الذنب كطريقة الجبرية، ولا المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[الأنعام: ١٤٨]، فهذا شيء مذموم، فآدم لم يحتج بالقدر على ذنب هو مقيم عليه، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل، ولو كان القدر عذرًا

[١] قال شيخ الإسلام في «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»: «وهذا الحديث ضلت فيه طائفتان: « طائفة كذبت به لما ظنوا أنه يقتضي رفع الذم والعقاب عمن عصى الله لأجل القدر، وطائفة شر من هؤلاء جعلوه حجة وقد يقولون: القدر حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه أو الذين لا يرون أن لهم فعلا. ومن الناس من قال: إنما حج آدم موسى لأنه أبوه أو لأنه كان قد تاب أو لأن الذنب كان في شريعة واللوم في أخرى أو لأن هذا يكون في الدنيا دون الأخرى، وكل هذا باطل، ولكن وجه الحديث أن موسى ﷺ لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة فقال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنبا وتاب منه؛ فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يلام وهو قد تاب منه أيضًا ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣] .

لكان إبليس معذورًا، وكذلك قوم نوح، وقوم هود، وكل الكفار.

ثم بيَّن شيخ الإسلام أن احتجاج آدم بالقدر كان على مصيبة الإهباط إلى الأرض، و أن هذا الاحتجاجَ احتجاجٌ صحيحٌ لأنه من المصائب، وهذا ما رجحه شيخ الإسلام كما مر .

ولو أخذنا بالرأي الآخر الذي يقول: «إن الاحتجاج بالقدر يصح على ذنب تاب منه الإنسان، فإن الذنب الذي تاب منه الإنسان يصبح مصيبة».

وبعض أهل العلم يذكرون أن الذنب يُنظرُ إليه من جهتين: «من جهة تقدير الله تعالى له، ومن جهة فعل العبد إياه» .

فالعبد يلام على الذنب من جهة أنه فَعَل هذا الذنب، وليس له أن يحتج بالقدر من هذه الجهة، لأن اللوم لا يتوجه إلى الذنب من جهة تقدير الله تعالى إياه، وإنما يتوجه إلى الذنب من جهة فعل العبد إياه، وكون العبد فعل الذنب فهو في هذه الحالة ملوم يستحق اللوم على أنه فعل.

قوله: «وَمَا قُدِّرَ مِنْ الْمَصَائِبِ يَجِبُ الِاسْتِسْلَامُ لَهُ، فَإِنَّهُ مِنْ تَمَامِ الرِّضَا باللهِ رَبًّا» . الكلام هنا عن المصيبة التي لا حيلة للإنسان في تغيرها، أي التي انتهت.

أما المصيبة الحاضرة وبإمكان الإنسان أن يأخذ ببعض الأسباب لرفعها أو تخفيفها، كالمرض أو الجوع، فليس من الاستسلام للقدر والرضا به أن يترك المريضُ الأخذ بَالسبب فلا يتداوى ولا يتعافى، أو يستسلم للجوع فلا يأخذ بالسبب الذي يزيل عنه هذا الجوع فلا يأكل.

بل كل مصيبية بإمكان المسلم أن يأخذ ببعض الأسباب التي تخففها، وهو راض بقضاء الله ومُسلِّم أيضًا، فليأخذ بالسبب الذي يدفع به المصيبة، من باب الفرار من قدر

الله إلى قدر الله، وهذا لا يتعارض مع الرضا بها .

❊ ❊ ❊

وَأَمَّا الذُّنُوبُ فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يُذْنِبَ، وَإِذَا أَذْنَبَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ، فَيَتُوبُ مِنْ الْمَعَائِبِ وَيَصْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ.

يذكر أهل العلم أن الإنسان له أربعة أحوال: هي أحوال «الطاعة، والمعصية، والنعمة، والابتلاء أو المصيبة»، وكل حال من هذه الأحوال المؤمن متعبَّد فيه إلى الله بعبادةٍ، وقد تجتمع كل هذه الأحوال في المؤمن في الوقت الواحد، فقد يكون مطيع لله بطاعات، ويقع في بعض الذنوب، ويتقلب في نعم الله ﷻ، وفي نفس الوقت مقدر عليه بعض المصائب، إذًا، ليست هذه الأحوال منفكة بحيث يكون المسلم في واحد منها دون الآخر، وكل حال من هذه الأحوال له عبادات أُمِرَ المسلمُ بها.

فبالنسبة للطاعة: فهو مأمور فيها بالإخلاص والمتابعة، أن يخلص فيها لله وأن يتابع فيها الشرع، فيوقعها على الصفة المشروعة وأن يخلص فيها لله تعالى، ولا يستكثر هذا العمل فيعجب به ويغتر، ولا يمن به على الله تعالى أو على عباد الله، بل يستقله، بل يخلصه لله بلا رياء أوعجب ... إلى آخره، هذا بالنسبة للطاعة .

وبالنسبة للذنب: فهو مطالب من الأصل أن لا يذنب، فإن أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب ويقلع عن هذا الذنب .

وبالنسبة للنعمة: هو متعبد لله تعالى بالشكر على النعمة.

وبالنسبة للمصيبة: فهو متعبد لله تعالى بالصبر والرضا .

❊ ❊ ❊

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾[غافر: ٥٥] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾[آل عمران: ١٢٠] .

وَقَالَ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٦] .

وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف: ٩٠] .

قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ يعني: اصبر على المصائب، ثم أمر بالاستغفار من الذنوب .

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ هنا جمع بين الصبر والتقوى، فالتقوى من معانيها توقي الذنوب، أو اتقاء عذاب الله بمعنى أن يتوقى الأسباب التي تؤدي به إلى عذاب الله، فهنا أمرنا بالصبر والتقوى.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أيضًا الصبر والتقوى، الصبر على المصائب، والتقوى اجتناب المعائب .

وقال يوسف عليه السلام: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ أيضًا جمع بين التقوى والصبر.

***

وَكَذَلِكَ ذُنُوبُ الْعِبَادِ، يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ فِيهَا أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ - بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ - وَيُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَيُوَالِيَ أَوْلِيَاءَ اللهِ وَيُعَادِيَ أَعْدَاءَ اللهِ وَيُحِبَّ فِي اللهِ وَيُبْغِضَ فِي اللهِ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ١ - ٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] وَقَالَ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ مِمَّا يُفَرِّقُ اللهُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَأَهْلِ الطَّاعَةِ

وَأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ، وَأَهْلِ الْبِرِّ وَأَهْلِ الْفُجُورِ، وَأَهْلِ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَأَهْلِ الْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَأَهْلِ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ.

قوله: «وَكَذَلِكَ ذُنُوبُ الْعِبَادِ» هناك ذنوبك الخاصة بك، وهناك ذنوب غيرك من العباد.

فالذنوب الخاصة؛ كل إنسان له عبادة تتعلق بذنوبه الخاصة بنفسه، أن يتوب إلى الله ويستغفره، ويسعى في التخلص من هذه الذنوب، ومجاهدة النفس.

وأما ذنوب الآخرين، فالعبادة المتعلقة بها، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب القدرة، والجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله، وموالاة أولياء الله، ومعاداة أعداء الله ... إلخ .

قوله: «وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ» كما قال النبي ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»[١]، والاستطاعة هنا هي الاستطاعة الشرعية، بمعنى أن الإنسان قد يكون مستطيعًا استطاعة بدنية بتغيير هذا المنكر، لكنه ليس مشروعًا له أن يغيره لأنه سيترتب عليه منكر أكبر، فهنا نقول: «إنه غير مستطيع» .

مثلا: أنت تسير في الطريق فتمر بخمارة أو بكنسية أو بشيء من المنكرات الموجودة، فقد يكون لك استطاعة بدنية أن تُغير هذه الأشياء بيدك، كأن تمسك حجرًا أو عصا وتضرب وتكسر، ولكن هذه ليست استطاعة شرعية لكونه يترتب على إزالتها منكرات أكبر وتفوت مصالح أعظم، والنبي ﷺ كان في مكة يطوف بالبيت ويصلي فيه، وفيه

---

[١] أخرجه مسلم (٤٩)، عن أبي سعيد رضي الله عنه .

ثلاثمائة وستون صنمًا، وكان مستطيعًا استطاعة بدنية أن يحطم هذه الأصنام بيده أو بعضًا منها، لكن في ذلك الوقت كان المنكر المترتب أكبر وأعظم، فهو غير مستطيع من هذا الباب.

كذلك تغيير الكعبة؛ فعن عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ، لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الْكَعْبَةَ**»[١]، ففي ذلك الوقت كان النبي ﷺ هو الحاكم، وفي استطاعته البدنية أن يهدم الكعبة بنفسه، أو يأمر أصحابه بهدمها، لكن ليس هناك استطاعة شرعية، بمعنى أنه لا يستطيع أن يفعل شرعًا؛ لأنه سيترتب على هذا منكرٌ أكبر.

فالعبد يجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيما يتعلق بذنوب العباد بحسب قدرته وبحكمة وبمراعاة للمصلحة والمفسدة والموازنة بين الأمور.

ويجب عليه أن يجاهد في سبيل الله الكفارَ والمنافقين، ويُوالي أولياءَ الله، ويُعادي أعداءَ الله، ويُحِب في الله ويبغض في الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ

[١] أخرجه مسلم (١٣٣٣).

وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة].

وهذه الآيات الكريمة تتعلق بموقف المسلم من ذنوب العباد، فموقفه أنه يبغض هذه الذنوب، ويعادي أعداء الله، وفي المقابل يجب أن يحب المؤمنين، ويوالي المؤمنين، ويبغض أعداء الله ويتبرأ منهم، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[المجادلة: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[الجاثية: ٢١].

المعنى أن الله ﷻ فرَّق بين المؤمنين والكافرين في الدنيا، وفرَّق بينهم أيضًا في الممات، فجعل في الدنيا لهؤلاء أحكامًا ولهؤلاء أحكامًا، وفي الآخرة جعل الله تعالى الجنة للمؤمنين، والنار للكافرين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ ﴾[فاطر: ١٩-٢٢].

هذه الأمثال ضربها الله تعالى للمؤمن والكافر، كما أن الأعمى والبصير لا يستويان، والظلمات والنور لا يستويان، والحي والميت لا يستويان، فكذلك المؤمن والكافر لا يستويان، فالمؤمن مثله كمثل الحي، والإيمان مثله كالنور، والمؤمن كالبصير، والكافر هو أعمى، وهو ميت، وهو في ظلمات، فلا يستوي هذا معه.

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾[الزمر: ٢٩].

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الموحد الذي يعبد الله وحده، والمشرك الذي يشرك بالله تعالى غيره، فالمشرك كرجل فيه شركاء متشاكسون- أي: متنازعون - يعبد أكثرَ مِن إلهٍ ومن معبود، وطاعة أحدهما معصية للآخر، فضرب الله تعالى المثل بعبد مملوك له شركاء متشاكسون هذا يأمره بفعل شيء، ومالكه الثاني يأمره بتركه، وإن أرضى المالك الأول أغضب الثاني، وإن أرضى الثاني أغضب الأول، فهل يستوي هذا مع عبد مملوك له سيد واحد، ومالك واحد، يبذل وسعه في مرضاته وطاعته.

فالمشرك الذي يشرك بالله تعالى غيره، إن أرضى الآلهة الأخرى أغضب الله ﷻ، يعني لا يمكن أن يُرضي اللهَ تعالى بهذا الشرك الذي هو فيه.

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل] .

هذان مثلان ضربهما الله تعالى للمؤمن وما يعمله من العمل الصالح، والكافر وما عليه من كونه عبدًا للشهوات، لا يعمل الخير ولا يتقرب به إلى الله [١].

---

[١] قال العلامة السعدي ؒ في تفسيره:«ضرب تعالى مثلين له ولمن يُعبد من دونه:
أحدهما: عبد مملوك أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئا، والثاني حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقا حسنا من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سرا وجهرا، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان، غير محال استواؤهما.
فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء؟!!
ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوّى المشركون آلهتهم بالله؟ قال: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ فلو علموا حقيقة العلم لم يتجرؤوا على =

فالقصد أن شيخ الإسلام ﷺ استشهد بهذه الآيات السالفة، ليوضح أن الله ﷻ فرَّق بين المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، وفرق بين أوليائه وأعدائه، وبين المسلمين والمجرمين، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين الذين أفسدوا في الأرض.

***

فَمَنْ شَهِدَ «الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ» دُونَ «الدِّينِيَّةِ» سَوَّى بَيْنَ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهَا غَايَةَ التَّفْرِيقِ، حَتَّى تَئُولَ بِهِ هَذِهِ التَّسْوِيَةُ إِلَى أَنْ يُسَوِّيَ بين اللهِ وَبَيْنَ الْأَصْنَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء].

من الانحراف في معتقد بعض الناس؛ أنهم شهدوا الحقيقة الكونية دون الشرعية، فنظروا إلى هذه الأجناس المختلفة التي فرَّق الله بينها على أنها شيء واحد كلها مطيعة لأمر الله الكوني!! فينظرون إلى المشرك والموحد، وإلى الفاسق والتقي، على أن الجميع قد امتثل لمشيئة الله ونفذت فيه أوامر الله الكونية، والجميع فعل ما فعل بقضاء الله وبقدر الله ووافق مشيئة الله!! فينظر إلى هذه الأصناف من هذا الباب، على أن الجميع شيء واحد، فلا يكون في قلبه مودة للمؤمنين ومعاداة لأعداء الدين؛ لأنه ينظر إلى أن هذا الذي يعبد الصنم، أويعبد الصليب، أو يعبد الله،ينظر إلى الجميع على أنهم شيء واحد، ينفذ حكمًا حكم الله به وقضاه؛ ولذلك لا يوجد في قلبه تفريقًا بين

= الشرك العظيم.

والمثل الثاني: مثل ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ لا يسمع ولا ينطق و﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان فلا يستوي من عبد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها لم يستطع شيئا منها، ولا يكون كفوا وندا لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه».

المؤمن والكافر، ولا بين الطائع والعاصي، فيوالي أعداء الله أو يعادي أولياء الله، مع أن الله ﷻ كما مر في الآية الكريمة أمر المؤمنَ بموالاة أولياء الله ومعاداة أعداء الله.

قوله: «حَتَّى تَئُولَ بِهِ هَذِهِ التَّسْوِيَةُ إِلَى أَنْ يُسَوِّيَ بين اللهِ وَبَيْنَ الْأَصْنَامِ».

يعني قد يتمادى بعض هؤلاء في الغي والضلال فلا يقتصر على التسوية بين عابد الله وعابد الصنم، بل يزيد على هذا بأن يسوي بين المعبود وحده بحق وهو رب العالمين ﷻ، وبين المعبود الذي يعبده عابد الصنم، فيسوي بين الله وبين الأصنام!!

فالشيطان يتدرج به، فيسوي بين الذي يعبد الصنم والذي يعبد الله، ثم يتدرج من هذا إلى المعبود، فيقول: «معبود هذا كمعبود هذا، كله شيء واحد لأن الجميع بمشيئة الله»، فيسوي بين الله وبين الصنم، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

قوله: «**كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ:** ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء]»

هذا كلام أهل النار بعد أن دخلوها أنهم كانوا في ضلال مبين في الدنيا حيث كانوا يسوون بين الله تعالى وبين المعبودات التي تُعبد من دونه.

***

بَلْ قَدْ آلَ الْأَمْرُ بِهَؤُلَاءِ إِلَى أَنْ سَوَّوْا اللهَ بِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَجَعَلُوا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ حَقًّا لِكُلِّ مَوْجُودٍ، إِذْ جَعَلُوهُ هُوَ وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ بِرَبِّ الْعِبَادِ.

وَهَؤُلَاءِ يَصِلُ بِهِمْ الْكُفْرُ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ عِبَادٌ لَا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مُعْبَدُونَ، وَلَا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ عَابِدُونَ: إِذْ يَشْهَدُونَ أَنَّ أَنْفُسَهُمْ هِيَ الْحَقُّ، كَمَا صَرَّحَ

بِذَلِكَ طَوَاغِيتُهُمْ: كَابْنِ عَرَبِيٍّ[١] صَاحِبِ «الْفُصُوصِ»، وَأَمْثَالِهِ مِنَ الْمُلْحِدِينَ الْمُفْتَرِينَ: كَابْنِ سَبْعِينَ[٢]، وَأَمْثَالِهِ، وَيَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ هُمُ الْعَابِدُونَ وَالْمَعْبُودُونَ.

وَهَذَا لَيْسَ بِشُهُودٍ لِحَقِيقَةٍ؛ لَا كَوْنِيَّةٍ وَلَا دِينِيَّةٍ؛ بَلْ هُوَ ضَلَالٌ وَعَمًى عَنْ شُهُودِ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ، حَيْثُ جَعَلُوا وُجُودَ الْخَالِقِ هُوَ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ، وَجَعَلُوا كُلَّ وَصْفٍ مَذْمُومٍ وَمَمْدُوحٍ نَعْتًا لِلْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، إِذْ وُجُودُ هَذَا هُوَ وُجُودُ هَذَا عِنْدَهُمْ.

هنا يشير إلى أهل وَحْدة الوجود، وهم فرقة من غلاة المتصوفة -عياذًا بالله تعالى- ادعوا أنه لا موجود إلا الله، بمعنى أن أي شيء موجود فهو الله، فالصنم هو الله، وكل ما في الكون من شيء حقير أو نفيس جعلوه هو الله- تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - وسيذكر شيخ الإسلام في آخر هذا الرسالة هذا الأمر عند حديثه عن الفناء؛ وذلك لأن «وحدة الوجود» من مقامات الفناء عند القوم .

والفناء يعني الزوال، وهو من المصطلحات التي يستعملها الصوفية، وهو ثلاثة أقسام:

الأولى: الفناء عن إرادة ما سوى الله .

---

[١] محيي الدين، أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي، ولد سنة ٥٥٨، وتوفي سنة ٦٣٨.
قال عنه العز بن عبد السلام: «هو شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم ولا يُحرم فرجًا» [سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٤٩].
وقال الحافظ ابن حجر: «وقد كنت سألت شيخنا الإمام سراج الدين البلقيني عن ابن عربي ؟ فبادر الجواب بأنه كافر». [لسان الميزان ٤/ ٣١٨].

[٢] أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر المعروف بابن سبعين، ولد سنة ٦١٣ وتوفي سنة ٦٦٩، واشتهر عنه مقالة ردته وهي قوله: «لقد كذب ابن أبي كبشة على نفسه حيث قال لا نبي بعدي» . انظر: «لسان الميزان» (٣/ ٣٩٢) .

الثاني: الفناء عن شهود السوى .

الثالث: الفناء عن وجود السوى .

فالفناء عن إرادة ما سوى الله؛ أي: يزول عن إرادة ما سوى الله، أو يترك إرادة ما سوى الله ويريد الله ﷻ وحده، هذا يسمونه: «الفناء عن إرادة ما سوى الله ﷻ»، فيفنى بالإخلاص عن الشرك، وبالطاعة عن المعصية، ويفنى بحب الله عن حب ما سواه، أي: ينشغل بحب الله عن ما سواه، وهكذا، فهذا النوع يسميه شيخ الإسلام ؒ: «الفناء الديني الشرعي»[١] وهو فناء محمود ومطلوب، وإن كان المصطلح نفسه غير وارد في الكتاب والسنة، لكن لا مشاحة في الاصطلاح كما قال شيخ الإسلام ؒ؛ لأن المعنى المقصود منه سليم وصحيح .

والنوع الثاني: الفناء عن شهود السوى أو عن شهود ما سوى الله، أي: يفنى عن مشاهدة ما سوى الله، وشيخ الإسلام ؒ يقرر أن هذا فناء بدعي، لكنه لا يخرج إلى الشرك، ولكنه في دائرة البدعة.

والفناء عن شهود ما سوى الله، يقر أصحابه أن هناك موجودات سوى الله، لكن يقول: «إنه ترقى إلى درجة أنه لا يشاهد هذه الموجودات»، ويشبهونها -مثلا- بالشمس، فيقولون: «عندما ترى الشمس لا تشاهد الكواكب أو النجوم رغم وجودهما؛ لأن نور الشمس غطى عليهما وجعلك لا تشاهد سواها» .

فهذا القسم يقر أصحابه بأن الله تعالى موجود، وهناك موجودات أخرى، فيفرقون بين وجود الله ووجود المخلوق، لكنهم فنوا عن مشاهدة هذه الموجودات الأخرى، فهذا نوع بدعي لأنه يصل ببعضهم إلى حالة مثل الجنون أو السُكْر، ويصدر عنهم بعض

[١] انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١١٨)، والتدمرية (١/ ٢٢١) ط / العبيكان - الرياض، سنة ٢٠٠٠.

الشطحات من صراخ وصعق، كأنه لا يشاهد إلا الله، وهو لا ينكر أن هناك مخلوقات موجودة، ولكن كأنه لا يشاهدها في حالة من السكر وغياب الوعي والإدراك، فأصبح لا يشاهد هذه المخلوقات لأنه منعزل عما حوله؛ فلا يشاهد ما حوله.

والنوع الثالث: وهو الفناء الكفري الإلحادي الذي غلا فيه بعض المتصوفة، فيقولون: «**الفناء عن وجود ما سوى الله**»، بمعنى يعتقد أنه لا يوجد إلا الله، ليس هناك موجود آخر إلا الله، فكل موجود عنده يصبح هو الله -تعالى الله عما يقولون- فلا يفرق بين الخالق والمخلوق، فيقول: «المخلوقات هذه كلها هي الخالق والمخلوق، والرب والمربوب...» - تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا - وهذا النوع هو الذي يحذر منه هنا شيخ الإسلام ﷺ فيبين أن بعض الناس بسبب غلوهم في مسألة شهود الحقيقة الكونية؛ وصلت بهم إلى أنهم لا يفرقون بين الخالق والمخلوق، فيسوون الله تعالى بالأصنام، ويجعلون ما يستحقه من العبادة والطاعة حقًّا لكل موجود، لأنهم يقولون: «لا موجود إلا الله»، فبالتالي العبادة التي هي حق لله جعلوها حقًّا لكل الموجودات، فلا فرق عندهم بأن يعبد الله تعالى أو يعبد صنمًا أو يعبد صليبًا!! لأنها بزعمه صور مختلفة، والمقصود واحد، وكلها واحد، ولا موجود إلا الله -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-.

ولذلك قال ﷺ: «**وَهَؤُلَاءِ يَصِلُ بِهِمْ الْكُفْرُ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ عِبَادٌ لَا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مُعْبِدُونَ، وَلَا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ عَابِدُونَ**».

كما ذكرنا أن العبد له معنيان: العبد بمعنى العابد، والعبد بمعنى المعبّد؛ فالعبد بمعنى العابد فيه عبادة الطوع والكره، والعابد بمعنى المعبد هو عبادة الكره فتنفذ فيه أوامر الله وقضاءه وتقديراته الكونية ﷻ.

أما أهل وحدة الوجود؛ فصاروا لا يشهدون أنهم عباد الله لا بمعنى العابد ولا بمعنى المعبّد، فلا هم امتثلوا لأوامر الله الشرعية واعتقدوا أنهم مكلفون بها، ولا هم اعتقدوا أنهم تسري عليهم مقادير الله تعالى الكونية، وأن هذا الكون له رب يدبر أمره وأنهم تنفذ فيهم أوامر الله، وأن الله تعالى هو الذي يحييهم ويميتهم، فلا هذا ولا هذا، إذ يشهدون أنفسهم هي الحق ؛لأنهم يعتقدون أنه ليس هناك فرق بين الخالق والمخلوق فصار الواحد منهم يرى نفسه أنه هو الخالق وهو المخلوق في نفس الوقت!! ليس هناك خالق غيره، تعالى الله عما يقولون.

قوله رحمه الله: **«كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ طَوَاغِيتُهُمْ: كَابْنِ عَرَبِيٍّ صَاحِبِ «الْفُصُوصِ»، وَأَمْثَالِهِ مِنَ الْمُلْحِدِينَ الْمُفْتَرِينَ: كَابْنِ سَبْعِينَ، وَأَمْثَالِهِ»** .

ابن عربي الطائي الأندلسي صاحب كتاب «الفتوحات المكية»[١] و «فصوص الحكم»[٢] كان ممن يدعو إلى هذه العقيدة الخبيثة، عقيدة وحدة الوجود، وأنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، ولا بين العابد والمعبود، فقال:

---

[١] من أكبر كتب ابن عربي، قال فيه: « كنت نويت الحج والعمرة فلما وصلت أم القرى أقام الله في خاطري أن أعرِّف الولي بفنون من المعارف حصلتها في غيبتي، وكان الأغلب هذه منها ما فتح الله علي عند طوافي بيته المكرم ».

وقال في الباب الثامن والأربعين: « واعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا عن نظر المذوق وإنما الحق الله يملي لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره وقد نذكر كلامًا بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده وذلك شبيه بقول الله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[البقرة: ٢٣٨] بين آيات طلاق ونكاح وعدة ووفاة ».

وقال: « واعلم أن جميع ما أتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه فإني أعطيت مفاتيح الفهم فيه والإمداد منه ».

[٢] من أسوأ ما صنف وكتب، زعم أنه تلقاه من رسول الله ﷺ!! قال عنه شيخ الإسلام: «ما تضمنه كتاب فصوص الحكم وما شاكله من الكلام فإنه كفر باطنا وظاهرا وباطنه أقبح من ظاهره وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول وأهل الاتحاد وهم يسمون أنفسهم المحققين» [مجموع الفتاوى ٢/ ٣٦٤] .

قال الذهبي: «ومن أردأ تواليفه كتاب الفصوص، فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر» [سيره ٢٣/ ٤٨].

الرَّبُّ حَقٌّ وَالْعَبْدُ حَقٌّ يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ الْمُكَلَّفُ؟
إنْ قُلْت عَبْدٌ فَذَاكَ مَيْتٌ أَوْ قَلْت رَبٌّ أَنَّى يُكَلَّفُ؟[١]

وقال: «العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء»[٢].

وكذلك ابن سبعين، ممن يقولون بوحدة الوجود، قال: «رب مالك وعبد هالك، ووهم حالك، وحق سالك، وأنتم ذلك![٣] اختلط في الإحاطة الزوج مع الفرد، واتحد فيه النجو[٤] مع الورد، واتفق فيه السقر مع القر، وبالجملة السبت هو يوم الأحد، والموحد هو عين الأحد، ويوم الفرض هو يوم العرض، والذاهب من الزمان هو الحاضر، والأول في العيان هو الآخر، والباطن في الجَنَان هو الظاهر، والمؤمن في الجِنان هو الكافر،، والفقير هو الغني، وهذه وحدات حكمية، لا أحداث وهمية، والمؤمن الكافر هو الذي يقول: سبحان من جعل من كل فرد زوجين اثنين، وجعل من زوج فردين، ولم يكن قط في الوجود ثاني اثنين، بل يقول: سبحان الفرد الزوج الحضيض الأوج»[٥].

ومنهم عمر بن الفارض[٦] صاحب التائية[٧] قال فيها:

---

[١] الفتوحات المكية (٦/ ٢٣٦).

[٢] الفتوحات المكية (٢ / ٣٣٢).

[٣] قال شيخ الإسلام: «فإنه جعل العبد هالكا أي لا وجود له فلم يبق إلا وجود الرب فقال: وأنتم ذلك وكذلك قال: الله فقط والكثرة وهم؛ فإنه على قوله لا موجود إلا الله. ولهذا كان يقول هو وأصحابه في ذكرهم: ليس إلا الله بدل قول المسلمين لا إله إلا الله». [مجموع الفتاوى ٢/ ٣٠٦].

[٤] النجو: الغائط.

[٥] رسالة الإحاطة (٤٦٥-٤٦٦) ضمن مجموع رسائل ابن سبعين.

[٦] أبو حفص عمر بن مرشد بن علي، شرف الدين ابن الفارض، الحموي، ولد بمصر سنة ٥٧٦، وأقام فيها وتوفي فيها سنة ٦٣٢، ويلقب بسلطان العاشقين.

[٧] هي قصيدة مسماة بـ «نظم السلوك».

وَأَشْهَدُ فِيهَا أَنَّهَا لِي صَلَّتِ | لَهَا صَلَوَاتِي بِالْمَقَامِ أُقِيمُهَا
حَقِيقَتِهِ بِالْجَمْعِ فِي كُلِّ سَجْدَةِ | كِلَانَا مُصَلٍّ وَاحِدٌ سَاجِدٌ إِلَى

تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، وهؤلاء قد كفرهم كثير ممن كانوا في زمنهم[١].

قوله ﵀: «**وَهَذَا لَيْسَ بِشُهُودٍ لِحَقِيقَةٍ؛ لَا كَوْنِيَّةٍ وَلَا دِينِيَّةٍ؛ بَلْ هُوَ ضَلَالٌ وَعَمًى عَنْ شُهُودِ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ...**».

هؤلاء الاتحادية الحلولية لا شهدوا الحقيقة الكونية ولا الدينية الشرعية، حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق، كما سبق من كلام ابن عربي:

الرَّبُّ حَقٌّ وَالْعَبْدُ حَقٌّ | يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ الْمُكَلَّفُ؟
إِنْ قُلْت عَبْدٌ فَذَاكَ مَيْتٌ | أَوْ قُلْت رَبٌّ أَنَّى يُكَلَّفُ؟

يزعمون أن العبد هو الرب، والرب هو العبد؛ وبالتالي لا يرون أنهم من المكلفين بالتكاليف الشرعية، لأنهم ينكرون التكاليف أصلًا.

كذلك لا يرون أنهم تنفذ فيهم أوامر الله الكونية وقضاء الله الكوني؛ لأنهم يعتقدون أن هذه المخلوقات الموجودة أمامه هي الرب وهي العبد في نفس الوقت، ولذلك جعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعتًا للخالق والمخلوق، تعالى الله عما يقولون.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، عَوَامُّهُمْ وَخَوَاصُّهُمْ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، كَمَا

---

[١] قال تقي الدين السبكي: «ومن كان من هؤلاء الصوفية المتأخرين كابن عربي وابن سبعين والقطب القونوي والعفيف التلمساني، فهؤلاء ضلال جهال خارجون عن طريق الإسلام فضلا عن العلماء» [مغني المحتاج للشربيني ٤/٩٧، ط/ دار الكتب العلمية، ١٩٩٤].
وانظر كتاب: مصرع التصوف، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ للهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ» [١].

فَهَؤُلَاءِ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَخَالِقُهُ، وَأَنَّ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقِ، لَيْسَ هُوَ حَالًّا فِيهِ وَلَا مُتَّحِدًا بِهِ، وَلَا وُجُودُهُ وُجُودَهُ.

وَالنَّصَارَى كَفَّرَهُمُ اللهُ بِأَنْ قَالُوا بِالْحُلُولِ وَاتِّحَادِ الربِّ بِالْمَسِيحِ خَاصَّةً، فَكَيْفَ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ؟

هؤلاء الضالون من غلاة المتصوفة جعلوا الفناء درجات؛ فالفناء عن إرادة ما سوى الله جعلوها درجة العوام، والفناء عن شهود ما سوى الله جعلوها درجة الخواص، و الفناء عن وجود ما سوى الله جعلوها درجة خواص الخواص - تعالى الله عما يقولون - فجعلوا الكفر والإلحاد رتبة خواص الخواص!!

فيبين شيخ الإسلام أن هذا كلام باطل، بل خواص المؤمنين الذين هم أهل الله وخاصته هم أهل القرآن الذين يعملون بالقرآن، فليس هناك خاصة لله ﷻ وهم لا يعبدون الله تعالى، ولا يفرقون بين الخالق والمخلوق، فهذه ليست صفة الخواص، وإنما هذه صفة الضالين الملحدين.

وأما الخواص فهم أهل القرآن الذين عملوا بكتاب الله العظيم، الذين يعلمون أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات، ليس هو حال فيه ولا متحد به، ولا وجودُه وجودَه.

وقوله ؒ: «وَالنَّصَارَى كَفَّرَهُمُ اللهُ بِأَنْ قَالُوا بِالْحُلُولِ وَاتِّحَادِ الربِّ بِالْمَسِيحِ

---

[١] رواه الإمام أحمد (١٢٢٧٩)، وابن ماجة (٢١٥)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٣١) عن أنس ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٦٥).

خَاصَّةً، فَكَيْفَ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ؟».

النصارى ادعوا أن الله تعالى حلَّ في المسيح عليه السلام واتحد به؛ فكفرهم الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١)﴾[مريم: ٨٨ - ٩١]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة: ١٧] . وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[المائدة: ٧٣] .

فإذا كان اعتقادهم اتحاد الله تعالى أو حلوله بمخلوق واحد من مخلوقاته كفرًا عظيمًا؛ فكيف بمن ادعوا أن الله تعالى حلَّ بجميع المخلوقات، واتحد بجميع المخلوقات، ولم يكن هناك فرق بين الخالق والمخلوق!! فلا شك أن هذا كفر وإلحاد أكبر وأعظم من كفر النصارى.

***

وَيَعْلَمُونَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَمَعْصِيَةِ رَسُولِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَّ عَلَى الْخَلْقِ أَنْ يَعْبُدُوهُ فَيُطِيعُوا أَمْرَهُ، وَيَسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قوله: «وَيَعْلَمُونَ» يعني جميع المؤمنين عوامهم وخواصهم، يعلمون أن الله تعالى أمر بالطاعة ونهى عن المعصية.

قوله: «وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ» هناك أشياء يحبها الله تعالى، وأشياء يبغضها الله ويكرهها، وهناك ذوات يحبها الله، وذوات يكرهها الله.

فمن الأشياء التي يحبها الله تعالى: الأعمال والطاعات كالصلاة والصيام ونحو ذلك من الأمور التي أمر بها.

ومن الأشياء التي يبغضها الله تعالى: كالفساد، «**وَقِيل وَقَال، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ**»[١].

ومن الذوات التي يحبها الله تعالى: كأنبيائه ورسله وأوليائه .

وهناك ذوات يبغضهم الله تعالى: كأعدائه؛ كفرعون وإبليس وأبي لهب .

وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ**»[٢] فمعناه أن الله تعالى يُحب بعض عباده، ويبغض بعض عباده، ويحب أعمالًا ويبغض أعمالًا، مع كون الجميع بمشيئته ﷻ.

ومسألة التفريق بين المحبة والمشيئة من الأمور التي خالف فيها الأشاعرةُ مذهبَ السلف الصالح، ففي مذهب السلف الصالح هناك فرق بين المشيئة والمحبة، فليس كل ما شاء الله فهو يحبه.

---

[١] أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣)، عن المغيرة بن شعبة ﷺ، بلفظ: « **إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ...**» .

[٢] أخرجه البخاري (٣٢٠٩) إلى قوله: «**الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**»، وأخرجه مسلم (٢٦٣٧) كاملاً، كلاهما عن أبي هريرة ﷺ .

أما الأشاعرة فالتبس عليهم هذا الفرق بين المشيئة والمحبة؛ فيظنون أن كل ما شاءه الله فقد أحبه، وكل ما أحبه فقد شاءه!! والإشكال عندهم أنهم يقولون: «كيف يكره شيئًا ويشاؤه؟».

والجواب على هذا السؤال: أن الله ﷻ يكره هذا الشيء أو هذا الشخص ولكن باعتبار العاقبة والمآل أن هذا العمل أو هذا الشخص المكروه لله سيكون وجوده سببًا لعاقبة حميدة وشيء محمود لله ﷻ .

ومثال ذلك: الكفر والفسق والمعصية، هذه أمور لا يحبها الله ﷻ، ولكنه تعالى شاء أن يكفر الكافر ويضل الضال ويفسق الفاسق، وشاء ﷻ أن يقع هذا الفساد والكفر مع أن الله تعالى يكرهها؛ لأنه سيترتب على وجودها عواقب حميدة، فمن ذلك - مثلا - أن هؤلاء الكفار سيقتلون المؤمنين فيكون المؤمنون شهداء؛ والله ﷻ يحب أن يصطفي من عباده شهداء، ويقاتلهم المؤمنون فيجاهدون في سبيل الله؛ والله تعالى يحب أن يجاهَد في سبيله، ويصبر المؤمنون على أذاهم؛ والله تعالى يحب أن يُصْبَر على الأذى، ومنهم من يتوب إلى الله تعالى ويستغفره؛ والله تعالى يحب التوبة ويحب التوابين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فالله تعالى أراد أن يعبَد بعبادات لا توجد إلا في وجود الشر وأهله، فقضى أن تقع هذه الأمور المكروهة له تعالى لما يترتب عليها من عبادات يحبها .

ولله تعالى المثل الأعلى، المريض قد يتداوى بدواء مُرٍّ، أو بجراحة قد يكون فيها استئصال عضو من أعضائه، ومع ذلك يدفع ماله ويذهب إليها مختارًا، وهو يكره الدواء المر، ويكره أن يجرح هذه الجراحة المؤلمة، لكنها محبوبة له باعتبار أنه سيترتب عليها عاقبة حميدة، والله تعالى كذلك -له المثل الأعلى ﷻ- يقدر أشياء

وهو على شيء قدير.

وكذلك أيضًا من الآثار المحبوبة لله؛ ظهور آثار صفاته ﷻ، فمن صفاته تعالى أنه التواب الغفور، فيقدِّر على عباده أن يذنبوا حتى يتوب عليهم فيتوبوا؛ كي يظهر فيهم أثر اسمه التواب، أو ربما عفا عمن لم يتب فيظهر فيهم أثر العفو عن المسيء والمذنب، فيظهر أثر صفته تعالى أنه التواب الغفور.

ومن صفاته تعالى أنه الجبار المنتقم وأنه ذو بأس شديد، فأراد تعالى أن يخلق خلقًا هو تعالى يكرههم ويكره عملهم لكنه شاء أن يوجدهم ليظهر فيهم أثر صفاته، يجرمون ويظلمون ويفسدون في الأرض؛ فيحق عليهم أن يُظهِر الله تعالى فيهم بأسَه وبطشَه وعقابَه الشديد في هؤلاء.

قوله: «وَأَنَّ عَلَى الْخَلْقِ أَنْ يَعْبُدُوهُ فَيُطِيعُوا أَمْرَهُ، وَيَسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى ذَلِكَ...» .

يعني الطاعة لن تقع إلا بمعونةٍ من الله، فالطائع أطاع الله بقدر الله وبمعونة الله، كما قال في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإذًا يعبدون الله ويستعينون به ﷻ على عبادته وطاعته.

***

وَمِنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ - بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ - وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ.

فَيَجْتَهِدُونَ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ، مُسْتَعِينِينَ بِهِ، دَافِعِينَ مُزِيلِينَ بِذَلِكَ مَا قُدِّرَ مِنْ السَّيِّئَاتِ، دَافِعِينَ بِذَلِكَ مَا قَدْ يُخَافُ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا يُزِيلُ الْإِنْسَانُ الْجُوعَ الْحَاضِرَ بِالْأَكْلِ، وَيَدْفَعُ بِهِ الْجُوعَ الْمُسْتَقْبَلَ، وَكَذَلِكَ إِذَا آنَ أَوَانُ الْبَرْدِ دَفَعَهُ بِاللِّبَاسِ.

وَكَذَلِكَ كُلُّ مَطْلُوبٍ يُدْفَعُ بِهِ كُلُّ مَكْرُوهٍ، كَمَا قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْت أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا، وَرُقًى نَسْتَرْقِي بِهَا، وَتُقَاةً نَتَّقِي بِهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ»[١] .

وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[٢] فَهَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِينَ باللهِ وَرَسُولِهِ الْعَابِدِينَ للهِ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ.

المؤمن يدفع السيئات سواء الحاضرة أو المستقبلة، فهناك وقاية وعلاج:

علاج؛ لرفع آثار السيئات الحاضرة.

ووقاية؛ لدفع السيئات المستقبلة.

ومثَّل ؒ لهذا بالجوع؛ فالإنسان إذا كان جائعًا فعنده الآن جوع حاضر فهو يأكل ليدفع الجوع الحاضر، وفي نفس الوقت أيضًا يتوقى الجوع إلى موعد الوجبة التالية، فهو يدفع الجوع الحاضر ويدفع أيضًا جوعًا مستقبلًا.

ومثَّل ؒ أيضًا بالبرد، يدفعه باللباس الثقيل، فهو يدفع البرد الحاضر، ويتوقى به البرد الذي سيأتيه في المستقبل.

قوله: «**وَكَذَلِكَ كُلُّ مَطْلُوبٍ يُدْفَعُ بِهِ كُلُّ مَكْرُوهٍ**» يعني: الطاعات هي دفع للمعاصي، مثل الإناء إذا ملأته بالشراب الطيب، فإنك دفعت بذلك أن يمتلأ بالشراب المفظع، فإذا شغلت المكان بالطاعة والخير، فأنت بهذا تدفع المعصية، لأنك تشغل

---

[١] رواه أحمد(١٥٤٧٢)، والترمذي(٢٠٦٥) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة (٣٤٣٧)، عن أبي خزامة، عن أبيه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» .

[٢] رواه الطبراني(٢٤٩٨)، والحاكم(١٨١٣) من حديث عائشة ؓ، وضعفه الألباني في «الضعيفة»(٦٧٦٤)، وهذا الحديث من الأحاديث التي تراجع عنها الشيخ، فقد كان حسنه في «صحيح الجامع» (٧٧٣٩) .

المكان والوقت بما هو محبوب لله، فأنت بالتالي تمنع انشغاله بما يكرهه الله.

قوله: «وَفِي الْحَدِيثِ: إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» .

«**فَيَعْتَلِجَانِ**» يعني فيتدافعان، يدفع كل منهما الآخر بين السماء والأرض؛ وهذا معنى قول النبي ﷺ أيضًا: «**لاَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلاَّ الدُّعَاءُ**» [١]، فالدعاء يرد القضاء ويرد البلاء.

كيف يرد الدعاءُ القضاءَ، وهل معناه أن القضاء سيغير أو يبدل مع أن الله تعالى قال: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] ؟

فالجواب: بيَّن أهلُ العلم أن الله ﷻ قضى وكتب عنده في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض، أن هذا العبد إذا لم يدعو حلت به المصيبةُ الفلانية أو البلاء الفلاني، وإذا دعا رُفع عنه هذا البلاء، ويكتب الله تعالى أيضًا ويقضي أن هذا العبد سيدعو ويُرفع عنه البلاء، وأن العبد الآخر لن يدعو وسيحل عليه البلاء بسبب عدم الدعاء.

فإن الله ﷻ يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، كالغلام الذي قتله الخضر، يعلم الله تعالى أنه لو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، فهو تعالى يعلم ما الذي يترتب على كونك تدعو وعلى كونك لا تدعو، فهو تعالى قدَّر وقضى أنك إذا دعوت حصل كذا، وإذا لم تدعو فيحصل كذا، وقضى أنك ستدعو أو لن تدعو، فكل شيء بقضاء الله تعالى وبقدره.

وقال ابن عباس ﵄ في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ

---

[١] أخرجه الترمذي (٢١٣٩)، عن سلمان ﵁.

﴿٣٩﴾ [الرعد]، قال: «كِتَابَانِ: كِتَابٌ يَمْحُو مِنْهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»[١].

فالمأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المحو والإثبات في صحف الكتبة الحافظين، فكل إنسان معه ملَك عن يمينه وعن يساره يكتبان عمل العبد، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار].

فـ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ في هذه الصحف، فقد يمحو الله تعالى بعض السيئات فيغفرها لصاحبها، وكذلك محو بعض ما لا يتعلق به ثواب أو عقاب، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي اللوح المحفوظ، ما كُتِب فيه لا يُمحى ولا يُغير.

فإذًا، الدعاء لرفع البلاء هو من الفرار من قدر الله إلى قدر الله، فكونك تعلم أن البلاء هذا من قضاء الله وقدره، لا يعارضه أن تدعو الله تعالى أن يرفعه، وبهذا يُعلم خطأُ العبارة التي يتداولها بعض الناس يقولون: «**اللهم إني لا أسألك رد القضاء أو رفع القضاء ولكني أسألك اللطف فيه**» فقد نبه العلماء على خطئها؛ فهي ليست مأثورةً عن النبي ﷺ، ولا عن صحابته رضي الله عنهم، ومخالفةٌ للأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ: «**لاَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلاَّ الدُّعَاءُ**».

* * *

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ «الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ» وَهِيَ رُبُوبِيَّتُهُ تَعَالَى لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ مَانِعًا مِنْ اتِّبَاعِ أَمْرِهِ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ عَلَى مَرَاتِبَ فِي الضَّلَالِ.

بعد أن بيَّن حال المؤمنين، انتقل إلى حال الضالين المنحرفين الذين يجعلون شهود

[١] أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٨٠).

الحقيقة الكونية -وهي ربوبيته تعالى لكل شيء- مانعًا من اتباع أمره الديني الشرعي.

و «شهود الحقيقة الكونية» فسرها هنا بشهود الربوبية، ولابن القيم ﷺ كلام خلاصته: «أن كلمة شهود الربوبية لها محمل حسن ومحمل سيء:

المحمل الحسن: بمعنى أن المؤمن يشهد تفرد الرب ﷻ بالقيومية والتدبير والخلق والرزق والعطاء والمنع والضر والنفع، وأن جميع الموجودات منفعلة لا فاعلة وأن الإنسان لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرًّا ولا نفعًا، فهنا شهود الربوبية بمعنى أن المؤمن يتعلق بالمسبب لا بالسبب.

وليس المعنى إهمالًا للأسباب ولا تركًا لها، ولكن قلب المؤمن يكون متعلقًا بالمسبب -الله ﷻ- فيتوكل عليه ويعتمد عليه، ولا يتعلق بالسبب، كالتداوي -مثلًا- جعله الله من أسباب الشفاء، فلا يتعلق قلب المريض بالسبب الذي هو الدواء، وإنما يتعلق بالله تعالى الذي سبَّبَ هذا السبب، وتعلم أنه قد يتداوى إنسان ولا يُشفى، وقد يُشفى بغير أن يتداوى، فمرد الأمر إلى الله ﷻ.

إذا كنت في تجارة تعلم أن الرزق بيد الله تعالى، ولا يتعلق قلبك بالسبب فتظن أنه طالما تاجرت سترزق، طالما ذاكرت ستنجح، لا، بل أنت تأخذ بالسبب، لكن لا يتعلق قلبك بالسبب، وإنما يتعلق بالله ﷻ الذي لو شاء لجعل هذا السبب يؤدي عمله ويترتب عليه المسَبَب، وإلا فإن السبب لا يعمل إلا بمشيئة الله وبتقديره، فلا يتكل الإنسان على السبب، ولكنه يأخذ به، فهذا يسمى: «شهود الربوبية» أو «الفناء بشهود الربوبية»، و هذا يُحمل محملًا حسنًا على هذا المعنى.

وأما المحمل السيئ: فهو ما حذّر منه شيخ الإسلام هنا بقوله: «**وَهِيَ رُبُوبِيَّتُهُ تَعَالَى لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ مَانِعًا مِنْ اتِّبَاعِ أَمْرِهِ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ**»، فالمعنى السيئ

لها إذا جعلنا ذلك مانعًا من اتباع الأمر الديني الشرعي.

قوله: «عَلَى مَرَاتِبَ فِي الضَّلَالِ» .

الذين يجعلون شهود الربوبية مانعًا من اتباع الأمر الديني على مراتب متفاوتة في الضلال، وسيذكر رحمه الله خمسة أصناف لهم .

***

فَغُلَاتُهُمْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ مُطْلَقًا عامًا، فَيَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ فِي كُلِّ مَا يُخَالِفُونَ فِيهِ الشَّرِيعَةَ، وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٤٨] وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[الزخرف: ٢٠] .

وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَم أَهْلِ الْأَرْضِ تَنَاقُضًا، بَلْ كُلُّ مَنْ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ فَإِنَّهُ مُتَنَاقِضٌ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقِرَّ كُلَّ آدَمِيٍّ عَلَى مَا يفعَلُ، فَلَا بُدَّ إِذَا ظَلَمَهُ ظَالِمٌ أَوْ ظَلَمَ النَّاسَ ظَالِمٌ وَسَعَى فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ وَأَخَذَ يَسْفِكُ دِمَاءَ النَّاسِ وَيَسْتَحِلُّ الْفُرُوجَ وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَنَحْو ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّرَرِ الَّتِي لَا قِوَامَ لِلنَّاسِ بِهَا أَنْ يَدْفَعَ هَذَا الْقَدَرَ، وَأَنْ يُعَاقِبَ الظَّالِمَ بِمَا يَكُفُّ عُدْوَانَ أَمْثَالِهِ.

فَيُقَالُ لَهُ: إِنْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً فَدَعْ كُلَّ أَحدٍ يفْعَلُ مَا يَشَاءُ بِك وَبِغَيْرِك، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً بطَلَ أَصْلُ قَوْلِك: حُجَّةٌ.

وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ [الَّذِينَ] يَحْتَجُّونَ بِالْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ لَا يَطْرُدُونَ هَذَا الْقَوْلَ وَلَا يَلْتَزِمُونَهُ، وَإِنَّمَا هُمْ بِحَسَبِ آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ؛ كَمَا قَالَ فِيهِمْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: «أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدَرِي، وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِي؛ أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاكَ

تَمَذْهَبْتَ بِهِ»[١].

هذا هو الصنف الأول من الذين يحتجون بالقدر على كل ما يخالفون فيه الشريعة، فتجد الواحد منهم -مثلًا- يزني ويسرق ويشرب الخمر ويترك الصلاة ويترك الصوم ...إلخ وإذا جئت تنكر عليه يقول: «بمشيئة الله وبقدر الله» ويحتج بالقدر على مخالفة الشريعة، فهؤلاء مثلهم كمثل المشركين الذين كانوا يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾، ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ فيحتجون بالقدر على ضلالهم وانحرافهم.

ويقال لهذا الذي يرفع عن نفسه اللوم باحتجاجه بالقدر: الآن لو أن شخصًا جاء الآن فلطمك على وجهك، وسرق مالك، وضربك وجرحك، هل ستنكر عليه وتلومه أم لا؟ إذا لمته تناقضت، لأن هذا الذي ضربك ولطمك وسرق مالك فَعَلَهُ بقدر الله، فإذا كان القدر حجة؛ فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك!! لو كان القدر حجة؛ فلا تعترض على من شاء أن يسرقك أو يضربك أو يظلمك طالما أنك ترى أن القدر حجة للعاصي!!

وإن لم يكن حجة؛ بطل أصل قولك، لأنه طالما أنك ترى أن المذنب يستحق أن يؤدَّب ويعاقَب، فأنت ملوم ولا يرتفع عنك اللوم وتستحق العقاب.

قوله: «وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ [الَّذِينَ] يَحْتَجُّونَ بِالْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ لَا يَطْرُدُونَ هَذَا الْقَوْلَ وَلَا يَلْتَزِمُونَهُ، وَإِنَّمَا هُمْ بِحَسَبِ آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ».

يعني لا يجعلونه مطردًا في كل الأبواب والمسائل ولا يلتزمونه وإنما هم يتبعون

[١] نسبه شيخ الإسلام إلى أبي الفرج بن الجوزي كما في مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤٦).

آراءهم وأهواءهم.

قوله: «**كَمَا قَالَ فِيهِمْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: «أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدَرِي، وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِي؛ أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاكَ تَمَذْهَبْتَ بِهِ**» .

يعني بعض العلماء كانوا ينكرون على هذا أنه عندما يعمل طاعة يكون قدريًا أي يقول بما تقول به القدرية؛ فالقدرية الذين يقولون: «إن الإنسان يخلق فعل نفسه»، وينفون عن الله تعالى المشيئة.

والإيمان بالقدر على مذهب السلف الصالح على أربعة مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بمرتبة العلم، نؤمن أن الله بكل شيء عليم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتاب، نؤمن أن الله تعالى كتب مقادير الخلائق، وكتب ﷻ طاعة الطائعين ومعصية العاصين، وأن فلانًا سيهتدي وفلانًا سيضل، وهذا سيمرض وهذا سيشفى، وهذا يُحْيَى وهذا يموت، كل شيء مكتوب عند الله ﷻ .

المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة، نؤمن أنه لا يقع في هذا الكون شيء إلا بمشيئة الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالسارق لما سرق، سرق بمشيئة الله، والمصلي عندما صلَّى، صلَّى بمشيئة الله.

والمرتبة الرابعة: مرتبة خلق أفعال العباد، نؤمن أن أفعال العباد مخلوقة، أن صلاة المصلي وطاعة الطائع، وسرقة السارق، وزنا الزاني، أن كل ذلك شيء مخلوق خلقه الله سبحانه تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات: ٩٦]، فكل ما عمله العباد فهو قد خلقه الله تعالى، والإمام البخاري رحمه الله له كتاب اسمه:

«خلق أفعال العباد»[١] جزء مستقل غير صحيح البخاري، أفرده لهذه المسألة وأورد فيه حديثًا عن النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ**»[٢] فأفعال العباد مخلوقة لله تعالى.

والقدرية صنفان: «قدرية غلاة، وقدرية غير غلاة» .

فالقدرية الغلاة: هم الذين يُنكرون المراتب الأربعة، يقولون: «**إن الله تعالى لم يعلم المعصية ولا كتبها ولا شاءها ولا خلقها**» .

وأما القدرية غير الغلاة: فهم ينكرون مرتبتين فقط، يقولون: «**إن الطاعة والمعصية علمها الله وكتبها عنده في اللوح المحفوظ**» لكن ينكرون المشيئة والخلق، يقولون: «**لكن لم يشأها ولم يخلقها**» .

وسبب اعتقادهم «**لم يشأها**» لظنهم أنه طالما كرهها الله فمعناها أنه لم يشاءها، وهذا الإشكال أجبنا عنه آنفًا [٣].

فهنا بعض العلماء قالوا لهؤلاء الذين يحتجون بالقدر على فعل المعاصي: «**أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدَرِي**» يعني عند الطاعة يصبح مثل القدرية الذين ينفون عن الله تعالى المشيئة والخلق، ويثبتون لأنفسهم أنهم يخلقون فعل أنفسهم ويشاؤونه بغير خلق من الله ولا مشيئة، فإذا صدرت من أحدهم طاعة اغتر بها واستكثرها ونسب الفضل فيها لنفسه

---

[١] طبع باسم: «خلق أفعال العباد» بتحقيق د. عبد الرحمن عميرة، وصدر عن دار المعارف السعودية بالرياض، سنة ١٣٩٨ هـ.
وطبع باسم: «خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل» بتحقيق سالم بن أحمد بن عبد الهادي، وأبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني، وصدر عن مكتبة التراث الإسلامي - مصر.

[٢] خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل (١/ ٤٦) .

[٣] انظر ص: ١٣١ .

لا لله تبارك وتعالى !! فهنا يشبه القدرية في هذه الحالة.

«وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِي» لكن عندما يعصي يقول: «هذه مشيئة الله تعالى، الله تعالى هو الذي خلق المعصية وشاءها»!! فيجعل اللوم على الله تعالى لا على نفسه !!

❧❧❧

وَمِنْهُمْ «صِنْفٌ» يَدَّعُونَ التَّحْقِيقَ وَالْمَعْرِفَةَ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَازِمٌ لِمَنْ شَهِدَ لِنَفْسِهِ فِعْلًا وَأَثْبَتَ لَهُ صُنْعًا، أَمَّا مَنْ شَهِدَ أَنَّ أَفْعَالَهُ مَخْلُوقَةٌ، أَوْ أَنَّهُ مَجْبُورٌ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِ كَمَا يُحَرِّكُ سَائِرَ الْمُتَحَرِّكَاتِ، فَإِنَّهُ يَرْتَفِعُ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ.

أما الصنف الثاني ممن يشهدون الحقيقة الكونية ولا يشهدون الحقيقة الشرعية؛ فقد جعلوا المؤمنين نوعين، هما: «الخواص والعوام».

فالخواص - عندهم- هم الذين شهدوا أن الله ﷻ هو الخالق لكل شيء، وأنهم يفعلون ما قدره اللهُ عليهم، فيرتفع عنهم التكليف ويعذرون بالحقيقة الكونية.

والعوام -عندهم- هم الذين يشهدون لأنفسهم فعلًا، ويثبتون لأنفسهم صنعًا، فهؤلاء مكلَّفون بالشريعة.

ويزعم هذا الصنف أن الأمر والنهي لازمٌ لعوام المؤمنين الذين شهدوا لأنفسهم فعلًا وأثبتوا لأنفسهم صنعًا، وأما خواص المؤمنين -عندهم- وهم الذين لا يشهدون لأنفسهم فعلًا ولا صنعًا، بل يشهدون أن أفعال أنفسهم مخلوقة، وأنهم مجبورن على ذلك، وأنهم ينفذ فيه قدر الله تعالى كما يحرك الله سائر المتحركات، فهؤلاء يرتفع عنهم التكليف ويرتفع عنه اللوم على المعصية؛ فلا يطالبون بالأمر والنهي، فأي شيء يفعلونه

هو طاعة لله، فلو أنه سرق أو زنا فهو في طاعةٍ لأنه لا يشهد لنفسه فعلًا، بل هو مسخر ينفذ فيه أمر الله!![١]

***

وَقَدْ يَقُولُونَ: مَنْ شَهِدَ «الْإِرَادَةَ» سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ، وَيَزْعُمُ أَحَدُهُمْ أَنَّ الْخَضِرَ[٢] سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ لِشُهُودِهِ الْإِرَادَةَ، فَهَؤُلَاءِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ الَّذِينَ شَهِدُوا الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ، فَشَهِدُوا أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ أَفْعَالَ الْعِبَادِ، وَأَنَّهُ يُدَبِّرُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ.

قوله: «**شَهِدَ الْإِرَادَةَ**» أي: شهد الإرادة الكونية؛ شهد أنه مُسخر ومُسير لإرادة الله الكونية، فسقط عنه التكليف!! ويُعلّلون قتل الخضر عليه السلام للغلام، وخرق السفينة، مع تحريمها في شريعة موسى عليه السلام، بأن الخضر عليه السلام شهد الإرادة الكونية وأصبح يعلم أنه مسخر ومسير بأمر الله؛ فارتفعت عنه التكاليف.

والتعليل الصحيح أن الخضر عليه السلام نبي من أنبياء الله تعالى يوحى إليه[٣]، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: «أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟» فَقَالَ: «**أَنَا أَعْلَمُ**»، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: «**أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ**». قَالَ: «**يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟**» فَقِيلَ لَهُ: «**احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ[٤]، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ**».

---

[١] وقد مر ص في ترجمة الشعراني، ما جاء في كتابه «الطبقات» من وصف لخواص المؤمنين بزعمهم.

[٢] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِرَ أَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْرَاءَ». رواه البخاري(٣٤٠٢)

[٣] قد مر الحديث عن الخضر، انظره ص ٦٥.

[٤] وعاء يسع خمسة عشر صاعا.

فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلاَ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الحُوتُ مِنَ المِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: «**آتِنَا غَدَاءَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**»، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ»، قَالَ مُوسَى: «**ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**» فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَالَ الخَضِرُ: «**وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ؟**» فَقَالَ: «**أَنَا مُوسَى**»، فَقَالَ: «**مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟**» قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: «**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا**» قَالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ**»، قَالَ: «**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا، وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**»، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُ: «**يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ فِي البَحْرِ**»[١].

قول موسى ﷺ لما سُئل: «أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟» فَقَالَ: «أَنَا أَعْلَمُ»، لأن موسى ﷺ أجاب على حسب ما يعلمه أنه نبي ذلك الزمان، ولا يعلم أن هناك من هو أعلم منه، فعتب الله عليه أنه لم يرد العلم إليه، أي لم يقل: الله أعلم

وقول الخضر: «يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا

---

[١] رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) .

العُصْفُورِ فِي البَحْرِ» يضرب المثل لضئالة علم البشر، وأنه ليس شيئًا في جنب علم الله تعالى.

والشاهد من الحديث قوله: «**يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ**» فيه إشارة إلى أنه نبي من أنبياء الله، علمه الله تعالى أشياء.

ثم إن قوله تعالى عن الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] فيه إشارة إلى أنه لم يفعل شيء بإرادته ولا باجتهاده الشخصي، وإنما بوحي من الله تعالى.

فالمقصود: أنه لا يمكن أن نستدل بقصة الخضر على أن هناك مرتبة يرتفع فيها التكليف عن الإنسان، خاصة أن نبينا محمدًا ﷺ هو مبعوث للناس كافة والرسل السابقون كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة، فإن وُجد مَن ليس مخاطَبًا بشريعة رسول من الرسل السابقين، فإن نبينا محمدًا ﷺ لا يوجد أحدٌ ليس داخلًا في شريعته ولا مخاطَبًا بأمره، قال ﷺ: «**كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[١]، وقال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، أَوْ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَا يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[٢]، فأيّما كان تأويل قصة الخضر، فالأنبياء السابقون كانت رسالتهم خاصة إلى أقوامهم بأعيانهم وليست عامة لجميع البشر، لكن رسالة نبينا محمد ﷺ للناس كافة وللثقلين للإنس والجن إلى أن تقوم الساعة، ولا يمكن لأحد أن يسعه الخروج عن شريعة نبينا محمد ﷺ.

وقال ابن حجر رحمه الله: «**كان بعض أكابِر الْعلماء يقول: أول عقدَة تحل من الزندقة،**

---

[١] أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

[٢] أخرجه مسلم (١٥٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

اعتقاد كون الخضر نبيًا، لِأَن الزَّنَادِقة يتذرعون بِكَوْنِهِ غير نَبِي، إِلَى أَن الْوَلِيّ أفضل من النَّبِي»[١] .

يعني: أول باب يفتح للزندقة والخروج عن الدين؛ اعتقاد عدم نبوة الخضر، وأنه قتل الغلام وخرق السفينة وفعل أشياء مخالفة للشريعة رغم وجود نبي، فيبدأ يقيس حاله عليه ويزعم أنه يأتيه إلهامات من الله بفعل أشياء محرمة في الشريعة.

فالقصد، ليس هناك من يسعه الخروج عن شريعة نبينا محمد ﷺ.

وشيخ الإسلام هنا يحذر من ضلال فئة من الناس يزعمون أن هناك خواص هم أهل الحقيقة شهدوا الحقيقة الكونية، لا يشهدون لأنفسهم فعلًا، وأنهم مسخرون ينفذ فيهم قدر الله فهم لا يكلفون بالشريعة، ويقيسون حالهم على الخضر، بحجة أنه لم يكن مكلَّفا بشريعة موسى، فكذلك هم ليسوا مكلَّفين بشريعة محمد ﷺ، ويزعمون أنه يأتيهم إلهام من الله يسمونه بـ«العلم اللدني» ويقولون: «حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تأخذون عن الأموات ونحن نأخذ عن الحي الذي لا يموت»!! فيجعلون الذي يتبع السنة و ينظر في الأحاديث النبوية ويعمل بها، ويأخذ عن فلان -عن مسلم أو البخاري وغيرهم من أئمة الحديث. - يأخذ دينه عن الأموات، وهم يزعمون أنهم يأخذون الدين مباشرة عن الحي الذي لا يموت سبحانه وتعالى بغير واسطة.

هذه الإلهامات لو خالفت الشريعة فهي من وساوس الشيطان، فلا يمكن أن يلهم الله تعالى عبدًا علمًا لَدُنِّيًا وهو مخالف للشريعة، فالشريعة هي الميزان والحَكَم.

وقوله: **«الَّذِينَ شَهِدُوا الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ، فَشَهِدُوا أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ أَفْعَالَ الْعِبَادِ، وَأَنَّهُ يُدَبِّرُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ»** .

---

[١] الزهر النضر في حال الخضر، ص ٦٧ .

هذه كلمة حق أُريدَ بها باطلٌ، فالله تعالى خالق أفعال العباد هذا حق، وكل شيء بإرادة الله هذا حق، والله تعالى مدبر لجميع الكائنات هذا حق، لكنهم يحتجون بها على باطلهم، فيعصون الله ويفسقون ويقولون: «هذا خلق الله وتدبير الله وإرادة الله».

***

وَقَدْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ عِلْمًا وَبَيْنَ مَنْ يَرَاهُ شُهُودًا، فَلَا يُسْقِطُونَ التَّكْلِيفَ عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِذَلِكَ وَيَعْلَمُهُ فَقَطْ، وَلَكِنْ يُسْقِطُونَه عَمَّنْ يَشْهَدُهُ، فَلَا يَرَى لِنَفْسِهِ فِعْلًا أَصْلًا، وَهَؤُلَاءِ لَا يَجْعَلُونَ الْجَبْرَ وَإِثْبَاتَ الْقَدَرِ مَانِعًا مِنْ التَّكْلِيفِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ .

بعض هؤلاء -أي: أهل الحقيقة الذين يرتفع عنهم التكليف بزعمهم- يفرقون بين مرتبة الشهود ومرتبة العلم، فيقولون: الذين يرتفع عنهم التكليف ليسوا الذين يعملون أن كل شيء بإرادة الله وأن أفعالهم مخلوقة، بل الذين شهدوا ذلك.

ويشبهون هذا بالبصر، فالإنسان قد يعلم الشيء عن مشاهدة بالبصر، وقد يعلمه عن سماع ولم يشهده، فأنت تعلم -مثلًا- بوجود بلد اسمها الصين، وأنها تقع في شرق الأرض...إلخ، فأنت تعلم هذا الشيء بالسماع أو القراءة ولكنك لم تشهده بعينك، فلم يسبق لك الذهاب إلى تلك البلد.

وهناك أشياء أنت شاهدتها بنفسك، كبلد ذهبت إليها، أو عشت ونشأت فيها، فعلمك بها علم شهادة وليس سماع.

وهكذا أصناف الموجودات، هناك أشياء تعلم بها عن طريق السماع والإخبار، وهناك ما تعلم به عن طريق شهودٍ بالبصر.

فيقولون: «القلب له شهود فهناك بصر العين، وهناك بصيرة القلب»، وهذا كلام حق يستشهد به على باطل، فالقلب له بصيرة كما أن العين لها بصر، والقلب يشهد أشياء كما أن العين تشهد أشياء، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦] .

فبعضهم يقول: «إنه من علم أن كل شيء بإرادة الله وأن أفعاله مخلوقة، لا يزال من العوام المكلفين بالشريعة».

لكن الذي يرتفع عنه التكليف -عندهم- هو الذي ارتقى لمرتبة الشهود، فخالط الأمر قلبه وأصبح علمه به علم الشهادة وليس علمه علمًا غائبًا سمع عنه.

والذي ارتقى لمرتبة شهود الحقيقة الكونية عندهم هو الذي فني عن شهود ما سواها كما أن الشمس إذا طلعت يشاهدها الإنسان ولا يشاهد النجوم رغم علمه بوجودها، وكما أن من أحدق ببصره إلى شيء ولو كان بعيدا يغيب بمشاهدته عن مشاهدة موجودات حوله قد تكون أقرب إليه

ومذهب السلف -رضوان الله عليهم- أن أفعال العباد مخلوقة، ولكن الإنسان يفعلها، خلاف الأشاعرة الذين يقولون: «إن الله تعالى فاعل كل شيء، لا فاعل إلا الله»، فيرون أن أفعال العباد خلقها الله وفعلها الله.

قوله: «وَهَؤُلَاءِ لَا يَجْعَلُونَ الْجَبْرَ وَإِثْبَاتَ الْقَدَرِ مَانِعًا مِنْ التَّكْلِيفِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ» .

الجبر: هو رفع اللوم عن العصاة بسبب أنهم يفعلون ما أراده الله وقدره ونفي الاختيار عنهم في أفعالهم الاختيارية.

فهؤلاء لا يجعلون الجبر مانعًا للتكليف مطلقا لكل الخلق كالصنف الأول الذي يرى أن إثبات القدر مانع للتكليف على جميع البشر، الطائع والعاصي، والمؤمن والكافر، وإنما يمنعون التكليف عن فئة معينة وهم خواص المؤمنين الذين لا يشهدون فعل أنفسهم .

***

وَقَدْ وَقَعَ فِي هَذَا طَوَائِفُ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ: أَنَّهُ ضَاقَ نِطَاقُهُمْ عَنْ كَوْنِ الْعَبْدِ يُؤْمَرُ بِمَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ خِلَافُهُ، كَمَا ضَاقَ نِطَاقُ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ الْمُعْتَزِلَةُ أَثْبَتَتْ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ الشَّرْعِيَّيْنِ دُونَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي هُوَ إِرَادَةُ اللَّهِ الْعَامَّةُ وَخَلْقُهُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَهَؤُلَاءِ أَثْبَتُوا الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ وَنَفَوْا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ فِي حَقِّ مَنْ شَهِدَ الْقَدَرَ، إِذْ لَمْ يُمْكِنْهُمْ نَفْيُ ذَلِكَ مُطْلَقًا.

وقع في ذلك بعض العباد، وبعض المتصوفة، وسبب ذلك أنه ضاق نطاقهم - أي: تصورهم وفكرهم- عن كيفية التوفيق بين كون العبد يُؤمَر بالشيء ويقدر عليه خلافه، فيقولون: «كيف يُقَدِّرُ الله تعالى على أبي جهل أو أبي لهب أن يكون كافرًا ثم يأمره بالإيمان، وكذلك الفاسق والعاصي»؛ فضاق عقلهم وفكرهم عن التوفيق بين هذين الأمرين، كيف أمر الله تعالى العبد بالشيء وقدَّر عليه خلافه؟

وحل هذا الإشكال عند أهل السنة والجماعة، أن الله ﷻ قدَّر على عباده ما يشاء، ثم أخفى عنَّا هذا التقدير حتى لا يحتج به أحدٌ، فأنت الآن لا تعلم ما الذي قدره الله تعالى عليك أتكون طائعًا أم عاصيًا، فلم يوحِ الله للإنسان أنه كُتب عليه في اللوح المحفوظ -مثلا- أنه من الأشقياء؛ فيفقد الأمل، ويترك العمل الصالح، ولذلك أخفى

الله تعالى عن الإنسان هذا التقدير حتى لا يحتج به، ثم إن الله تعالى أعطى للإنسان مشيئةً واختيارًا، وجعل الله لهذه المقادير أسبابًا، وجعل للإنسان مشيئةً واختيارًا، ولم يجعل أفعال العبد من طاعة ومعصية أو إيمان وكفر مثل حركات يد المرتعش ولا مثل انقباض القلب وانبساطه، فهذه أشياء ليس للإنسان فيها مشيئة واختيار.

فما ليس لك فيه مشيئة واختيار ارتفع عنك فيه التكليف، فلم يكلف الله تعالى العبد بأشياء تتعلق برئته ولا بضربات قلبه، ولا بجريان دمه، فهذه الأشياء لا تحاسب عليها، وإنما كون الإنسان يذهب فيصلي أو يذهب فيسرق أو يشرب الخمر، فهذا شيء له فيه اختيار، والذي ينكر هذا مكابر،

فالإنسان ليس مجبورًا -مثلًا- على الذهاب إلى مكان الفسق أو مكان الطاعة أو عمل الفسق أو عمل الطاعة، كحال شخص لا إرادة له مقيد بالحبال والناس حملوه فألقوه في مكان، لكن أنت لك اختيار ولك مشيئة، والله تعالى يحاسب العبد على هذا المشيئة والاختيار الذي أعطاها إياه، وهذه المشيئة أو الاختيار لابد أن توافق ما قدره الله، ولا يحاسبك الله على كونه قدر عليك ما فعلت، وإنما سيحاسبك على المشيئة والاختيار التي أعطاك الله إياها.

ويقال لهذا الإنسان: أنت الآن لا تعلم ما الذي كُتب عليك في المستقبل، فأنت إن عصيت فهو بقدر الله، وإن أطعت فهو بقدر الله، فلماذا لا تطيع وأنت لك مشيئة ولك قدرة على الطاعة، لماذا لا تطيع الله وتكون موافقًا لقدره بدلًا من أن تعصيه وتكون موافقا أيضًا لقدر الله؟

فالقصد، أن السبب أنهم **«ضَاقَ نِطَاقُهُمْ عَنْ كَوْنِ الْعَبْدِ يُؤْمَرُ بِمَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ خِلَافُهُ، كَمَا ضَاقَ نِطَاقُ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ عَنْ ذَلِكَ»** .

ثم قال: «**ثُمَّ الْمُعْتَزِلَةُ أَثْبَتَتْ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ الشَّرْعِيَّيْنِ دُونَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي هُوَ إِرَادَةُ اللَّهِ الْعَامَّةُ وَخَلْقُهُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ**» .

المعتزلة لما عجزوا عن الجمع والتوفيق بين كون الإنسان يؤمر بالشيء ويُقدّر عليه خلافه؛ نفوا إرادة الله العامة وخلقه لأفعال العباد فقالوا: «إن الله تعالى لم يشأ المعصية، ولم يخلق المعصية؛ لأن الله تعالى شاء من العبد أن يطيعه، والعبد خرج عن مشيئة الله في معصيته وفعل ما لم يشأه الله، فهي من خلق العبد» فكان هذا هو الحل عندهم فالمعتزلة قدرية.

وفي المقابل الجبريةُ؛ فهم «**أَثْبَتُوا الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ وَنَفَوْا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ**» فقالوا: «المعصية بمشيئة الله وبخلق الله إذًا العبد لم ينه عنها» .

فالفريقان يريدان الوصول إلى أن العبد لا يؤمر بالشيء ويقدر عليه خلافه فكان الحل عند الجبرية أنهم نفوا الأمر والنهي، قالوا: « طالما قدَّر على العبد المعصية فهو أمر بالمعصية» ، أما المعتزلة القدرية فعكس الجبرية، فأثبتوا الأمر والنهي ونفوا القدر، فقالوا: «طالما العبد مأمور بالطاعة ومنهي عن المعصية؛ فالمعصية لم تقدر عليه، وترك الطاعة لم يقدر عليه» .

قوله: «**وَهَؤُلَاءِ أَثْبَتُوا الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ وَنَفَوْا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ فِي حَقِّ مَنْ شَهِدَ الْقَدَرَ، إِذْ لَمْ يُمْكِنْهُمْ نَفْيُ ذَلِكَ مُطْلَقًا**» .

الكلام هنا عن الجبرية، وعن طائفة من المتصوفة، وطائفة من الأشاعرة، أثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهي عن الخواص الذين شهدوا القدر، فهم لم يمكنهم نفي الأمر والنهي مطلقًا، وإنما نفته عمن شهد القدر، كما سبق آنفًا عند ذكر المؤلف لصنفين، صنف سماهم: «الغلاة» يقولون: «التكاليف مرفوعة عن الجميع المؤمن

والكافر والطائع والعاصي»، والصنف الثاني هو المقصود هنا يقول: «التكاليف مرفوعة عن خواص المؤمنين الذين شهدوا الحقيقة الكونية وليس مرفوعا عن عوام الناس .

وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّلَفِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَحَدٌ.

عند الموازنة أي الفريقين أضل من الآخر، هل المعتزلة الذين أثبتوا الأمر والنهي الشرعيين ونفوا القدر أَضَلُّ، أم الأضل منهم الذين أثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهي؟

شيخ الإسلام هنا يقول: الجبرية الذين نفوا الأمر والنهي أضل من المعتزلة الذين نفوا القدر، وذلك لأنك إذا نظرت إلى أثر ذلك على سلوك الإنسان؛ فالمعتزلة يثبتون أن الإنسان مأمور بالطاعة ومنهي عن المعصية، وإن أطاع أثيب وأن عصى عوقب، بل إن المعتزلة عندهم غلو في عقاب العاصي، فيعتقدون أن من مات على كبيرةٍ فهو مخلدٌ في جهنم لا يخرج منها؛ ولهذا غلب عليهم العبادة، فالمعتزلة رغم أنهم قدرية؛ لكن كانوا يعظمون أمر الله ونهيه، فيفعلون الطاعات ويجتنبون المحرمات، رغم اعتقادهم أن المعاصي لم يقدرها الله، ولكن كانوا يَحذُرون منها لأنهم يعلمون أن الله يعاقب عليها، بل يعتقدون أن العاصي مخلد في نار جهنم لا يخرج منها.

بخلاف الجبرية الذين قالوا: «الطائع والعاصي بقدر الله، والجميع مطيع لأمر الله الكوني» فانعكس أثر ذلك عليهم؛ فكثر فيهم الفسق والفجور وفعل المنكرات.

ولذلك قال: **«وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّلَفِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَحَدٌ»**

ويعني بالسلف هنا التابعين، لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا جميعًا على الحق، وهم

المقياس والمعيار للحق، لكن في زمن التابعين اتُّهم بعضهم بالقدر، كقتادة[١] رحمه الله، والحسن البصري[٢] رحمه الله، وإن كان عند التحقيق فمن العلماء من يقول: إنهم رجعوا عن ذلك وماتوا على السنة، ومن المحققين من ينفي عن الحسن البصري رحمه الله القول بقول القدرية، فوجد من علماء التابعين من وقع في هذه المقولة: «إن المعصية ليست بمشيئة الله وليست من خلق الله» وسُموا بالقدرية غير الغلاة[٣].

فإذًا، هذا القول-ارتفاع التكاليف على من وصل إلى مقام معين- لم يوجد قط في القرون الثلاثة المفضلة، وهذا معناه أن القول بالقدر- رغم ضلال صاحبه- أخف ضلالة من القول بالجبر.

والمقصود القدرية غير الغلاة؛ إذ القدرية الغلاة الذين ينفون العلم والكتابة هذا اعتقاد مكفر، أما القدرية غير الغلاة الذين لا ينفون العلم والكتابة وإنما ينفون المشيئة والخلق فهذه بدعة اعتقادية غير مكفرة، فقد ضلوا فيها لما ضاقت عقولهم عن التوفيق بين كون العبد يؤمر بالشيء ويكون في نفس الوقت قد شاء الله له أن يفعل خلافه، كما بينا آنفًا.

---

[١] قَتَادَة بن دِعَامة بن قتَادة بن عَزِيزٍ السَّدُوْسِيّ، أبو خطاب، ولد سنة ٦٠ هـ، كان ضريرًا أكمه، وكان من أوعية العلم ويُضرب به المثل في قوة الحفظ، روى عنه أئمة الإسلام، كأيوب السختياني، والأوزاعي، وشعبة، وحماد بن سلمة، توفي سنة ١١٨هـ.

قال الذهبي: «وكان يرى القدر - نسأل الله العفو - ومع هذا، فما توقف أحد في صدقه، وعدالته، وحفظه، ولعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عما يفعل، ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه واتباعه، يغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه. نعم، ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك» انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٦٩).

[٢] الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، الإمام، كان كبير الشأن، رفيع الذكر، رأسا في العلم و العمل، ولد بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر، وتوفي سنة ١١٠ هـ. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٣٦).

[٣] انظر أنواع القدرية، ص ١٣٠.

وَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لِلْمَحْجُوبِينَ الَّذِينَ لَمْ يَشْهَدُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ، وَلِهَذَا يَجْعَلُونَ مَنْ وَصَلَ إِلَى شُهُودِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يَسْقُطُ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، ويقولون: إِنَّهُ صَارَ مِنْ الْخَاصَّةِ!!

وَرُبَّمَا تَأَوَّلُوا عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[الحجر: ٩٩] فالْيَقِينُ عِنْدَهُمْ هُوَ مَعْرِفَةُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ.

وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ كُفْرٌ صَرِيحٌ، وَإِنْ وَقَعَ فِيهِ طَوَائِفُ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ كُفْرٌ، فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَازِمَانِ لِكُلِّ عَبْدٍ مَا دَامَ عَقْلُهُ حَاضِرًا إِلَى أَنْ يَمُوتَ، لَا يَسْقُطُ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ لَا بِشُهُودِهِ الْقَدَرَ، وَلَا بِغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ ذَلِكَ عُرِّفَهُ، وَبُيِّنَ لَهُ، فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى اعْتِقَادِ سُقُوطِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ، وَقَدْ كَثُرَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ فِي الْمُسْتَأْخِرِينَ.

وَأَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتُ مَعْرُوفَةً فِيهِمْ.

يعني أن الجبرية الذين وصل بهم الأمر إلى اعتقاد أن هناك خواص شهدوا الحقيقة الكونية فارتفعت عنهم التكاليف، قولهم هذا كفرٌ صريح؛ لأنه استحل كل المحرمات، واستحل ترك الواجبات.

وربما استدل هؤلاء الجبرية على ضلالتهم بقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ فيزعمون أن اليقين هو سقوط الأمر والنهي، والتفسير الصحيح أن اليقين هو الموت[١]، وتطبيق ذلك على حال رسول الله ﷺ؛ فإن النبي ﷺ عبد الله تعالى إلى آخر لحظة في حياته، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم.

---

[١] سبق تفسير الآية، انظره ص ٣٤.

فهؤلاء يعتقدون أنهم وصلوا إلى درجة لم يصل إليها النبي ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون، إذ لو كان اليقين درجة من وصل إليها ارتفع عنه التكليف لكان أحق الناس بهذا النبي ﷺ وصحابته.

لكن النبي ﷺ وصحابته ما فهموا من الآية إلا أنهم مأمورون بعبادة الله إلى الموت، فعبدوا الله تعالى إلى أن ماتوا.

قوله: «وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ كُفْرٌ صَرِيحٌ، وَإِنْ وَقَعَ فِيهِ طَوَائِفُ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ كُفْرٌ»

يشير إلى مسألة: «كفر النوع، وكفر الأعيان» يعني قد يكون الشخص المعين لا يعلم أن هذا الأمر كفر، لكن الحكم على المقالة أنها مقالة كفرية وأن من اعتقدها كفر .

قوله: «فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ ذَلِكَ عُرِّفَهُ، وَبُيِّنَ لَهُ، فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى اعْتِقَادِ سُقُوطِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ» .

هنا مسألة: «التبيين للجاهل»، فبعض الناس قد يكون قلَّد شيخًا قال له: «إن هناك مرتبة من وصل إليها ارتفع عنه التكليف» وتأوَّل قولَه تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾، وقصة الخضر، فهؤلاء يُوضَّح لهم معنى الآية، وأن الخضر كان نبيًّا يُوحى إليه، وأن الأنبياء السابقين لم تكن شريعتهم عامة لجميع أهل زمانهم بخلاف نبينا محمد ﷺ شريعته عامة للجميع الإنس والجن إلى أن تقوم الساعة، وأنه لا يسع أحدًا الخروج عن شريعة النبي ﷺ، وأن من ظن هذا واعتقده كَفَرَ، فإن أصر على هذا فإنه يستحق أن يقتل ردّة عن الدين وكفرًا، ولكن هذا الأمر يقوم به الحاكم، لا يقوم به آحاد الرعية، فالحاكم هو الذي عليه أن يأتي بهؤلاء الذين يدعون إلى تلك الضلالات ويعرفهم ويبين لهم فإن أصروا على ضلالهم استحقوا القتل ردة .

وَهَذِهِ الْمَقَالَاتُ هِيَ مُحَادَّةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمُعَادَاةٌ لَهُ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَمُشَاقَّةٌ لَهُ، وَتَكْذِيبٌ لِرُسُلِهِ، وَمُضَادَّةٌ لَهُ فِي حُكْمِهِ، وَإِنْ كَانَ مَنْ يَقُولُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ قَدْ يَجْهَلُ ذَلِكَ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ هُوَ طَرِيقُ الرَّسُولِ، وَطَرِيقُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُحَقِّقِينَ، فَهُوَ فِي ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ، لِاسْتِغْنَائِهِ عَنْهَا بِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ، أَوْ أَنَّ الْخَمْرَ حَلَالٌ لَهُ لِكَوْنِهِ مِنَ الْخَوَاصِّ الَّذِينَ لَا يَضُرُّهُمْ شُرْبُ الْخَمْرِ، أَوْ أَنَّ الْفَاحِشَةَ حَلَالٌ لَهُ؛ لِأَنَّهُ صَارَ كَالْبَحْرِ لَا تُكَدِّرُهُ الذُّنُوبُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فهؤلاء لُبِّس عليهم، وظنوا أن هناك خواص من المؤمنين وصلوا إلى مقامات استغنوا فيها عن الصلاة بما في قلوبهم من الأحوال القلبية، وحل لهم الخمر لأنهم لا يضرهم شرب الخمر، وأن الفاحشة حلال لهم، وأنهم صاروا كالبحر الذي لا تكدره الذنوب، وهذا كله من تلبيس الشيطان.

ومسألة التأويل قد وقعت في عهد الصحابة ﵃، فعَن ابن عباسٍ ﵄: «**أَنَّ قُدَامَةَ بْنَ مَظْعُونٍ**[١]**، شَرِبَ الْخَمْرَ بِالْبَحْرَيْنِ فَشَهِدَ عَلَيْهِ، ثُمَّ سُئِلَ فَأَقَرَّ أَنَّهُ شَرِبَهُ**».

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ**»، فَقَالَ: «**لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ:** ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩٣]، **وَأَنَا مِنْهُمْ أَيْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَمِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، وَأَهْلِ أُحُدٍ**»، فَقَالَ لِلْقَوْمِ: «**أَجِيبُوا الرَّجُلَ**» فَسَكَتُوا، فَقَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «**أَجِبْهُ**»، فَقَالَ: «**إِنَّمَا أَنْزَلَهَا عُذْرًا**

---

[١] قدامة بن مظعون بن حبيب أخو عثمان بن مظعون من سادات قريش، ومن السابقين البدريين، ولي إمرة البحرين لعمر، وهو من أخوال أم المؤمنين حفصة، وابن عمر، وزوج عمتها صفية بنت الخطاب، إحدى المهاجرات، مات بالمدينة سنة ٣٦ في خلافة علي بن أبي طالب وله ثمان وستون سنة . انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ١٦١) .

لِمَنْ شَرِبَهَا مِنَ الْمَاضِينَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ، وَأَنْزَلَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، حُجَّةٌ عَلَى الْبَاقِينَ» ثُمَّ سَأَلَ مَنْ عِنْدَهُ عَنِ الْحَدِّ فِيهَا، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «إِنَّهُ إِذَا شَرِبَ هَذِيَ، وَإِذَا هَذِيَ افْتَرَى فَاجْلِدُوهُ ثَمَانِينَ»[١] .

فكان التأويل عذرا له عند الله في رفع الإثم، لكن لم يعذر به في أحكام الدنيا فأقيم عليه الحد .

فالقصد، أن بعض هؤلاء يكونون على أصل الإسلام والدين، ولكن لُبِّس عليهم في هذا الباب، وظنوا أن هناك من أولياء الله من يصلون إلى مقام يرتفع عنهم التكاليف، فهؤلاء يحتاج الأمر أن يبين لهم، ثم إن أصروا بعد هذا البيان فإن هذا المعتقد كفر لكن لا نكفرهم بأعيانهم حتى نبين لهم فلعلهم تأولوا .

فنطلق القول بأن هذا الاعتقاد كفر، وأن هذه المقولة كفر، أما من ناحية الحكم على الشخص المعين فيؤتى به ويعرف ويبين له وتقام عليه الحجة في هذا الأمر .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ يَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ الْبِدْعَةِ الْمُخَالِفَةِ لِشَرْعِ اللَّهِ، وَبَيْنَ الِاحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ؛ فَهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافُ فِيهِمْ شَبَهٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّهُمْ إِمَّا أَنْ يَبْتَدِعُوا، وَإِمَّا أَنْ يَحْتَجُّوا بِالْقَدَرِ، وَإِمَّا أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨] **وَكَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ:** ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] .

---

[١] أخرجه النسائي في «الكبرى» (٥٢٧٠)، وعبد الرزاق (١٧٠٧٦) .

المشركون الذين كذبوا الرسل فعلوا أمرين:

الأمر الأول: أنهم ابتدعوا في الدين ما لم ينزل به الله سلطانًا، يعني أحدثوا بدعًا في الاعتقادات والعبادات والأعمال، فكما أنه هناك بدعًا يبتدعها المسلمون فهناك بدع يبتدعها المشركون، فما خرجوا به عن شرائع الأنبياء وأحدثوه في دينهم من التغيير والتبديل فهي بدع ابتدعها هؤلاء المشركون.

الأمر الثاني: احتجاجهم بالقدر على بدعهم، فيقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ «لو أن ما نحن عليه باطل؛ فلن يشاء الله أن نفعله، فطالما لا يحصل شيء إلا بمشيئة الله؛ فما نحن عليه حق» !!

فيبين رحمه الله أن هؤلاء الأصناف الذين يحتجون بالقدر على المعاصي فيهم شبه من هؤلاء المشركين، لأنهم إما أن يبتدعوا، وإما أن يحتجوا بالقدر وإما أن يجمعوا بين الأمرين .

***

وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ الدِّينِ الَّذِي فِيهِ تَحْلِيلُ الْحَرَامِ وَالْعِبَادَةُ الَّتِي لَمْ يُشَرِّعْهَا اللَّهُ بِمِثْلِ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨] إلَى آخِرِ السُّورَةِ.

يشير إلى ما ذكره الله تبارك وتعالى من بدع المشركين، وأنهم حرموا بعض ما أحله الله تبارك وتعالى، فكانوا يحرمون السائبة والبحيرة والوصيلة والحام!! قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة] .

واختلف في تفسير البحيرة والسائبة والوصيلة والحام على أقوالٍ، منها قول ابن إسحاق ﵀ قال: «فَأَمَّا الْبَحِيرَةُ فَهِيَ بِنْتُ السَّائِبَةِ.

وَالسَّائِبَةُ: النَّاقَةُ إِذَا تَابَعَتْ بَيْنَ عَشْرِ إِنَاثٍ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ، سُيِّبَتْ فَلَمْ يُرْكَبْ ظَهْرُهَا، وَلَمْ يُجَزَّ وَبَرُهَا وَلَمْ يَشْرَبْ لَبَنَهَا إِلَّا ضَيْفٌ، فَمَا نُتِجَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أُنْثَى شُقَّتْ أُذُنُهَا، ثُمَّ خُلِّيَ سَبِيلُهَا مَعَ أُمِّهَا فَلَمْ يُرْكَبْ ظَهْرُهَا، وَلَمْ يُجَزَّ وَبَرُهَا، وَلَمْ يَشْرَبْ لَبَنَهَا إِلَّا ضَيْفٌ كَما فُعِلَ بِأُمِّهَا، فَهِيَ الْبَحِيرَةُ بِنْتُ السَّائِبَةِ.

وَالْوَصِيلَةُ: الشَّاةُ إِذَا أَتْأَمَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ مُتَتَابِعَاتٍ فِي خَمْسَةِ أَبْطُنٍ، لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ، جُعِلَتْ وَصِيلَةً، قَالُوا: قَدْ وَصَلَتْ، فَكَانَ مَا وَلَدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ لِلذُّكُورِ مِنْهُمْ دُونَ إِنَاثِهِمْ، إِلَّا أَنْ يَمُوتَ مِنْهَا شَيْءٌ فَيَشْتَرِكُوا فِي أَكْلِهِ، ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ»[١].

عن سعيد بن المسيب[٢]، **قال**: «البَحِيرَةُ: الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ، فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ.

وَالسَّائِبَةُ: كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ لاَ يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ

قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ**».

وَالوَصِيلَةُ: النَّاقَةُ البِكْرُ، تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الإِبِلِ، ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَى، وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ، إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ.

---

[١] أخرجه ابن هشام في «السيرة النبوية» (١/ ٨٩)، ط / الحلبي، سنة ١٩٥٥، تحقيق / مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ الشلبي.

[٢] سعيد بن المسيب بن حزن، أبو محمد القرشي، المخزومي، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، ولد: لسنتين مضتا من خلافة عمر - ﵁ -، وكان زوج بنت أبي هريرة، وأعلم الناس بحديثه. توفي سنة ٩٤ هـ. انظر «السير» (٤/ ٢١٧).

وَالحَام: فَحْلُ الإِبِلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ المَعْدُودَ، فَإِذَا قَضَى ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيتِ، وَأَعْفَوْهُ مِنَ الحَمْلِ، فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَسَمَّوْهُ الحَامِيَ»[١].

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ أي لا يشرب لبنها إلا الضيف.

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وأنواع من الأنعام حرموا ركوبها .

﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ ويستبيحون أكل الميتة التي لم يسمى الله عليها ولم تذبح، ويفترون على الله ويقولون: «ذبحها الله» .

فأحدثوا في الدين، وحرموا أشياء لم يحرمها الله، ويتعبدون بهذه الأمور بترك الانتفاع بهذه الإبل وبعض الأغنام، وهي عبادات مبتدعة لم يشرعها الله، فلم يقبلها منهم .

***

وَكَذَلِكَ فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦-٣٣] .

موضع الشاهد من الآيات الكريمة أن الله تعالى ذم المشركين أنهم يفعلون الفواحش،

---

[١] أخرجه البخاري (٤٦٢٣).

والفاحشة هي الأمور التي قبحت وعظم قبحها، فمن ذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ويتعبدون لله بهذا -زعموا- ويقولون: «هذه ثياب عصينا الله فيها فلا نطوف فيها» أو يقولون: «هذه ثياب الحِلِّ لا نلبسها في الحرم» فإما أن يشتروا ثيابًا جديدة من الحرم أو يطوفوا عراة فيتعبدون لله بهذا الأمر الفاحش المنكر، والله تعالى يقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[الأعراف: ٣١] يعني استروا عورتكم عند كل صلاة، و«**الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ صَلَاةٌ**»[١]، فبَيَّن ﷺ أنهم تقربوا إلى الله تعالى بعبادات مبتدعة، ثم يزعمون أن الله أمرهم بها.

فإن قيل لهم: فأين البرهان على أن الله أمركم بها؟

يقولون: لو لم يشأها لما فعلناها، وطالما فعلناها فهي مشيئة الله؛ وطالما شاءها الله فهو أمر بها!! فهذه طريقتهم.

***

وَهَؤُلَاءِ قَدْ يُسَمُّونَ مَا أَحْدَثُوهُ مِنْ الْبِدَعِ «حَقِيقَةً»، كَمَا يُسَمُّونَ مَا يَشْهَدُونَ مِنْ الْقَدَرِ «حَقِيقَةً» .

وَطَرِيقُ الْحَقِيقَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ السُّلُوكُ الَّذِي لَا يَتَقَيَّدُ صَاحِبُهُ بِأَمْرِ الشَّارِعِ وَنَهْيِهِ، وَلَكِنْ بِمَا يَرَاهُ وَيَذُوقُهُ وَيَجِدُهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

يشير إلى طائفة من الجبرية، وبعض المتصوفة، ممن أشبه هؤلاء المشركين الذين ابتدعوا عبادات باطلة وحرموا أشياء مباحة، فهؤلاء قد أحدثوا عبادات يتعبدون بها ويسمون ما يشهدون من القدر «حقيقة»، فيقسمون الناس إلى: «أهل حقيقة وأهل

---

[١] أخرجه النسائي (٢٩٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» .

شريعة»، فأهل الشريعة هم العوام، وأهل الحقيقة هم صفوة المؤمنين.

فالعامي الذي يريد أن يكون من الصفوة الخواص، لابد أن يسلك طريقًا ؛ يكلفونه بعبادات قلبية وأعمال يعملها، حتى يصير من أهل الحقيقة، الذين إذا وصلوا إلى هذا المقام لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، فيصبح مستغنيًا عن التكاليف الشرعية مثل الصلاة والزكاة وغير ذلك.

قوله: «وَلَكِنْ بِمَا يَرَاهُ وَيَذُوقُهُ وَيَجِدُهُ» أي: يستبدلون الذوق والوجد بالشريعة التي تُعْلَمُ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[١] !!

فيقولون: «إن القلب يذوق طعم الشيء كما يذوقه اللسان، فكما أن القلب له بصر كبصر العين فالقلب كذلك يذوق طعم الأشياء ويجد كطعم الأشياء، ولكنه ذوق معنوي وليس حسيا، فالعين تبصر المحسوسات، والقلب يبصر المعنويات، فاللسان يتذوق المحسوسات ويجد طعمها، والقلب يتذوق المعنويات ويجد طعمها».

وخلاصة مسألة «الذوق والوجد» كما قرر شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله: إذا ذاق قلب الإنسان طعم الإيمان وحلاوة الصلاة والصيام والحج والعبادة وذاق حلاوة العبادات الشرعية وامتثال الأوامر وترك النواهي، ووجد طعمها الحلو في قلبه؛ فإن الذوق والوجد بهذه الطريقة محمود، ويدخل في قوله ﷺ: **«ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»**[٢]، وقوله ﷺ: **« ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ**

---

[١] الأصح لغة هو دخول الباء على المتروك لا على المأخوذ، وهي لغة القرآن وهي الأفصح، قال تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٦١]، وهناك لغة جائزة بالعكس، وهي الأشهر عند العامة استعملها شوقي في قوله:

أنا من بدل بالكتب الصحابا ... لم أجد لي صاحبا إلا الكتابا.

[٢] أخرجه مسلم (٣٤)، عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[١] .

فإذًا، الذوق والوجد يكون موافقًا للشريعة إذا وجد العبد حلاوة التمسك بالدين والعمل بالشريعة وحلاوة الطاعة؛ فيستبشر قلبه، ويجد مذاق المعصية مرًا فينفر عنه، فهنا يكون محمودًا ويكون عملًا من الأعمال القلبية المشروعة.

لكن المشكلة عند بعض المتصوفة أنهم عندهم غلو في هذا الباب؛ فيجعلون هذا الذوق والوجد في معارضة الشريعة، بمعنى أنه يبتدع أشياء من الدين ما أنزل الله بها من سلطان، وعندما تطالبه بدليل من الشرع على هذا فيكون دليله: أنه ذاق حلاوة هذه البدعة، ويشعر أنها عمل صالح ويترك شيئًا من الواجبات، ويفعل شيئًا من المحرمات، وعندما تعارضه بأدلة الشرع والآيات والأحاديث فيعارضك بالذوق والوجد فيصادم بأحاسيه القلبيةِ وذوقِهِ ووجدِهِ الشريعةَ، ويقدم ذوقَه ووجدَه على الشريعةِ عند التعارض فيقول: «الذوق والوجد لأهل الحقيقة الذين وصلوا إلى مقام لا يخاطَبون فيه بالأوامر والنواهي والأوامر الشرعية» فذوقهم ووجدهم هذا مقدم عندهم على الشرع .

تقول له: لم لا تصلي؟ والصلاة أمر الله بها، فيقول: «إنه من أهل الحقيقة وذاق حلاوة عبادة أخرى، وأنه يترك الصلاة لانشغاله بشيء آخر، وأنه وجد أن هذا أصلح لقلبه»

وهذا كله من تلبيس الشيطان، فقد يجد هذه المعاني في قلبه ويظن أنها وحي من الله وإلهام، لكنها في الحقيقة وحي من الشيطان وإلهام من الشيطان، لأنه كما قِيلَ

---

[١] أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) عن أنس ﷺ .

لابنِ عمر وابنِ الزبير رضي الله عنهم: «إِنَّ الْمُخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ[١] يَزْعُمُ أَنَّهُ يُنَزَّلُ إِلَيْهِ»، فَقَالا: «**صَدَقَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء٢٢١-٢٢٢]» .

وقيل لابن عباس رضي الله عنهما: «زَعَمَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّيْلَةَ»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «**صَدَقَ، هُمَا وَحْيَانِ: وَحْيُ اللهِ، وَوَحْيُ الشَّيْطَانِ، فَوَحْيُ اللهِ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَوَحْيُ الشَّيَاطِينِ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، ثُمَّ قَرأَ:** ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]» [٢].

فكل من وجد في قلبه إلهامات ويشعر أنه يوحى إليه في قلبه بأشياء تخالف الشريعة؛ فهذا من وحي الشيطان يوسوس له ويتلاعب به.

ولكن الذوق الإيماني والوجد الإيماني؛ هو الذي يكون موافقًا للشريعة، أن يذوق طعم الإيمان ويجد حلاوة في الصلاة، وحلاوة في الصيام، ويجد مرارة طعم المعصية فينفر عنها، مثلما اللسان يجد طعم الشيء الحلو حلوًا والشيء المر مرًا، فالشريعة هي بينت ما هو الحلو وما هو المر، فالقلب إذا كان ذوقه موافقًا للشريعة فهو ذوق سليم، أما الذوق الذي يخالف الشريعة فهو بمثابة اللسان المريض، يذوق الماء فيجد طعمه مرًا بسب المرض، فالعيب ليس في الماء ولكن في مرض اللسان، وربما يذوق طعم الشيء المر ويجده حلوًا، ولكن هذا بسبب مرض لسانه، فكذلك القلب المريض أيضًا بمرض الشبهات والشهوات وتلاعب الشيطان به،فيختلط عليه الذوق فينفر من الطاعة ويجد حلاوة للمعصية ثم يعارض هذا بالشريعة، فكل هذا مما أشبه فيه المشركين الذين

---

[١] سبقت ترجمته ص ٦٦ .

[٢] تقدم تخريج الأثرين ص ٦٦.

ابتدعوا في الدين مما لم ينزل به الله سلطانًا، ثم ادعوا أن هذه مشيئة الله وقدرة الله وأن الله أمرهم بها.

وَهَؤُلَاءِ لَا يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ مُطْلَقًا، بَلْ عُمْدَتُهُمُ اتِّبَاعُ آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَجَعْلُهُمْ لِمَا يَرَوْنَهُ وَيَهْوَوْنَهُ حَقِيقَةً، وَأَمْرُهُمْ بِاتِّبَاعِهَا دُونَ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ، نَظِيرَ بِدَعِ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَقَائِقَ عَقْلِيَّةً يَجِبُ اعْتِقَادُهَا دُونَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السَّمْعِيَّاتُ.

هؤلاء لا يتبعون الشرع، ولكن يتبعون ما تهواه نفوسهم وتراه عقولهم، ويقولون: «هذه هي الحقيقة» ويأمرون أتباعهم بسلوكها واتباعها، فليس المعيار على صحة الشيء أو بطلانه الآيات والأحاديث، وإنما يجعلون المعيار هو آراء الشيوخ وأهواء الشيوخ ممن تلاعب بهم الشيطان وأوحى إليهم وأراهم الحق باطلًا، والباطل حقًّا.

فحال هؤلاء كحال الجهمية وأمثالهم من أهل البدع، الذين اعتقدوا اعتقادات باطلة ثم ادعوا أنها حقائق عقلية- أي: العقل يقطع بصحتها-، فإذا جئتهم بحديث يخالف معتقدهم الباطل؛ يردونه لأنه يعارض الحقيقة العقلية عندهم.

فالجبرية وطائفة من المتصوفة جعلوا الذوق والوجد حقيقة وعارضوا بها السمعيات - أي الكتاب والسنة- والجهمية وغيرهم جعلوا الآراء والعقول حقيقة وعارضوا بها السمعيات.

ثُمَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ: إِمَّا أَنْ يُحَرِّفُوهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ!! وَإِمَّا أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ

فَلَا يَتَدَبَّرُونَهُ وَلَا يَعْقِلُونَهُ!! بَلْ يَقُولُونَ: «نُفَوِّضُ مَعْنَاهُ إِلَى اللَّهِ» مَعَ اعْتِقَادِهِمْ نَقِيضَ مَدْلُولِهِ.

يبين ﵀ أن موقف هؤلاء الذين قالوا إنهم من أهل الحقيقة وتركوا الشريعة من الكتاب السنة أحد أمرين:

الأول: «**إِمَّا أَنْ يُحَرِّفُوهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ**» أي: يثبتون اللفظ ولكن يحرفون المعنى عن موضعه فيفسرون الآيات والأحاديث تفسيرًا يعارض التفسير المأثور عن النبي ﷺ وصحابته، الذين أمرنا باتباعهم والسير على نهجهم.

الثاني: «**أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ فَلَا يَتَدَبَّرُونَهُ وَلَا يَعْقِلُونَهُ**»، فبعضهم لا يقرأ القرآن ولا السنة أبدًا، وبعضهم لا يقرأ القرآن ولا السنة قراءة تدبر وتعقل؛ بل يجعلونه مثل الطلاسم التي لا معنى لها، فكأنهم يقرؤون كلامًا أعجميًا بلغة لا يفهمونها، فيقولون: «**نُفَوِّضُ مَعْنَاهُ إِلَى اللَّهِ**»!!

مَعَ اعْتِقَادِهِمْ نَقِيضَ مَدْلُولِهِ، فيعتقدون عكس ما دل عليه الكتاب والسنة .

فكان تفويضهم للمعنى إلى الله وسيلةً للتهرب من العمل بالكتاب والسنة.

* * *

وَإِذَا حُقِّقَ عَلَى هَؤُلَاءِ مَا يَزْعُمُونَهُ مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وُجِدَتْ جَهْلِيَّاتٍ وَاعْتِقَادَاتٍ فَاسِدَةً.

وَكَذَلِكَ أُولَئِكَ إِذَا حُقِّقَ عَلَيْهِمْ مَا يَزْعُمُونَهُ مِنْ حَقَائِقِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وُجِدَتْ مِنْ الْأَهْوَاءِ الَّتِي يَتَّبِعُهَا أَعْدَاءُ اللَّهِ لَا أَوْلِيَاؤُهُ.

إذا حققت هذه الأمور التي يسمونها: «حقائق» أو «عقليات» وجدتها جهليات

ليست من الحقيقة في شيء .

قوله: «**مِنْ حَقَائِقِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ**» هم يظنون أن الولي يمكن أن يكون مخالفًا للشريعة، وهؤلاء الذين خالفوا الشريعة يسمونهم أولياء الله.

والله تعالى بيَّن لنا في كتابه الكريم مَن هو الولي، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢-٦٣] .

والتقوى معناها: «فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه» فلا يمكن للعبد أن يكون متقيًا وهو لا يفعل ما أمر الله به، ولا يترك ما نهى الله عنه .

ولما ذكر النبيُّ ﷺ الأولياءَ قال: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ...**»[١] .

فبيَّن أن أولياء الله هم الذين يتقربون إليه بالفرائض والنوافل، فلا يمكن للعبد أن يترك ما فرض الله عليه، ويتبع بدعًا وأحوالًا قلبية لم يفترضها الله عليها، ثم يزعم أنه يتقرب إلى الله.

إذًا، الولي في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو المتبع للشريعة، الذي يتقي الله ويؤدي الفرائض، ويتقرب إلى الله بالنوافل.

فإذا أتوا بأناس خالفوا الشريعة ثم زعموا أن ذوقهم هو حقائق أولياء الله المخالفة للكتاب والسنة؛ «**وُجِدَتْ مِنْ الْأَهْوَاءِ الَّتِي يَتَّبِعُهَا أَعْدَاءُ اللَّهِ لَا أَوْلِيَاؤُهُ**» يعني إذا حققت القول ففتشت فيها وبحثت عنها؛ ستجد أنها من أهواء أعداء الله، وليست

[١] أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

من حقائق أولياء الله، فأي حقيقة تدعو إلى ترك الصلاة وترك الصيام والاستهانة بفعل المحرمات وترك الواجبات؟ هي أهواء أعداء الله، وليست حقائق أولياء الله .

❊ ❊ ❊

وَأَصْلُ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ؛ هُوَ بِتَقْدِيمِ قِيَاسِهِ عَلَى النَّصِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَاخْتِيَارِهِ الْهَوَى عَلَى اتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ الذَّوْقَ وَالْوَجْدَ وَنَحْوَ ذَلِكَ هُوَ بِحَسَبِ مَا يُحِبُّهُ الْعَبْدُ، فَكُلُّ مُحِبٍّ لَهُ ذَوْقٌ وَوَجْدٌ بِحَسَبِ مَحَبَّتِهِ.

يبين أن كلمة «الذوق والوجد» التي يعارضون بها النصوص قد يكون ذوقًا إيمانيًا وقد يكون ذوقًا باطلًا؛ لأن الذوق والوجد يكون بحسب حال الإنسان وما يهواه ويحبه، فكما أن ذوق القلب شُبِّه بذوق اللسان؛ فيمكن لطعام يتذوقه شخص ويجده حلوًا وتشتهيه نفسه، وشخص آخر يتذوقه فينفر منه طبعه ولا تشتهيه نفسه ولا يجد له حلاوة؛ لأن نفسه لا تحب هذا الطعام ولا تشتهيه ولا تهواه -مثلا- في الصين يتلذذون بأكل الحشرات والديدان- أكرمكم الله- تهواه نفوسهم ويجدون لها حلاوة ومذاقًا، بينما غيرهم ينفر منها طبعه ويجد لها مرارة ونفرة في طبعه، وبالعكس قد يكون طعامًا شهيًّا تشتهيه وتميل إليه نفسك، وغيرك ينفر طبعه منه.

فكذلك مسألة ذوق القلب، لا يمكن أن نجعلها مقياسًا نحكم به على الشريعة، لأن الذوق هذا يختلف باختلاف الأشخاص، فهذا يحب الفسق والفساد فيذوق طعم الخمر والزنا وترك الصلاة ويجد هذا حلوًا، ويتذوق العبادة والطاعة فيجد مرارة فينفر طبعه.

لذلك لا يمكن أن نجعل هذا الذوق حكمًا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

❊ ❊ ❊

فَأَهْلُ الْإِيمَانِ لَهُمْ مِنَ الذَّوْقِ وَالْوَجْدِ مِثْلُ مَا بَيَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»[١].

وَقَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا»[٢].

هذا هو الذوق الإيماني المحمود الذي عليه أهل الإيمان.

وقوله ﷺ: «وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّار».

يقول بعض شراح الحديث: «هذا يشمل من كان كافرًا فأسلم، ويشمل كذلك من ولد على الإسلام ونشأ عليه فهو يكره أن يعود في الكفر- أي: أن يصير إليه -إذ نجاه الله من الكفر فلم يكتبه عليه»[٣]، فـ «عاد» قد تأتي بمعنى صار[٤].

وفي الحديث الأول قال: «**وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ**»، وفي الحديث الثاني قال: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ**»، فأي المرتبتين أعلى؟

الإمام ابن القيم رحمه الله له كلام كثير في «مدارج السالكين»[٥] على منزلة الوجد ومنزلة

---

[١] تقدم تخريجه ص ١٣٦.

[٢] تقدم تخريجه ص ١٣٥.

[٣] انظر «شرح رياض الصالحين» للعثيمين، (٣/ ٢٦٠)، ط / دار الوطن - الرياض، ١٤٢٦ هـ.

[٤] ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾[يس]، «عاد بمعنى صار شكله للرائي كالعرجون، والعرجون: العود الذي تخرجه النخلة فيكون الثمر في منتهاه» [التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٢].

[٥] «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، وهو شرح لكتاب «منازل السائرين» للإمام =

الذوق، ورد على شيخ الإسلام الهروي[١] رحمه الله قوله: «إن الذوق أعلى من الوجد» .

قال ابن القيم رحمه الله: «لَكِنَّ جَعْلَهُ الذَّوْقَ أَبْقَى مِنَ الْوَجْدِ وَأَعْلَى مِنْهُ؛ فِيهِ نَظَرٌ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَعَلَ الْوَجْدَ فَوْقَ الذَّوْقِ وَأَعْلَى مَنْزِلَةً مِنْهُ، فَإِنَّهُ قَالَ «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ» الْحَدِيثَ، وَقَالَ فِي الذَّوْقِ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ»، فَوَجْدُ حَلَاوَةِ الشَّيْءِ الْمَذُوقِ أَخَصُّ مِنْ مُجَرَّدِ ذَوْقِهِ».

أي يمكن أنه ذاق لكن لم يجد حلاوته؛ لخلل في طبعه أو في لسانه، وهناك من ذاق الشيء ووجد حلاوته، فهذا أعلى، فَوَجْدُ الحلاوة زيادة على مجرد الذوق- يعني: حصل التذوق وزاد عليه فوجد الحلاوة - .

ثم قال رحمه الله:«وَلَمَّا كَانَتِ الْحَلَاوَةُ أَخَصَّ مِنَ الطَّعْمِ: قَرَنَ بِهَا الْوَجْدَ الَّذِي هُوَ أَخَصُّ مِنْ مُجَرَّدِ الذَّوْقِ، فَقَرَنَ الْأَخَصَّ بِالْأَخَصِّ، وَالْأَعَمَّ بِالْأَعَمِّ».

يعني: الطّعم قد يكون حلاوةً أو مرارةً أو حموضةً على أنواع الطعوم الكثيرة، والحلاوة نوع خاص من الطعم، فالحلاوة أخص من الطعم؛ فَقُرن بها الوجد الذي هو

= الهروي رحمه الله.ومدارج السالكين سفرٌ عظيم النفع، غزير الفائدة، جلى فيه منهج أهل السنة في مسائل أعمال القلوب، وتفاوت العاملين بسببها: كمالا ونقصًا، اتباعًا وابتداعًا.وتحدث فيه بإسهاب عن العبادة ومنازلها، ووصف السائرين إلى الله، فتكلم على أنواع التوحيد، ورد على أهل البدع، وتناول مسائل السلوك، ورد على الصوفية وبين أصنافهم ومقالاتهم، والمعتدل منهم والساقط، بأسلوب علمي، وأدب لفظي لا شطط فيه ولا اعتداء، فبالجملة؛ هو أفضل ما ألف وكتب في هذا الباب.[انظر: مقدمة مدارج السالكين، ط / دار الصميعي - السعودية ١٤٣٢ هـ]

[١] شيخ الإسلام، الإمام، القدوة، الحافظ الكبير، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، ولد سنة ٣٩٦، كان سيفا مسلولا على المتكلمين، له صولة وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده، امتحن مرات، وأوذي، ونفي من بلده.قال ابن طاهر: سمعته يقول: عرضت على السيف خمس مرات، لا يقال لي: «ارجع عن مذهبك»، لكن يقال لي: «اسكت عمن خالفك»، فأقول: «لا أسكت».توفي سنة ٤٨١. انظر: «السير» (١٨/ ٥٠٣) .

أخص من مجرد الذوق، فقرن الأخص بالأخص والأعم بالأعم.

ثم قال رحمه الله: «**وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِوَجْدِ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ: الْوَجْدَ الَّذِي هُوَ لَهِيبُ الْقَلْبِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْدَرُ وَجَدَ بِالشَّيْءِ وَجْدًا، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْوُجُودِ الَّذِي هُوَ الثُّبُوتُ. فَمَصْدَرُ هَذَا الْفِعْلِ: الْوُجُودُ وَالْوِجْدَانُ، فَوَجَدَ الشَّيْءَ يَجِدُهُ وِجْدَانًا: إِذَا حَصَلَ لَهُ وَثَبَتَ، كَما يَجِدُ الْفَاقِدُ الشَّيْءَ الَّذِي بَعُدَ مِنْهُ**».

يعني: ليس المراد بالوجد: «وجد بالشيء وجدًا يعني لهيب القلب»، وإنما المراد: «وجد الشيء وجودًا بمعنى الوجود» ؛ فـ «**وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ**» مثل الذي بَعُدَ منه شيء وفقده ثم وجده.

ثم قال رحمه الله: «**وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور: ٣٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْوُجُودِ وَالثُّبُوتِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ» فَوِجْدَانُ الشَّيْءِ: ثُبُوتُهُ وَاسْتِقْرَارُهُ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ ذَوْقَ طَعْمِ الْإِيمَانِ وِجْدَانٌ لَهُ، إِذْ يَمْتَنِعُ حُصُولُ هَذَا الذَّوْقِ مِنْ غَيْرِ وِجْدَانٍ، وَلَكِنَّ اصْطِلَاحَ كَثِيرٍ مِنَ الْقَوْمِ عَلَى أَنَّ الذَّائِقَ أَخَصُّ مِنَ الْوَاجِدِ، فَكَأَنَّهُ شَارَكَ الْوَاجِدَ فِي الْحُصُولِ، وَامْتَازَ عَنْهُ بِالذَّوْقِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَجِدُ الشَّيْءَ وَلَا يَذُوقُهُ الذَّوْقَ التَّامَّ، وَهَذَا لَيْسَ كَما قَالُوهُ، بَلْ وُجُودُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ لِلْقَلْبِ: ذَوْقٌ لَهَا وَزِيَادَةٌ، وَثُبُوتٌ وَاسْتِقْرَارٌ**»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله عن الوجد: «وَهِيَ أَعْلَى ذُرْوَةِ مَقَامِ الْإِحْسَانِ، فَمِنْ مَقَامِ الْإِحْسَانِ يَرْقَى إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ إِذَا غَلَبَ عَلَى قَلْبِهِ مُشَاهَدَةُ مَعْبُودِهِ، حَتَّى كَأَنَّهُ يَرَاهُ - وَتَمَكَّنَ فِي ذَلِكَ - صَارَ لَهُ مَلَكَةً أَخْمَدَتْ أَحْكَامَ نَفْسِهِ، وَتَبَدَّلَ بِهَا أَحْكَامًا أُخَرَ، وَطَبِيعَةً ثَانِيَةً، حَتَّى كَأَنَّهُ

---

[١] مدارج السالكين، صـ ٢٩٥١ .

أُنْشِئَ نَشْأَةً أُخْرَى غَيْرَ نَشْأَتِهِ الْأُولَى، وَوُلِدَ وِلَادًا جَدِيدًا.

وَمِمَّا يُذْكَرُ عَنِ الْمَسِيحِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَنْ تَلِجُوا مَلَكُوتَ السَّمَاءِ حَتَّى تُولَدُوا مَرَّتَيْنِ**».

سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ رحمه الله يَذْكُرُ ذَلِكَ وَيُفَسِّرُهُ بِأَنَّ الْوِلَادَةَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: هَذِهِ الْمَعْرُوفَةُ.

وَالثَّانِيَةُ: وِلَادَةُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَخُرُوجُهُمَا مِنْ مَشِيمَةِ النَّفْسِ، وَظُلْمَةِ الطَّبْعِ»[١].

***

وَأَمَّا أَهْلُ الْكُفْرِ وَالْبِدَعِ وَالشَّهَوَاتِ فَكُلٌّ بِحَسْبِهِ.

قِيلَ لِسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ[٢]: «مَا بَالُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لَهُمْ مَحَبَّةٌ شَدِيدَةٌ لِأَهْوَائِهِمْ؟»، فَقَالَ: «أَنَسِيتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[البقرة: ٩٣]» أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ؟

المؤمن يذوق طعم الإيمان ويجد حلاوته، وأهل الكفر والشهوات يذوقون طعم الكفر ويجدون حلاوة الكفر، وغصة بالطاعة .

ولذلك لما قيل لسفيان ابن عيينة رحمه الله: «**مَا بَالُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لَهُمْ مَحَبَّةٌ شَدِيدَةٌ لِأَهْوَائِهِمْ؟**»، يعني لماذا نرى كل فرقة من أهل الأهواء والبدع المختلفة، يحبون

---

[١] السابق (٢٩٠٧).

[٢] الإمام الكبير، حافظ العصر، شيخ الإسلام، أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي، ولد بالكوفة سنة ١٠٧، وأخذ العلم عن الأكابر، وانتهى إليه علو الإسناد، ورحل إليه من البلاد، من أشهر تلامذته: الشافعي، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وعبد الله بن المبارك، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى القطان، توفي سنة ١٩٨ هـ بمكة . انظر: «السير» (٨/ ٤٥٤) .

بدعتهم محبة شديدة وينشرونها ويدافعون عنها؟

قال: «**أَنَسِيتَ قَوْلَهُ تَعَالَى:** ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾يعني محبة العجل غمرت قلوبهم كالإسفنجة إذا تشربت الماء، فالإسفنجة إذا غمست في حليب أو ماء نظيف أو ماء قذر أو نجس ... فهي تتشرب بما انغمست فيه، وكذلك القلب.

واستشهاد شيخ الإسلام ﷺ بكلام سفيان ابن عيينة ﷺ؛ ليدل على أن كون الشخص يحب شيئًا ويجد له حلاوة في قلبه ليس علامة على أن هذا الشيء حق أو باطل، فالقلب مثل الإسفنجة، يتشرب ما غُمِر فيه، فيصير محبًا لما تشربه ومتعلقًا به، فلا يكون القلب حَكَمًا على الدين و الشريعة، ما أحبه فهو حق، وما خالفه من الدين فهو باطل.

بل الشريعة هي الميزان الذي يحكم على ما في قلبه أحق أم باطل، ليس العكس فلا نزن الشريعة بأهواء الناس وما تحبه قلوبهم وتهواه نفوسهم.

***

فَعُبَّادُ الْأَصْنَامِ يُحِبُّونَ آلِهَتَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥] .

فسرت الآية بتفسيرين:

الأول: أن المشرك يحب الله ويحب آلهته ويساوي آلهته بالله، ولكن المؤمنين حبهم لله أشد من حبهم لغير الله، يعني من الأمور التي تحبها نفوسهم محبة طبيعية، فالمؤمنون لا يحبون آلهة تعبد من دون الله كمحبة المشركين الشركية، ولكن يحب المؤمنون بعض المباحات محبة طبيعية، ومع ذلك فمحبة المؤمن لله أعظم من محبته لأي شيء آخر تهواه نفسه، فعند تعارض المحبة الطبيعية مع ما يحبه الله؛ فإنه يؤثر ما

يحبه الله على هوى نفسه، بدليل أن المؤمن يصوم رمضان، رغم أن نفسه تحب الطعام وتكره الجوع والعطش، ولكن لما علم أن الله يحب منه أن يجوع ويعطش؛ فإنه يصوم ليؤثر محبوب الله على محبوب نفسه[١].

التفسير الثاني: أن المشركين يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله، ولكن المؤمنين أشد حبًا لله من حب المشركين لآلهتهم الباطلة[٢].

فلو أخذنا بهذا؛ فمعناه أن ميل القلب إلى معبود أو متبوع، أشرب حبه في قلبه؛ ليس علامة على أنه على حق، فذوق القلب تابع لمحبة العبد، والمحبة قد تكون محبة باطلة كفرية،وقد تكون دينية شرعية.

❊ ❊ ❊

وَقَالَ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وَقَالَ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ﴾ [النجم: ٢٣].

وَلِهَذَا يَمِيلُ هَؤُلَاءِ إِلَى سَمَاعِ الشِّعْرِ وَالْأَصْوَاتِ الَّتِي تُهَيِّجُ الْمَحَبَّةَ الْمُطْلَقَةَ الَّتِي لَا تَخْتَصُّ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ، بَلْ يَشْتَرِكُ فِيهَا مُحِبُّ الرَّحْمَنِ، وَمُحِبُّ الْأَوْثَانِ، وَمُحِبُّ الصُّلْبَانِ وَمُحِبُّ الْأَوْطَانِ، وَمُحِبُّ الْإِخْوَانِ، وَمُحِبُّ الْمُرْدَانِ، وَمُحِبُّ النِّسْوَانِ.

قوله: «الْمُرْدَانِ» هو الشاب الذي لم ينبت شعر وجهه[٣].

---

[١] انظر أنواع المحبة، صـ ١٥١ .

[٢] انظر: «تفسير القرطبي» (٣/ ٥)، ت/ عبد الله التركي، ط / الرسالة - بيروت، ٢٠٠٦.

[٣] **قال الفراء**: «الأمرد في كلام العرب: الذي خداه أملسان لا شعر فيهما. أخذ من قول العرب: شجرة مرداء: إذا سقط ورقها عنها. ويقال: تمرَّد الرجل: إذا أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه» [الزاهر في معاني =

يقول: تجد هؤلاء يحبون سماع الأغاني والأشعار والمعازف والألحان التي تهيج المحبة، كالتغزل بالمحبوب، أو التألم لفراق المحبوب، أو الحرص على القرب من المحبوب، فهؤلاء بمجرد ما يسمعون ما يُهيج المحبة، فكل من يسمعها كمحبي الصلبان، أو محب الأوطان، أو محب النسوان، كل يفسرها بحسب محبوبه.

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتْبَعُونَ أَذْوَاقَهُمْ وَمَوَاجِيدَهُمْ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ.

فَالْمُخَالِفُ لَمَّا بُعِثَ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ؛ لَا يَكُونُ مُتَّبِعًا لِدِينٍ شَرَعَهُ اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾[الجاثية].

بَلْ يَكُونُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[الشورى: ٢١].

وَهُمْ فِي ذَلِكَ تَارَةً يَكُونُونَ عَلَى بِدْعَةٍ يُسَمُّونَهَا «حَقِيقَةً» يُقَدِّمُونَهَا عَلَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ.

وَتَارَةً يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ الْكَوْنِيِّ عَلَى الشَّرِيعَةِ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ كَمَا تَقَدَّمَ.

= كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري (١/ ١٥٥)، ط / الرسالة - بيروت، ١٩٩٢، ت/ حاتم صالح الضامن].

خلاصة هذا الكلام: أن المؤلف ﷺ يقرر أنه لا يمكن تحكيم ذوق القلب ووجد القلب على الكتاب والسنة؛ لأنه لا معيار له إلا ما تحبه النفوس وتشتهيه، فقد تحب الخير وقد تحب الشر، وقد تحب الطاعة وقد تحب المعصية، وقد تحب الله وقد تحب معبودًا غير الله.

بل ما تذوقه القلوب وتجده يوزن بالكتاب والسنة، فإن وافق الكتاب والسنة فهذه علامة على سلامة هذا القلب وصحته، وإن خالف لكتاب والسنة، فهو علامة على مرض القلب.

ثم ذكر أن هؤلاء أحيانا يبتدعون بدعة، فيقولون: «إنهم ذاقوا حلاوتها» فيزيدونها في الدين،

وأحيانًا يفعلون معصية فيحتجون بالقدر على فعل هذه المعصية.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ طَائِفَةٌ هُمْ أَعْلَاهُمْ قَدْرًا وَهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِالدِّينِ فِي أَدَاءِ الْفَرَائِضِ الْمَشْهُورَةِ، وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَشْهُورَةِ، لَكِنْ يَغْلَطُونَ فِي تَرْكِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ عِبَادَةٌ.

هنا يذكر الطائفة الثالثة من الذين يشهدون الحقيقة الكونية ويقدمونها على الشرعية[١].

فقال: «**هُمْ أَعْلَاهُمْ قَدْرًا وَهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِالدِّينِ فِي أَدَاءِ الْفَرَائِضِ الْمَشْهُورَةِ، وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَشْهُورَةِ**» أي: فيهم تعبد وصلاح، ولا يعتقدون أن هناك

[١] انظر الطائفة الأولى صـ ١١١، والطائفة الثانية صـ ١١٥ .

درجة يرتفع فيها التكليف، بل يقولون: إن الإنسان مهما بلغ قدره ومنزلته في الدين فهو مكلف بالتكاليف الشرعية، ومطالب بالأوامر وترك النواهي.

و لكن غلط هؤلاء **«فِي تَرْكِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ عِبَادَةٌ»** يعني يشهدون الحقيقة الكونية في مسألة ترك الأخذ بالأسباب، فتجد أحدهم يترك الأخذ بأسباب الكسب، محتجًا بالقدر فيقول: «الرزق بيد الله وإذا شاء الله تعالى أن يرزقنا لرزقنا»، أو يترك التداوي والعلاج تدينًا وتقربًا إلى الله بذلك، ويقول: «الشفاء بيد الله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾[الشعراء]»[١].

والأسباب نوعان: أسباب شرعية، وأسباب مادية:

فالأسباب الشرعية: مثل الدعاء، والتوكل على الله، والتقوى، والاستغفار

والأسباب المادية: كالسعي والتداوي والمذاكرة.

ففي الكسب -مثلًا- هناك الأسباب الشرعية:

كالتقوى والتوكل؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق: ٢-٣].

والاستغفار؛ قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[نوح]، وقال النبي ﷺ: **«مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»**[٢].

---

[١] سبق الرد على هذه الشبهة تفصيلًا.

[٢] أخرجه أحمد (٢٢٣٤)، وأبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والحج والعمرة؛ قال النبي ﷺ: «تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَما يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ»[١].

وهناك الأسباب المادية: كأن يتعلم الإنسان علمًا ويعمل عملًا، أو يتعلم حرفة ويعمل بها، كما كان أنبياء الله -صلوات الله عليهم- يعملون، فمنهم النجار، ومنهم الحداد، وكانوا يرعون الغنم،وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[الجمعة: ١٠].

ظَانِّينَ أَنَّ الْعَارِفَ إِذَا شَهِدَ «الْقَدَرَ» أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ، مِثْلُ مَنْ يَجْعَلُ التَّوَكُّلَ مِنْهُمْ، أَوْ الدُّعَاءَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَامَّةِ دُونَ الْخَاصَّةِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَنْ شَهِدَ الْقَدَرَ عَلِمَ أَنَّ مَا قُدِّرَ سَيَكُونُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ.

يعني بعضهم لا يكتفي بترك الأسباب المادية، بل حتى الأسباب الشرعية يتركها مثل التوكل والدعاء

فهو إن كان مريضًا؛ فمع تركه للأسباب المادية، يترك أيضًا السبب الشرعي، فلا يدعو الله أن يشفيه ويترك التوكل الاعتماد على الله وتفويض الأمر له

والتوكل حتى يكون صحيحًا فلابد من الأخذ بالأسباب المادية، ولذلك لما قال رجلٌ للنبي ﷺ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟» قَالَ: «اعْقِلْهَا

---

[١] ورد من حديث عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعمر بن الخطاب، وجابر ابن عبد الله، انظر تخريجه في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٠).

وَتَوَكَّلْ»[١]، ولما أراد النبي ﷺ الخروج في غزوة أحد «**ظَاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ**»[٢] يعني لبس درعًا فوق درع، أخذًا بالسبب وهو توقي ضربات الأعداء.

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فكان النبي ﷺ يأخذ بالسبب المادي، فيجهز الجيوش ويعد السلاح ويدرب الجند، ويأخذ بالسبب الشرعي من دعاء وتضرع إلى الله.

فهؤلاء تركوا الأسباب المادية والشرعية لاعتقادهم أن هناك عوام وخواص:

فالعوام هم الذين يأخذون بالأسباب المادية والشرعية.

وأما الخواص فشهدوا الحقيقة الكونية القدرية أن كل شيء بقدر الله فاستغنوا عن هذه الأسباب «**بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَنْ شَهِدَ الْقَدَرَ عَلِمَ أَنَّ مَا قُدِّرَ سَيَكُونُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ**» يعني: يقولون: «إن من شهد القدر علم أن ما قُدِّرَ سيكون؛ فلا حاجة للدعاء وغيره».

***

وَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ، فَإِنَّ اللهَ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابِهَا كَمَا قَدَّرَ السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ بِأَسْبَابِهَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»[٣] .

---

[١] أخرجه الترمذي (٢٥١٧) عن أنس رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

[٢] أخرجه الترمذي في «الشمائل» (١٠٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٥٨٣)، وابن ماجه (٢٨٠٦) عن السائب بن يزيد رضي الله عنه.

[٣] رواه مسلم (٢٦٦٢) عن عائشة رضي الله عنها.

وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَـمَّا أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْـمَقَادِيرَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَدَعُ الْعَمَلَ وَنَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ؟ فَقَالَ: «لَا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»[١] .

يبين شيخ الإسلام هنا أن الأسباب كلها من باب واحد، فيقول لهم: طالما أنكم وفقكم الله لفعل الطاعة وترك المعصية؛ وهما سبيل لدخول الجنة، فلماذا لم تحتجوا بالقدر وتقولوا: لو شاء الله أن يُدخِل العبد الجنة أدخله، ولو شاء الله أن يدخله النار أدخله -عياذا بالله- سواء أطاع أم عصى.

فهناك ناس ضلوا وتركوا التكاليف احتجاجًا بالقدر؛ فتركوا فعل الطاعة وترك المعصية احتجاجا بالقدر، فهؤلاء أخذوا بالشرع في فعل الطاعة وترك المعصية، مع أن فعل الطاعة وترك المعصية هو من الأسباب، ولكن تركوا الأخذ بأسباب أخرى مثل الدعاء والتوكل ...

فكل الأسباب هذه باب واحد، كما أنك تطيع الله أخذًا بالسبب مع علمك أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن أهل الجنة قد كتبهم الله وقدَّر من هم ومع ذلك أنت تأخذ بالسبب لتكون من أهل الجنة، وكذلك أيضًا خُذ بالسبب المادي والشرعي في الشفاء والرزق ...إلخ.

فالتوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتماد على المسبب وهو الله ﷻ مع ترك الاعتماد على السبب، ولما سأل الصحابة النبي ﷺ: «**أَفَلَا نَدَعُ الْعَمَلَ وَنَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ**» طالما أهل الجنة قد كتبهم الله وأهل النار قد كتبهم الله فلماذا العمل؟؟ فقال:

---

[١] أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

أهل السعادة سيُيَسّرون لعمل أهل الجنة، اعمل بعمل أهل الجنة وسييسر الله لك عمل أهل الجنة طالما كتبك من أهل الجنة، وأهل النار سيُيَسّرون لعمل أهل النار ويسهل عليهم عمل أهل النار ويسيرون في ذلك الطريق .

***

فَكلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنْ الْأَسْبَابِ فَهُوَ عِبَادَةٌ، وَالتَّوَكُّلُ مَقْرُونٌ بِالْعِبَادَةِ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾[هود: ١٢٣].

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾[الرعد: ٣٠] .

التوكل مع التوبة، يعني هو يتوب إلى الله ويتوكل على الله، يعني يعتمد على الله في قبول التوبة وتوفيقه لها وقبوله إياها.

***

وَقَوْلِ شُعَيْبٍ عليه السلام: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[هود: ٨٨] .

يعني أنيب إليه، أي أرجع إليه متوكلًا عليه معتمدًا عليه.

فإذًا، جمع الله تعالى بين العبادة والتوكل، فالعبادة ليس من لوازمها ترك التوكل، بل الإنسان يعبد الله ويتوكل على الله تعالى في أن عبادته تقبل وتنفعه عند الله، وتكون سببًا في دخوله الجنة.

فهو لا يعتمد على عمله بل يعتمد على رحمة الله تعالى.

***

وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ قَدْ تَتْرُكُ الْمُسْتَحَبَّاتِ مِنْ الْأَعْمَالِ دُونَ الْوَاجِبَاتِ، فَتَنْقُصُ بِقَدْرِ ذَلِكَ.

هذه هي الطائفة الرابعة من الذين يحتجون بالقدر ويشهدون الحقيقة القدرية، وهؤلاء لا يحتجون بالقدر في فعل حرام أو ترك واجب، ولكن يحتجون بالقدر في ترك مستحب، يعني يؤدي الواجبات ويترك المحرمات ولكن يتهاون في الأخذ بالمستحبات، وإذا سئل: لماذا لا تسارع إلى الخيرات، وتتنفل بأنواع النوافل والقربات؟ فيحتج بالقدر ويقول: هذه مشيئة الله ولو قدر الله هذا لي لفعلته.

وقد مر حديث علي ﵁ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ لَيْلَةً، فَقَالَ: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟»** فَقُلْتُ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ:** ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف: ٥٤]» [١].

فقراءة النبي ﷺ للآية فيها عتاب لعلي ﵁ أنه احتج بالقدر على ترك المستحب، وجَعل القدر عذرًا في ترك المندوب.

فمعناه أن الإنسان لا يصح له أن يحتج بالقدر على ترك المستحبات، فينبغي للإنسان أن يلوم نفسه على ترك المستحبات لومًا محمودًا يدفعه إلى فعله.

❊ ❊ ❊

وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ يَغْتَرُّونَ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ خَرْقِ عَادَةٍ مِثْلِ مُكَاشَفَةٍ، أَوْ اسْتِجَابَةِ دَعْوَةٍ مُخَالِفَةٍ لِلْعَادَةِ الْعَامَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَشْتَغِلُ أَحَدُهُمْ عَمَّا أُمِرَ بِهِ مِنْ الْعِبَادَةِ

---

[١] رواه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

وَالشُّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ الْأُمُورُ وَنَحْوُهَا كَثِيرًا مَا تَعْرِضُ لِأَهْلِ السُّلُوكِ وَالتَّوَجُّهِ، وَإِنَّمَا يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْهَا بِمُلَازَمَةِ أَمْرِ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

كَمَا قَالَ الزُّهْرِيُّ[١]: «كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ سَلَفِنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ».

وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ - كَمَا قَالَ مَالِكٌ رحمه الله -: «مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ».

هذه هي الطائفة الخامسة والأخيرة من الذين يحتجون بالقدر ويعارضون الحقيقة الشرعية بالحقيقة الكونية، أو يشهدون الحقيقة الكونية ويعارضون بها الشرعية وهم المغترون بالمكاشفات واستجابة الدعوات ونحوها من الكرامات.

والمكاشفات هي نوع من أنواع كرامات الأولياء، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء، وإثبات ما صح منها.

والولي كما عرفه الله بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

فأهل السنة يثبتون ما صح من هذه الكرامات، كالتي جاءت في القرآن الكريم أو في السنة النبوية أو فيما روي بالأسانيد الصحيحة في الآثار، فما ثبت من الكرامات أثبتناه وآمنا به، ولا نرده لأنه يخالف العادة .

فمن كرامات الأولياء التي في كتاب الله:

---

[١] محمد بن مسلم، ابن شهاب الزهري، حافظ زمانه، توفي سنة ١٢٤ انظر «السير» (٥/ ٣٢٦) .

قوله تعالى عن مريم، ومريم صديقة يعني ليست نبية؛ لأن النبوة في الرجال عند جماهير أهل العلم، ومع ذلك قال الله تعالى عنها: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾[آل عمران: ٣٧]. كانت تتعبد في محراب المسجد الأقصى، في خلوة ليس عندها أحد يأتيها بطعام ولا بشيء، وزكريا عليه السلام -وهو زوج خالتها أو زوج أختها قولان للمفسرين - كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا، قال المفسرون: «كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف»[١] ولا أحد أتاها من البشر بهذا الطعام ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكذلك أصحاب الكهف الذين قص الله تعالى علينا قصتهم، قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾[الكهف] فهؤلاء كانوا بعد المسيح عليه السلام بمدة كما ورد، وكانوا مؤمنين ولم يكونوا أنبياء ولا غيره، وإنما كانوا مؤمنين صالحين، ناموا في كهفهم ثلاثة مائة سنين وازدادوا تسعا، وقلبهم الله تعالى خلال هذه المدة، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾[الكهف: ١٨] أي: عن اليمين وعن الشمال حتى لا تتقرح جلودهم.

وهناك كرامات عديدة حصلت للصحابة رضي الله عنهم، مثل سفينة[٢] مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخْبَرَ الْأَسَدَ بِأَنَّهُ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَمَشَى مَعَهُ الْأَسَدُ حَتَّى أَوْصَلَهُ مَقْصِدَهُ[٣].

---

[١] انظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٣٥٣).

[٢] سفينة مولى رسول الله ﷺ، أبو عبد الرحمن، اسمه: مهران، كان عبدًا لأم سلمة، فأعتقته، وشرطت عليه خدمة رسول الله ﷺ ما عاش، توفي بعد سنة سبعين. انظر «السير» (٣/ ١٧٢) .

[٣] روى البيهقي في «الاعتقاد» (١/ ٣٦٩)، عَنْ سَفِينَةَ، قَالَ: « رَكِبْتُ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ فَانْكَسَرَتْ، فَرَكِبْتُ لَوْحًا مِنْهَا فَطَرَحَنِي فِي أَجَمَةٍ فِيهَا أَسَدٌ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْحَارِثِ، أَنَا سَفِينَةُ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَطَأْطَأَ رَأْسَهُ وَجَعَلَ يَدْفَعُنِي بِجَنْبِهِ - أَوْ بِكَتِفِهِ - حَتَّى وَضَعَنِي عَلَى الطَّرِيقِ، فَلَمَّا وَضَعَنِي عَلَى الطَّرِيقِ =

وكذلك العلاء بن الحضرمي [١] ﷺ وأرضاه عبر البحر بجيشه لم تبتل السُرج، عبر الخليج العربي إلى جزيرة في الخليج، وكان عاملًا لرسول الله ﷺ على البحرين، وفي عهد عمر خرج بالفتوحات في فتح فارس عبر الخليج بجيشه لم تبتل السُرج، حتى إنه أثناء العبور قال: «سيروا باسم الله» ولم يكن معهم سفن، فمشوا بالدواب والجيش والخيول على الماء، حتى إنهم أثناء السير سقط متاع أحدهم فرجع وأخذه من على سطح الماء وأعطاه إياه وواصلوا عبورهم[٢].

وعمر بن الخطاب ﷺ عندما أرسل جيشًا إلى فارس بقيادة سارية بن زنيم[٣]، وكادوا ينهزمون في المعركة وكان المخرج لهم أن يأووا إلى جبل هناك ويجعلوا ظهرهم للجبل، فإذ بعمر وهو يخطب الجمعة بالمدينة يصيح: «**يا سارية، الجبلَ الجبلَ**»، فسمعوا صوته وهم بفارس، فأسندوا ظهورهم للجبل، فلما عاد سارية قال لعمر: «**يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقِينَا عَدُوًّا فَهَزَمُونَا فَإِذَا بِصَائِحٍ: يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، فَأَسْنَدْنَا ظُهُورَنَا بِالْجَبَلِ فَهَزَمَهُمْ اللهُ**»[٤]

= هَمْهَمَ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوَدِّعُنِي» .

[١] العلاء بن عبد الله بن عماد بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن عويف الحضرميّ، من سادة المهاجرين، واستعمله النبيّ ﷺ على البحرين، وأقرّه أبو بكر، ثم عمر. انظر: «السير» (١/ ٢٦٢).

[٢] انظر: الحلية (١/ ٨)، وصفة الصفوة (١/ ٢٧٠) .وقال ابن تيمية في «الفرقان»: «وَالْعَلاَءُ بْنُ الْحَضْرَمِيِّ كَانَ عَامِلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «يَا عَلِيمُ، يَا حَلِيمُ، يَا عَلِيُّ، يَا عَظِيمُ» فَيُسْتَجَابُ لَهُ، وَدَعَا اللهَ بِأَنْ يُسْقُوا وَيَتَوَضَّئُوا لَمَّا عَدِمُوا الْمَاءَ وَالإِسْقَاءَ لِمَا بَعْدَهُمْ فَأُجِيبَ، وَدَعَا اللهَ لَمَّا اعْتَرَضَهُمْ الْبَحْرُ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْمُرُورِ بِخُيُولِهِمْ فَمَرُّوا كُلُّهُمْ عَلَى الْمَاءِ مَا ابْتَلَّتْ سُرُوجُ خُيُولِهِمْ؛ وَدَعَا اللهَ أَنْ لَا يَرَوْا جَسَدَهُ إِذَا مَاتَ فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي اللَّحْدِ».

[٣] سارية بن زنيم بن عبد الله بن جابر الكناني الدؤلي، قال ابن عساكر: «له صحبة». انظر: «الإصابة» (٣/ ٤) .

[٤] أخرجه البيهقي في «الاعتقاد» (١/ ٣١٤) .

وكذلك أبو مسلم الخولاني[١] أحرقه الأسود العنسي[٢] الذي ادعى النبوة في اليمن، فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمد رسول الله؟ قال: نعم، فأمر بنار فألقي فيها، فوجدوه قائمًا يصلي فيها، وقد صارت عليه بردًا وسلامًا .

وقدم المدينة بعد موت النبي ص، فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وقال: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُمِتْنِي حَتَّى أَرَى مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ فُعِلَ بِهِ كَما فُعِلَ بِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ**»[٣].

ووضعت له جاريته السم في طعامه فلم يضره، وخببت امرأة عليه زوجته، فدعا عليها فعميت وجاءت وتابت، فدعا لها فرد الله عليها بصرها.

وغيرها من الكرامات، فنؤمن بكرامات الأولياء ونثبت ما صح منها.

فالكرامات كما ذكر شيخ الإسلام بعضها من قبيل المكاشفة، بمعنى أن الله تعالى يُلهم العبد المؤمن بشيء هو غائب عنه، فيتوقع الشيء على كيفية أو طريقة فيقع الأمر كما توقعه أو أُلهمه، وهذا ليس من علم الغيب، فالغيب لا يعلمه إلا الله، وإنما هو من حسن الظن بالله والتوقع، يعني توقع الشيء من غير جزم به لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ﷻ، ومن هذا قصة عمر مع سارية، فهنا كشف الله له شيئا غائبا عنه.

ومنها ما يكون من نوع القدرة، ويكون بتأثير خارج عن العادة، مثل المشي على الماء، وأن يلقى في النار فلا يحترق...

---

[١] عبد الله بن ثوب، أبو مسلم الخولاني، سيد التابعين، وزاهد العصر، قدم من اليمن، وقد أسلم في أيام النبي ﷺ ولم يره، فدخل المدينة في خلافة الصديق.توفي سنة ٦٢ هـ، انظر: «السير» (٤/ ٧) .

[٢] عبهلة بن كعب، وكان كاهنًا مشعبذًا، وكان أول خروجه بعد حجة رسول اللّه ﷺ، وكان من أول خروج الأسود إلى أن قتل أربعة أشهر. انظر: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٤ / ١٨).

[٣] انظر: الحلية (٢/ ١٢٨)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٧٠) .

وكذلك الرزق بكيفية خارجة عن المعتاد، كالتراب الذي يصير دقيقًا .

والكرامات لا تشغلنا عن اتباع الشريعة، يعني المقياس على كون هذا الخارق للعادة أنه كرامة أو غير كرامة هو حال صاحبه، فإن كان صاحب هذا الخارق مستقيمًا على الشريعة ممتثلًا أمرَ الله ونهيَه ثم وقع له شيء من الخوارق فتكون كرامة أكرمه الله بها، أما إن كان خارجًا عن الشريعة وحصل له خارق فهذا يسمى خارقًا شيطانيًا لا علاقة له بالكرامة، مثل السحرة والمشعوذين لأنه أيضًا هناك خوارق تحصل للسحرة والمشعوذين، والشياطين تساعدهم، فهذا لا علاقة له بالكرامة،

وهذا قاله الإمام الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمة، قال:«**إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة**»[١] .

يعني لا تجعل العلامة على صلاح الشخص أنه يحصل له شيء من خوارق العادات، وإنما قس حاله على الكتاب والسنة، فإذا رأيته يمشي على الماء أو يطير في الهواء وهو مخالف للكتاب والسنة؛ فلا قيمة له ولا وزن، فليست الكرامة هي الدليل على الصلاح.

وهنا ضل قوم؛ جعلوا خرق العادة هو العلامة على صلاح الشخص، بحيث من خرقت له العادة فهو صالح، فإذا خالف الشريعة يجعلون فعله حكمًا على الشريعة بدعوى أنه صالح، والدليل على صلاحه هو انخراق العادة له، فمقياسهم هذا مقياس معكوس؛ لأن العادة قد تنخرق لساحر أو تنخرق لكاهن... والشياطين تساعد بعض المضلين، ويوجد أشياء عجيبة عند البوذيين والهندوس وعباد الأصنام والنصارى، كهنتهم يشعوذون عليهم ويفعلون لهم أشياء من الخوارق هي التي تجعلهم يعتقدون

---

[١] تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٣).

صحة ما هم عليهم ويتبعونهم.

فعباد الأصنام يلازمون كهنتهم لما يرون من هؤلاء الكهنة يفعلون لهم أشياء خارقة للعادة، كالذي يضرب نفسه بسيف ولا يجرحه والذي يسير على النار ولا تحرقه أو على الماء ولا يغرقه، فيجعلون هذا علامة على أنه على حق، طالما فعل شيئا خارقا للعادة إذًا هو على حق، حتى لو كان يعبد الصنم أو يعبد البقرة.

والحق في هذا ألا نقيس كون الإنسان على حق أو على باطل بكونه انخرقت له العادة أم لا؛ لأن كثيرًا من كبار الصحابة رضي الله عنهم وفضلاء علماء المسلمين وأئمة الدين ممن أجمعت الأمة على صلاحهم لم ينقل عنهم شيء من الخوارق، فالخوارق المنقولة عن الصحابة معدودة، وكثير من العشرة المبشرين رضي الله عنهم وغيرهم لم ينقل عنهم شيء من خوارق العادات، وهم مبشرون بالجنة والأمة مجمعة على صلاحهم وتقواهم، وكثير من الفسقة المنحرفين عن الدين لهم أشياء من العجائب والخوارق التي يفعلونها بالسحر وبالاستعانة بالجن، فليس المقياس هو الخارق.

فإذًا، هذه الطائفة أو الفرقة الخامسة والأخيرة من الفرق التي ذكرها شيخ الإسلام من الذين يشهدون الحقيقة الكونية ويقدمونها على الشرع، هم الذين يغترون بخوارق العادات التي حصلت لبعض كبرائهم، فيجعلون هذا دليلًا على صلاحهم، وأنهم لهم الحق في مخالفة الشريعة، ويجعلون أفعال هؤلاء مقياسًا على الدين، ويزنون الشريعة بأفعال هؤلاء الذين انخرقت لهم العادات، فقد يدعو إنسان بدعوة، دعا مثلا أن يُشفى أو ينزل المطر، ووافق هذا بقدر من الله أن يحصل شفاء أو ينزل المطر، ليس من أجل دعوته، فقد يكون هذا الإنسان فاسقًا أو ضالا، وقد يكون فتنة للناس أو اختبارا لهم، وقد يكون صدق في هذه الدعوة ولكنه مخالف في أحواله الأخرى، فلا نجعل كون

فلان دعا مرة واستجيبت دعوته فنجعله علامة على أنه على حق، فكل ما يفعله حق، وإذا خالف الشريعة في شيء نقول: « الحديث الذي خالفه حديث ضعيف لأنه خلاف فعل الولي الفلاني»، فهؤلاء شهدوا شيئا قُدِّر، وهذه الأشياء التي انخرقت بها العادة حصلت بقدر الله، فانشغلوا بذلك عن اتباع الشرع.

فقال ﵀: «**إِنَّمَا يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْهَا بِمُلَازَمَةِ أَمْرِ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، كَمَا قَالَ الزُّهْرِيُّ: «كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ سَلَفِنَا**» أي: شيوخه من الصحابة، ومن هم أكبر منه من التابعين يقولون: « **الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ**».

ويقول الإمام مالك ﵀: «**السّنّةَ مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ**» .

فإذًا، لا يسع أحد أن يعرض عن سنة الرسول ﷺ بزعم أنه يحصل له شيء من الخوارق، أو يتبع شخصًا يحصل له شيء من الخوارق، فهذا ليس حَكَمًا على سنة رسول الله ﷺ.

***

وَالْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَلُزُومُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَقْصُودُهَا وَاحِدٌ، وَلَهَا أَصْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَلَا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ.

وَالثَّانِي: أَنْ يُعْبَدَ بِمَا أَمَرَ وَشَرَعَ، لا بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَهْوَاءِ والْبِدَعِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ١١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[النساء: ١٢٥].

كل هذه العبارات «**الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَلُزُومُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ**» المقصود بها أمر واحد، وإن كان بينها فروق دقيقة في المعنى، لكنها تؤدي إلى شيء واحد.

فعبادة الله ﷻ هي طاعته، وطاعة الله ﷻ هي الاستقامة، والاستقامة هي لزوم الصراط المستقيم. ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد.

ثم ذكر شرطي قَبول العبادة، وهما أيضًا شرطان لقبول الطاعة، أو شرطان لتكون الاستقامة صحيحة، فهذان الشرطان هما: الإخلاص والمتابعة.

فالإخلاص: هو أن يُعبد الله وحده، لا يعبد إلا الله ﷻ.

والمتابعة للرسول ﷺ: وهو أن نعبد الله تعالى بما شَرَع، لا بما تهواه النفوس وتشتهيه وتميل إليه، ولا بالبدع المحْدثات في الدين.

والبدعة عرفها الإمام الشاطبي رحمه الله[١] فقال: «طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ، تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ، يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا مَا يُقْصَدُ بِالطَّرِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ»[٢] فالبدعة هي المحدثات

---

[١] إبراهيم بن موسى بن محمد، أبو إسحاق، اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي، من علماء المالكية. كان إمامًا محققًا أصوليًا مفسرًا فقيهًا محدثًا نظارًا ثبتًا بارعًا في العلوم. له استنباطات جليلة وفوائد لطيفة وأبحاث شريفة مع الصلاح والعفة والورع واتباع السنة واجتناب البدع. وبالجملة فقدره في العلوم فوق ما يذكر وتحليته في التحقيق فوق ما يشهر. من تصانيفه: الموافقات في أصول الفقه «أربع مجلدات» ؛ و «الاعتصام» ؛ و «المجالس» شرح به كتاب البيوع في صحيح البخاري، توفي سنة ٧٩٠ هـ.[نيل الابتهاج بهامش الديباج ص ٤٦؛ وشجرة النور الزكية ص ٢٣١؛ والأعلام للزركلي ١ / ٧١]

[٢] الاعتصام (١/ ٥١).

في الدين.

ثم استشهد المؤلف ﷺ بآيات كريمة على تقرير هذا المعنى، وهو أن العبادة لها شرطان لتقبل، الإخلاص والمتابعة.

فهنا في الآية الكريمة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] فالعمل يُعرف بأنه صالح من خلال المتابعة للنبي ﷺ وموافقة الشريعة.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هذا هو شرط الإخلاص، أنه لا يريد بعمله هذا إلا وجه الله ﷻ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ يعني: انقاد لله تعالى.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يعني: أحسن العمل أو عمل الحسنات، ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

إذًا، الشرطان هنا من قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ هذا هو الإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذا هو شرط المتابعة؛ لأن إحسان العمل هو أن يعمل الحسنات التي عُلم حسنها من خلال الشرط.

﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فالخوف هو توقع المكروه في المستقبل، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني في ما يستقبلونه من أمر الآخرة .

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ والحزن هو تألم القلب لتذكر مكروه وقع فيه الماضي، فعندما يتذكره قلب الإنسان يتألم، فهذا هو الحزن، فهنا الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يتكرر هذا في آيات كثيرة، يَعد الله ﷻ عباده المؤمنين بأنهم لا خوف عليهم يعني أنهم لا يخافون مما يستقبلونه من أمر الآخرة، ولا يحزنون على ما فاتهم

من أمر الدنيا، عندما يَقْدمون على الله تعالى لا يحزَنون على الدنيا وما تركوه فيها وراءهم، ولا يخافون مما سيقدمون عليه من أمر الآخرة لأن الله تعالى وعد المؤمنين بالأمن، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥].

الخليل هو الحبيب، والخُله هي أعلى مراتب المحبة وأعلى درجاتها، فالله عز وجل اتخذ إبراهيم خليلًا يعني أحبه الله عز وجل أكمل محبة، ومحبة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام هي أعلى مراتب المحبة واصطفاه الله تعالى وشرفه بهذا.

وورد أن الخُلة أيضًا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَما اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**»[١]..

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي، وَقَدِ اتَّخَذَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا**»[٢].

فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الإِحْسَانُ، وَهُوَ فِعْلُ الْحَسَنَاتِ، وَالْحَسَنَاتُ هِيَ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ.

هنا يبين المؤلف العلاقة بين هذه الآيات الكريمة، فالآية الأولى قال فيها سبحانه وتعالى:

---

[١] أخرجه مسلم (٥٣٢) عن جندب بن جنادة رضي الله عنه.

[٢] أخرجه مسلم (٢٣٨٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، والآيتان بعدها قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فقال: إن الاحسان هو نفسه العمل الصالح؛ لأن الإحسان هو نفسه فعل الحسنات.

والحسنات: هي ما أحبه الله ورسوله، وهو ما أمر به أمر إيجابٍ أواستحباب، فإذًا الإحسان هو كما قال: «**فِعْلُ الْحَسَنَاتِ، وَالْحَسَنَاتُ هِيَ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ مَا أُمِرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ**»، فكل ما أوجبه الله، أو حث المؤمنين على فعله ندبًا واستحبابًا فهو داخل في الإحسان.

والإحسان يأتي في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ بمعانٍ:

فأحيانًا يأتي الإحسان بمعنى: إتقان العبادة وأداء العبادة على وجهها الأكمل وهذا في قوله ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام: «**مَا الإِحْسَانُ؟**» قال: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[١].

فهنا نلاحظ أنه فسر الإحسان بعبادة الله كأنك تراه، أي عبادة يتقنها صاحبها ويؤدي العبادة كأنه يرى الله سبحانه وتعالى، يعني فيها مراقبة لله عز وجل.

ومرات يأتي الإحسان بمعنى الإحسان إلى الخلق، في مثل قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[النساء: ٣٦]

فالإحسان إلى الوالدين والأقارب، وذكر بالآية: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ وهو يعني إحسان الرجل إلى زوجته والمرأة إلى زوجها، فكل هذا داخل في الإحسان إلى الخلق.

---

[١] أخرجه مسلم (٨) عن عمر رضي الله عنه.

فإذًا، الإحسان نجد أنه في النهاية يدور حول هذا المعنى الذي هو فعل الحسنات، أو فعل ما أحبه الله تعالى من واجب ومستحق.

❊ ❊ ❊

فَمَا كَانَ مِنْ الْبِدَعِ فِي الدِّينِ الَّتِي لَيْسَتْ مَشْرُوعَةً، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا رَسُولُهُ، فَلَا تَكُونُ مِنْ الْحَسَنَاتِ وَلَا مِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا أَنَّ مَا يُعْلَمُ أَنَّهُ فُجُورٌ كَالْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ لَيْسَ مِنْ الْحَسَنَاتِ، وَلَا مِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

توجد نسخة أخرى فيها زيادة بعض الكلمات يقول: «**فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب ولا في صحيح السنة فإنها وإن قالها من قالها وعمل بها من عمل ليست مشروعة**»، ومعناه مفهوم من السياق أن البدع في الدين ليست في الكتاب ولا صحيح السنة.

يقول: «**إن البدع فإنها وإن قالها من قالها وعمل بها من عمل**» يعني أن أهل البدع أحيانا يحتجون عليها بقول فلان وقول فلان من العلماء، فيقولون: كيف تقولون إن الأمر بدعة، وقد قال به العَالِم فلان والشيخ فلان؟

فهنا يقول: إن العلماء رحمهم الله تعالى يُستدل لهم ولا يُستدل بهم، يعني هم يحتاجون الدليل الذي نعلم به صحة ما هم به عليه طالما أن المسألة وقع فيها خلاف وناس من أهل العلم أمروا بها وناس أنكروها.

فإذًا في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فالكتاب والسنة يحكمان على مواقف العلماء واجتهاداتهم في بعض المسائل، فهنا يقول: «**إن عمل بها من عمل، وقال بها من قالها ليست مشروعة**» فالبدع لم يشرعها الله ﷻ،

«فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا رَسُولُهُ، فَلَا تَكُونُ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَلَا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا أَنَّ مَا يُعْلَمُ أَنَّهُ فُجُورٌ كَالْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ لَيْسَ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَلَا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ».

فإذًا، قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ينفي أمرين:

الأول: ينفي البدع.

والثاني: ينفي الفجور والفواحش والظلم.

والأمران هما جانبا الانحراف عن الدين، فتارةً يكون من باب الشبهات وهو الذي يُخرج الإنسان إلى البدع، فالبدع مردها إلى الغلو في الدين، والزيادة فيه ما ليس منه، فهذا نوع من أنواع الانحراف في الدين.

والنوع الآخر من الانحراف: هو الفجور والفواحش والمعاصي التي مردها إلى شهوات النفوس؛ كشهوة المال، وشهوة النساء، وشهوة الخمر، ونحو ذلك مما يوقع الإنسان في المنكرات.

فقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾احتراز من هذين النوعين، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ الله**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالخط المستقيم إشارة إلى صراط الله المستقيم، والخطوط عن اليمين ضرب به المثل للبدع والانحرافات التي مردها إلى الشبهات، وعن الشمال الانحرافات التي

مردها إلى الشهوات وهي الفسوق والمعاصي.

ويذكر العلماء أن علاج الشبهات هو العلم النافع، وعلاج الشهوات هو العمل الصالح، فدائمًا العلم والعمل مأمور بهما في كتاب الله تعالى؛ لأن العلم النافع فيه وقاية من الشُبهات، والعمل الصالح فيه وقاية من فتن الشهوات.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، **وَقَوْلُهُ:** ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] **فَهُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ وَحْدَهُ.**

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا»[١].

وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ [٢] **فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] **قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ.**

قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ، مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟

قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ،

---

[١] أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٦١٧).

[٢] الفضيل بن عياض بن مسعود، أبو علي، التميمي، اليربوعي، فقيه حنفي. شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء. أخذ الفقه عن الإمام أبي حنيفة. قال فيه ابن المبارك: «ما بقي على ظهر الأرض أفضل من الفضيل بن عياض». وقال شريك القاضي: «فضيل حجة لأهل زمانه». روى عنه الإمام الشافعي ويحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي وابن عيينة ويحيى بن يحيى التميمي وابن وهب وغيرهم. توفي سنة ١٨٧ هـ. [تهذيب التهذيب ٨ / ٣٩٤، وشذرات الذهب ١ / ٣١٦ - ٣١٨، وسير أعلام النبلاء ٨ / ٣٧٢، والجواهر المضيئة ١ / ٤٠٩، والنجوم الزاهرة ٢ / ١٢١، والأعلام ٥ / ٣٦٠].

وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ.

الآيات السابقات التي استشهد بها المؤلف ذكرت شرطين:

الشرط الأول: الإحسان وهو في قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[البقرة: ١١٢] أو أن يكون العمل صالحًا في قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] فالإحسان والعمل الصالح هو المتابعة واجتناب البدع.

ثم الشرط الثاني: وهو الإخلاص، جاء في هذا الشرط: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، و ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾فهذا يشير إلى اشتراك الإخلاص لله عز وجل.

وقول عمر رضي الله عنه: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا**»، هذا دعاء كان يدعو به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فهنا جاء الشرطان الإخلاص والمتابعة.

وقوله رضي الله عنه: «**وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا**» هذا أيضًا تتمة لأمرِ الإخلاص .

وفي كلمة الإمام الفُضيل بن عياض رحمه الله: وَضَّحَ فيها اشتراط هذين الشرطين لقبول العمل:

الشرط الأول: أن يكون العمل خالصًا.

والثاني: أن يكون صوابًا.

ثم شرح المراد بالإخلاص أن يكون لله، والمراد بالصواب أن يكون على السنة، أي أن العمل يوافق سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ جَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ دَاخِلًا فِي اسْمِ الْعِبَادَةِ فَلِمَاذَا عَطَفَ عَلَيْهَا غَيْرَهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥] **وَقَوْلِهِ:** ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود: ١٢٣] **وَقَوْلِ نُوحٍ:** ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[نوح: ٣] **وَكَذَلِكَ قَوْلُ غَيْرِهِ مِنْ الرُّسُلِ؟**

هنا شيخ الإسلام ﷺ يطرح إشكالًا ثم يذكر الجواب عليه، فهذا الإشكال هو أنه سبق أن عرفنا العبادة وأن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

فهنا الإشكال، إذن التوكل على الله تعالى هو من العبادة، والاستعانة بالله هي من العبادة لأنها عملٌ صالحٌ يحبه الله ويرضاه، وتقوى الله وطاعة الرسل كلها أيضًا من العبادة؛ فلماذا نجد في كتاب الله تعالى التوكل معطوفًا على العبادة بالله ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود: ١٢٣] والاستعانة معطوفة على العبادة بالواو. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥] والواو في اللغة قد تأتي للمغايرة، فكثيرًا ما تستعمل الواو للمغايرة فيكون ما قبلها غير ما بعدها.

فهنا الإشكال إذا كانت الواو للمغايرة، فمعناها أن العبادة شيء والاستعانة شيء آخر، إذًا التعريف أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه يكون فيه هذا الإشكال، لكنه سيجيب عنه. فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥] عطف الاستعانة على العبادة. وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود: ١٢٣] عطف التوكل على العبادة. وقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[نوح: ٣] جعل التقوى وطاعة الرسل معطوفة على العبادة.

خلاصة الجواب باختصار -وسيأتي تفصيلا-: هو أن الواو كثيرًا ما تأتي في كتاب

الله ﷺ لعطف الخاص على العام والعام على الخاص، فليس بالضرورة أن تأتي الواو للمغايرة بين الشيئين، فمرات يعطف العام على الخاص والخاص على العام، ومرات يعطف الشيء على مرادفه، وهذا كثير في كتاب الله تعالى،وسيذكر شيخ الإسلام أمثلة على هذا.

فإذًا، لا مانع أن يكون التوكل من العبادة ومع هذا يُعطف عليها بالواو، فالتوكل هو قسم من العبادة وعُطف عليها للعناية به والاهتمام من شأنه مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة: ٢٥] .

أهل البدع يخرجون العمل من الإيمان، وكأن الإيمان فقط تصديق القلب، والعمل ليس من الإيمان، ودائمًا يحتجون بهذه الآيات التي فيها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيقولون: «عطف الله العمل الصالح على الإيمان، والعطف يقتضي المغايرة». فهنا الجواب أيضًا نفس الجواب أن العمل الصالح هو جزء من الإيمان قول وعمل ولا مانع أن يُعطف العمل الصالح على الإيمان مع إنه جزء منه.

***

قِيلَ: هَذَا لَهُ نَظَائِرُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وَالْفَحْشَاءُ مِنْ الْمُنْكَرِ.

قوله: «**هَذَا لَهُ نَظَائِرُ**» يعني نرد على هذا الإشكال بأن نقول: عطف الخاص على العام والعام على الخاص له نظائر في كتاب الله تعالى.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥] فالفحشاء عُطف عليها المنكر، مع إن الفحشاء هي من المنكرات، والفحشاء ما عظِمَ

قبحه وفحشه في النفوس، فمرات يأتي بهذا المعنى.

ومرات الفحشاء فيما يتعلق بفاحشة الزنا .

ومرات يقصد بالفحشاء جميع ما عظُم قبحه في النفوس من الذنوب، فهذا داخل في المنكر، وما ليس معروفًا أنكرته الشريعة، فالمنكر منه الفحشاء، فهنا عُطف أحدهما على الآخر.

❊❊❊

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[النحل: ٩٠] **وَإِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَى هُوَ مِنْ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، كَمَا أَنَّ الْفَحْشَاءَ وَالْبَغْيَ مِنْ الْمُنْكَرِ.**

فإعطاء الأقارب هو من العدل وهو من الإحسان، فإذا كان القدر الواجب الذي وجب على الإنسان هذا من العدل، فالعدل إعطاء كل ذي حق حقه، وإذا كان إعطاء ذوي القربى بزيادة على ما وجب من الإنسان أكرمهم وزادهم ما لا يجب عليه فهو من الإحسان.

فإيتاء ذي القربى عطفه الله تعالى على العدل والإحسان مع أنه داخلٌ فيهما.

والفحشاء والبغي من المنكر، ومرات يأتي البغي بمعنى: التعدي، إما بظلم الآخرين أو بالبغي بتعدي حدود الله تعالى وبالزيادة في الدين بما ليس منه.

❊❊❊

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] **وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ مِنْ أَعْظَمِ التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ.**

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: يتمسكون بالقرآن الكريم، وإقامة الصلاة هي من التمسك بالكتاب، فهذا من عطف الخاص على العام.

***

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وَدُعَاؤُهُمْ رَغَبًا وَرَهَبًا مِنْ الخَيْرَاتِ.

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الضمير هنا يعود على أنبياء الله تعالى في هذه الآية الكريمة، وذكرت عقب قصة زكريا عليه السلام وابنه يحيى، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء].

فإما أن المقصود هنا زكريا عليه السلام وآله، أو يكون المقصود بها جميع من ذُكر قبل من الأنبياء، فالسورة قبل ذلك فيها ذكر إبراهيم ونوح ولوط وعيسى عليه السلام وأمه مريم، وفيها ذكر ذي النون وإسماعيل وإدريس وزكريا وكثير من الأنبياء ذكرهم الله تعالى في هذه السورة.

فإن الضمير هنا يعود على الجميع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ كل الأنبياء -صلوات الله عليهم - كانوا يسارعون في الخيرات.

أو يكون ثناءً خاصًا على زكريا وآله، وحتى لو كان خاصا بزكريا وآله فإنه لا ينفيه عن غيره من الأنبياء.

وجه الاستشهاد من الآية: أن الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ يعني راغبين في ثواب الله وراهبين من عقاب الله تعالى، ودعاء الله تعالى رغبًا ورهبًا هو من الخيرات التي يسارعون فيها، لو أن الله تعالى قال: «يسارعون في الخيرات» ولم يقل: «ويدعوننا رغبًا ورهبًا»؛ لفهمنا أنهم كانوا يدعون الله لأن الدعاء من ضمن الخيرات التي يُتقرب بها إلى الله، لكن الله تعالى عطف هذا الخاص على العام تأكيدًا عليه واهتمامًا بشأنه.

***

وَهَذَا الْبَابُ يَكُونُ تَارَةً مَعَ كَوْنِ أَحَدِهِمَا بَعْضَ الْآخَرِ، فَيُعْطَفُ عَلَيْهِ تَخْصِيصًا لَهُ بِالذِّكْرِ، لِكَوْنِهِ مَطْلُوبًا بِالْمَعْنَى الْعَامِّ، وَالْمَعْنَى الْخَاصِّ.

إذا نظرنا في الآيات السالفة نجد أنها أحيانًا عند عطف مفردتين، فمرات تكون إحدى المفردتين بعضًا من الآخر، من باب العام والخاص، فيكون الخاص مذكورًا مرتين: مرة باعتباره داخلًا في العام، ومرة باعتباره منصوصًا عليه بخصوصه؛ لكون هذا الأمر فيه مزيد اعتناء به وتأكيدٍ عليه.

مثال ذلك: عندما يقول ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] وإقامة الصلاة هي جزء من التمسك بالكتاب، فإذًا ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يشمل كل ما أمر الله به، ومنه إقامة الصلاة.

فإذًا تكون إقامة الصلاة هنا قد حثت الآية عليها مرتين: مرة باعتبارها داخلة في العام، ومرة باعتبارها قد أفردت بالذكر وخصصت.

***

وَتَارَةً تَكُونُ دِلَالَةُ الِاسْمِ تَتَنَوَّعُ بِحَالِ الِانْفِرَادِ وَالِاقْتِرَانِ، فَإِذَا أُفْرِدَ عَمَّ، وَإِذَا اقْتَرَنَ بِغَيْرِهِ خَصَّ، كَاسْمِ «الْفَقِيرِ» «وَالْمِسْكِينِ» لَمَّا أَفْرَدَ أَحَدَهُمَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[البقرة: ٢٧٣] **وَقَوْلِهِ:** ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾[المائدة: ٨٩] **دَخَلَ فِيهِ الْآخَرُ.**

وَلَمَّا قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾[التوبة: ٦٠] **صَارَا نَوْعَيْنِ.**

أحيانًا أُخرى لا نقول: إن هذا من باب الخاص والعام. ولكن نقول: إن الاسم له معنى إذا انفرد ومعنى إذا اقترن، فهناك بعض الألفاظ في كتاب الله ﷻ يقال عنها: «إذا اجتمعا افترقَا، وإذا افترقَا اجتمعَا»، يعني إذا اجتمع لفظان في آية واحدة افترقا في المعنى، فأعطينا لكل واحد مهنا معنى يميزه عن الآخر، لكن إذا افترقا يعني: جاء لفظ واحد منهما في الآية، ولم يأت الآخر، صار شاملًا للآخر، أي: صار الآخر جزءا منه وداخلًا فيه.

ضرب شيخ الإسلام المثال هنا بكلمتين ينطبق عليهما أنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا: «**الْفَقِيرِ**» «**وَالْمِسْكِينِ**» فقال: «**لَمَّا أَفْرَدَ أَحَدَهُمَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ:** ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[البقرة: ٢٧٣] **وَقَوْلِهِ:** ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾[المائدة: ٨٩] **دَخَلَ فِيهِ الْآخَرُ.**

كل واحد من اللفظين لما انفرد دخل فيه الآخر، فالله ﷻ أمر بالتصدق على الفقراء الذين أحصروا في سبيل الله، والمساكين جزء من الفقراء فيتصدق على المساكين والفقراء.

ولما قال سبحانه في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ فكفارة

اليمين سواء أطعم المساكين أو أطعم الفقراء فالأمر هنا واحد، كل منهما يدخل فيه الآخر.

قال: «**وَلَمَّا قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ:** ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾[التوبة: ٦٠] **صَارَا نَوْعَيْنِ**».

هنا فرقوا بين الفقراء والمساكين في آية الزكاة في سورة التوبة، قالوا: «الفقير هو المعدم الذي ليس له مصدر للدخل أو يتكسب منه».

وأما المسكين: «فهو الذي له مصدر دخل أو له مال لكنه لا يكفي حاجته أي أقل من قدر الكفاية» فهذا يُعطى من الزكاة ما يُكمل به كفايته، فمرات المسكين تكون له حرفة أو له وظيفة وراتب شهري، أو أجرة يتقاضاها عن عمله لكن الأجرة لا تكفي حوائجه الأساسية من مسكن أومطعم أو مشرب ونحو ذلك من الأمور، فهنا يُعطى ما يكمل به حاجته، وأخذوا هذا من قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[الكهف: ٧٩] فهنا وصفهم الله تعالى بأنهم مساكين، مع أنهم يملكون السفينة ويعملون عليها في البحر ومع ذلك فهم مساكين، والسفينة المقصود بها مركب صغير، فليست كالسفن الضخمة الآن، إنما السفينة مركب من الخشب لكن أجرتهم أقل من قدر كفايتهم، فسماهم مساكين، وعلى هذا يكون الفقر أشد من المسكنة وهناك قول آخر عكسه أن المسكنة أشد من الفقر.

وقالوا: كان النبي ﷺ يتعوذ بالله من الفقر ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»[١].

[١] أخرجه أحمد (٢٠٣٨١)، وأبو داود (٥٠٩٠) عن أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

لكن المسكنة كان يقول: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١] لكن قالوا: إن المسكين هنا في دعاء النبي ﷺ ليس المقصود بهم من لا يجد كفايته، ولكن المقصود به المتواضع، فأحيني مسكينًا تعني متواضعًا، وليس معناه فقيرا.

فالقصد أن المسكين إذا أطلق دخل فيه كل محتاج سواء له دخل أو ليس له دخل طالما هو محتاج فهو يدخل في اسم المسكين أو يدخل في اسم الفقير إذا انفرد واحد منهم أما إذا اجتمعا فإذًا نفرق بينهما في المعنى.

***

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْخَاصَّ الْمَعْطُوفَ عَلَى الْعَامِّ لَا يَدْخُلُ فِي الْعَامِّ حَالَ الِاقْتِرَانِ، بَلْ يَكُونُ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ لَازِمًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[البقرة: ٩٨] .

قوله: «وَقَدْ قِيلَ: ...» يعني قال العلماء: إن الخاص الذي يُعطف على العام لا يكون داخلًا في العام حال اقترانه بالخاص، وإنما يقال: «إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا».

قوله: «وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ لَازِمًا»

يعني على القول الأول الذي لا يوافق عليه المؤلف، يقول: إن بعض أهل العلم قالوا: إن الخاص عندما يعطف على العام فيفسر العام تفسيرًا لا يكون الخاص داخلًا

---

[١] أخرجه الترمذي (٢٣٥٢) عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

فيه كقوله تعالى: ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[الأعراف: ١٧٠] قالوا: هنا يمسكون بالكتاب يلزمنا أن نفسره تفسيرًا لا يدخل فيه إقامة الصلاة، طالما أنها عُطفت عليهم، فنفسر إقامة الصلاة تفسيرا بحيث لا يكون الخاص داخلًا في العام، فيمسكون بالكتاب يعني يمسكون بالكتاب في أمور أخرى غير إقامة الصلاة...

أو مثلًا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾يقولون: العمل من الإيمان، لكن لما اجتمع معه نخرج العمل، فنقول: إنه لا يدخل في عموم الإيمان في هذا الموضع، فيكون الإيمان هنا إيمان القلب، والعمل هو العمل الظاهر، بحيث لا يكون هذا من باب عطف الخاص على العام.

فكأن هذا الفريق ينفي أن يكون الخاص معطوفًا على العام، فيقول: إذا وجدنا لفظين أحدهما أخص من الآخر وعُطف أحدهما على الآخر؛ وجب أن نفسر العام بتفسير لا يدخل في الخاص في هذا السياق بالذات.

لكن المؤلف هنا يقول: «**وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ لَازِمًا قَالَ تَعَالَى:** ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[البقرة: ٩٨]» وجبريل وميكال من ضمن الملائكة، فهذا من عطف الخاص على العام .

فالصواب هنا على رأي المؤلف أن نقول: إن جبريل وميكال شرفهما الله تعالى بأن ذُكرا مرتين، مرة باعتبارهما داخلين في عموم قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ ومرة باعتبارهما قد أُفردا بلفظ خاص بهما.

***

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ

مَرْيَمَ ﴾[الأحزاب: ٧] .

فالنبيين هنا تشمل جميع الأنبياء، ثم خص منهم أولي العزم من الرسل الخمسة قال: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ هؤلاء الخمسة صلوات الله عليهم.

ونلاحظ مرات أن يأتي الكلام الخاص بعد العام، ومرات العام بعد الخاص في مثل قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾[البقرة: ١٣٦]

فهنا عطف النبيين على موسى وعيسى، وهذا من عطف العام على الخاص.

وفي آية الأحزاب ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾[الأحزاب: ٧] عطف الخاص على العام. فمرات يأتي العام أولًا والخاص بعده، ومرات يأتي الخاص أولًا والعام بعده.

وَذِكْرُ الْخَاصِّ مَعَ الْعَامِّ يَكُونُ لِأَسْبَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ: تَارَةً لِكَوْنِهِ لَهُ خَاصِّيَّةٌ لَيْسَتْ لِسَائِرِ أَفْرَادِ الْعَامِّ، كَمَا فِي نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى.

يذكر هنا الأسباب المتنوعة لذكر الخاص على العام:

منها: كونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام، كما في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فهؤلاء الأنبياء لهم خاصية ليست في غيرهم، فهم أشرف الرسل وهم أولو العزم من الرسل، فالنبيون فضَّل الله بعضهم على بعض،

وأفضل الأنبياء هم هؤلاء الخمسة الذين يقال لهم: «أولو العزم من الرسل» وهذا على القول المشهور وقيل بل أولو العزم هم كل الرسل، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥]، ثم هؤلاء الخمسة أفضلُهم الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما أفضل الصلوات والسلام، وأفضلهما نبينا محمد ﷺ.

***

وَتَارَةً لِكَوْنِ الْعَامِّ فِيهِ إِطْلَاقٌ قَدْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ الْعُمُومُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[البقرة: ٣-٤]، فَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يَتَنَاوَلُ الْغَيْبَ الَّذِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، لَكِنْ فِيهِ إِجْمَالٌ فَلَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مِنْ الْغَيْبِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْك وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِك.

الإجمال: هو احتياج اللفظ إلى بيان، إما لكونه يُستعمل في أكثر من معنى ويحتاج إلى بيان أي هذه المعاني تريد، أو له حقيقة شرعية ولغوية ويحتاج تفصيل كيفيته، مثل قوله تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾فهذا مجمل، والإجمال فيه أن الصلاة لها معنى لغوي وهو الدعاء، ومعنى شرعي يحتاج إلى بيان لمواقيتها وكيفيتها وأحكامها.

فهنا يقول قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾هذا لفظ مجمل فيه إجمال يحتاج إلى تبيين؛ فبينه بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[البقرة: ٤].

فبعد ما بين ﷻ أن المؤمنين يؤمنون بالغيب، والغيب هو ما غاب عن حسهم ومشاهدتهم، ثم هذا الغيب شيء مجمل يحتاج إلى تفسير، فتفسيره ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ما جاء من الأخبار عن أمور تغيب عن مشاهدتهم إما من أخبار الأمم السابقة، أو من أحوال يوم القيامة، أو من صفة الله تعالى وأخبار الأنبياء السابقين بما سيكون في آخر الزمان، ونحو ذلك من الأمور مما ذكره الله في القرآن الكريم، ومما ذكره سبحانه

في الكتب السابقة.

***

وَقَدْ يَكُونُ الْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْمُخْبَرِ بِهِ وَهُوَ الْغَيْبُ، وَبِالْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ، وَهُوَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْك وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِك .

الإجمال تارة يكون باحتمال اللفظ لمعنيين، مثل قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾:

فالغيب مرات يأتي بمعنى المُخبَر به وهو الأخبار الغيبية .

ومرات يأتي بمعنى الكتاب الذي فيه الإخبار عن الغيب الذي هو القرآن الكريم وما أُنزل من الكتب السابقة.

فقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يعني يؤمنون بالتوراة والأنجيل مع أنهم لم يروا التوراة التي أنزلها الله ولم تُحرف، ولم يروا الإنجيل الحق الذي أنزله الله.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾من الممكن أن يكون المقصود بالغيب: التوراة والإنجيل والكتب السابقة كصحف إبراهيم وصحف موسى مع كونهم لم يروها.

أو ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يعني بالإخبار عن أشياء غيبية في الماضي أو في المستقبل أنزلها الله في هذه الكتب.

***

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْله تَعَالَى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾[الأعراف: ١٧٠] .

وَتِلَاوَةُ الْكِتَابِ هِيَ اتِّبَاعُهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[البقرة: ١٢١] **قَالَ: «يُحَلِّلُونَ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ».**

فَاتِّبَاعُ الْكِتَابِ يَتَنَاوَلُ الصَّلَاةَ وَغَيْرَهَا، لَكِنْ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِمَزِيَّتِهَا .

قوله: «**وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ**» المتشابه عندما يأتي في مقابلة المحكم فالمقصود بالمحكم هنا هو ما اتضح معناه أو كان لا يحتمل إلا معنى واحدا.

والمتشابه هو ما خفي معناه أو كان يحتمل أكثر من معنى.

فالمتشابه هنا، أي: ما خفي معناه عليهم، يؤمنون به وما اتضح لهم معناه يعملون به.

فجعل هذا هو تلاوة القرآن حق تلاوته، فإذًا إقامة الصلاة على هذا التفسير هي من تلاوة القرآن، هي تحليل حلاله وتحريم حرامه، أو هي العمل به، فتكون إقامة الصلاة هنا من الخاص الذي عُطف على العام.

***

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ لِمُوسَى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] **وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ لِذِكْرِهِ مِنْ أَجَلِّ عِبَادَتِهِ.**

وَكَذَلِكَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[الأحزاب: ٧٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[المائدة: ٣٥] .

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩] .

فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ هِيَ أَيْضًا مِنْ تَمَامِ تَقْوَى اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود: ١٢٣] **فَإِنَّ التَّوَكُّلَ وَالِاسْتِعَانَةَ هِيَ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، لَكِنْ خُصَّتْ بِالذِّكْرِ لِيَقْصِدَهَا الْمُتَعَبِّدُ بِخُصُوصِهَا، فَإِنَّهَا هِيَ الْعَوْنُ عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُعْبَدُ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ.**

إقامة الصلاة هي من عبادة الله تعالى، ومع ذلك عطف إقامة الصلاة على العبادة.

قوله: «**وَقَوْلُهُ:** ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[المائدة: ٣٥] ».

الوسيلة هنا هي الإيمان والعمل الصالح، فسرها التابعون رحمهم الله بالإيمان والعمل الصالح بأنه وسيلة أي ما يوصله إلى المقصود .

فالذي يتوسل به إلى الله ويكون سببًا في الوصول إلى الله تعالى وطريقًا للوصول إليه ونيل رضوانه وجنته هو الإيمان والعمل الصالح.

ويدخل في ذلك أنواع التوسل المشروع، فمنه الإيمان والعمل الصالح حتى لو لم يدع الله به فهو وسيلة، فمجرد أن الإنسان يؤمن بالله ويعمل عملًا صالحًا فهذا وسيلة تقربه من الله.

ثم سؤال الله تعالى بهذا الإيمان والعمل الصالح كما في حديث أصحاب الغار، فكل واحد منهم ذكر عملا صالحا عمله ثم دعا الله به، قال: «**اللهم إن كنت عملت هذا ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه**»[١].

فدعاء الله عز وجل الذي يذكر العبد فيه العمل الصالح الذي عمله ويقول في دعائه مثل ما قال أصحاب الغار: إن كنت عملت هذا ابتغاء وجهك فاغفر لي أو ففرج عني أو فارزقني ويسأل الله به. فهذا من التوسل المشروع.

---

[١] أخرجه البخاري (٢٢٧٢) .

وكذلك من التوسل المشروع: التوسل بأسماء الله وصفاته، أن يجعل المسلم دعاءه مشتملًا على الثناء على الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، كما هي أدعية الأنبياء في كتاب الله، وفي أدعية رسول الله ﷺ، وامتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠] فهذا من التوسل إلى الله، فإذا كان يطلب المغفرة يقول: «اللهم اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم» أو «يا غفور، اغفر لي» أو: «يا رحيم، ارحمني» أو: «يا تواب، تب علي إنك أنت التواب الرحيم»، وإذا كان يطلب الرزق يتوسل باسمه الرزاق واسمه الكريم وهكذا.

ومن التوسل المشروع أيضًا: التوسل بدعاء رجلٍ صالحٍ حيٍ يذهب إليه ويقول: ادع الله لي.

ومن أنواع التوسل المشروع: دعاء المؤمنين بعضهم لبعض، خاصة إذا كان الدعاء بظهر بالغيب.

فقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[المائدة: ٣٥] على تفسير الوسيلة بأنها الإيمان والعمل الصالح فهي من تقوى الله فهذا من عطف الخاص على العام.

وكذلك قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[التوبة: ١١٩]، فإن الصدق هو من التقوى، فهذا من عطف الخاص على العام.

إذًا، فالمؤلف رحمه الله يريد بإيراده تلك الآيات السابقة التي فيها عطف الاستعانة على العبادة أو عطف التوكل على العبادة أن يقول: إن هذا لا يعني أن الاستعانة ليست من العبادة، أو أن التوكل ليس من العبادة، وإنما يعني أن الاستعانة هي من العبادة وخص بالذكر للعناية به، فالاستعانة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]، والتوكل في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود: ١٢٣] كأنها ذُكرت مرتين: مرة

باعتبارها جزءًا من العبادة فهي داخلة في اللفظ العام، ومرة أفردت تخصيصًا لها للعناية بها.

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الناس في مسألة العبادة والاستعانة على أربعة أقسام:

الأول: صنف جمع بين العبادة والاستعانة، وهذا أكمل شيء.

والثاني: قسم وُجِدت فيه العبادة، ولكن لم يوجد فيه الاستعانة أو التوكل.

والثالث: قسم وجدت فيه الاستعانة بالله والتوكل عليه، لكن عنده خلل في العبادة وتقصير فيها و تهاون بها.

والرابع: وهو أسوأ الأقسام، وهو الذي لا عبد الله ولا استعان به، ولا توكل عليه[١].

والاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه يكونان في جميع أمور الإنسان، فتكون في أمور الدنيا، وأمور العبادة، يعني يطلب من الله تعالى أن يعينه على العبادة، كما في الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، فعن معاذ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا، ثُمَّ قَالَ: « **يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ** » . فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ وَأَنَا أُحِبُّكَ. قَالَ: « **أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ** »[٢].

فالإنسان يحتاج إلى معونة من الله على ذكره وشكره وحسن عبادته، وكذلك يستعين المؤمن بالله تعالى في جميع ما تحبه نفسه وفي كل أبواب الخير في الدنيا والآخرة يحتاج فيها المؤمن إلى استعانة بالله.

---

[١] نقله عنه ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ١٠٠).

[٢] أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» .

ومن هذا أيضا كلمة: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فهي كنز من كنوز الجنة[١]، ومعنى لا حول ولا قوة إلا بالله: أي: لَا تَحَوُّلَ لِلْعَبْدِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَلَا قُوَّةَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِاللهِ[٢] .

فالقسم الأول: هو الذي جمع بين العبادة والاستعانة، فعبد الله تعالى وفي نفس الوقت توكل على الله واستعان به في أمور دينه وأمور دنياه، وهذا أكمل الأحوال.

والقسم الثاني: عنده العبادة؛ فتجده كثير الصلاة، كثير الصيام، لكن عنده خلل في الاستعانة بالله وفي التوكل عليه، إما أنه -مثلًا- معجب بعمله فلا يرى أن عمله هذا إنما هذا بمعونة من الله، وإنما ينسب الفضل إلى نفسه وجهده وذكائه، فهذا القسم عنده عبادة ظاهرة لكن عنده خلل في الاستعانة بالله ﷻ والتوكل عليه.

وكذلك أيضا قد يظهر الخلل في الاستعانة والتوكل في حالة حصول المصائب أو المحن أو الخوف مما يكره، فتجد هذا النوع شديد التعلق بالأسباب، فينظر إلى الأسباب ولا يتعلق قلبه بمسبب الأسباب وهو رب العالمين، حتى يرى أنه إذا أخذ بالسبب كانت النتيجة متيقنة الحصول لا يحتاج فيها إلى عون من الله، وإذا لم يأخذ بالسبب فليس عنده التوكل والاعتماد على الله فتجده في هلع وفزع.

والقسم الثالث: عنده الاستعانة والتوكل وليس عنده العبادة، كبعض الفساق كاللصوص وقطاع الطريق، فقد تجد أن بعضهم يكون عنده التوكل على الله حتى في الحرام، يعني عنده تهاون في العبادة ومخل بالواجبات، ويقع في المحرمات، ولكن

---

[١] عن أبي موسى الأشعري ﵁، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» . [البخاري ٤٢٠٥، ومسلم ٢٧٠٤].

[٢] انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٢).

عنده قوة في الاستعانة والتوكل .

وهذا النوع هل يثاب أم يأثم على التوكل هذا؟

ابن القيم ﷺ بيَّن أنه قد يثيبه الله على أصل التوكل، لا على التوكل على الحرام، فقد تكون المعصية مخلوطة؛ خلط عملا صالحا وآخر سيئا، فقد يثيبه الله على ما في قلبه تعلقٍ بالله واعتمادٍ عليه، ولكن هو آثم من جهة أخرى؛ لأنه استعمل الاستعانة والتوكل في غير مجالها الصحيح.

والقسم الأخير: الذي لا عنده عبادة لله ولا عنده استعانة بالله ولا توكل على الله، وقلبه ليس فيه شيء من الخير، فهذا أسوأ الأحوال.

فإذًا، عطف الاستعانة على العبادة في بعض الآيات وعطف التوكل على العبادة في بعض الآيات؛ هو لتأكيد هذا المعنى، حتى يقصد المتعبد الاستعانة والتوكل بخصوصيتها؛ لأنها العون على سائر أنواع العبادة؛ لأنه لا يعبد الله ﷻ إلا بمعونته.

***

إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَكَمَالُ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَحْقِيقًا لِلْعُبُودِيَّةِ ازْدَادَ كَمَالُهُ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنْ الْعُبُودِيَّةِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ، أَوْ أَنَّ الْخُرُوجَ عَنْهَا أَكْمَلُ فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَضَلِّهِمْ.

كلما كان أعبد لله كلما كان أكمل، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم، كما مر بنا أن بعض أهل البدع يظن أنه هناك درجة أو منزلة في الدين إذا وصل إليه ارتفع عنه التكليف، وهذا كلام باطل، وإنما كلما ازداد العبد كمالا ورفعة في الدين وعلو قدر

ومنزلة كلما ازداد عبودية لله ﷻ، فالمسلم لا يخرج عن عبودية الله تعالى بحال.

ثم استدل المؤلف رحمه الله بعدة آيات لتقرير ذلك.

***

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾[الأنبياء: ٢٦-٢٨]

المشركون منهم من ادعى أن الملائكة بنات الله -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا-

واليهود ادعوا أن العُزير ابن الله، والنصارى ادعوا أن المسيح ابن الله -تعالى الله عما يقولون-.

فهؤلاء الذين ادعوا بُنوتهم لله سواء كانوا الملائكة أو العُزير أو المسيح عليهم السلام عباد مكرمون، ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وأكثر المفسرين يفسرون ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ بالماضي، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ بالمستقبل؛ بدليل قوله تعالى: «خلف من بعدهم خلف»، والخلَف هم الذين يأتون بعد السلف، ومن المفسرين من عكس فقال ما بين أيديهم المستقبل وما خلفهم الماضي .

***

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا

يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

موضع الاستشهاد من الآية هو قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾

معناها: إن جميع من في السموات ومن في الأرض هم عباد الله تعالى، لكن العبودية نوعان:

هناك عبودية الطوع وعبودية الكره، قال تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[آل عمران]

فكل من في السموات والأرض سيأتي عبدًا لله تعالى، سواء من أطاع الله وامتثل لأوامره الشرعية وكان من المؤمنين، أو من كان عبدًا لله كَرهًا كالكافر والفاسق والظالم والفاجر، فكلهم تسري عليهم أوامر الله تعالى الكونية، وهم عباد الله تعالى شاءوا أم أبوا .

***

وَقَالَ تَعَالَى فِي الْمَسِيحِ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الأنبياء: ١٩-٢٠].

قال الله تعالى عن المسيح عليه السلام وهو نبي كريم: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾، فحتى هؤلاء الأنبياء الذين صفوة خلق الله، وأولوا العزم من الرسل ؛ شرفهم الله تعالى بالعبودية، وقال تعالى عن الملائكة: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾

فإذا الملائكة الكرام وهم أيضا قد اصطفاهم الله وشرفهم، هم عباد لله ﷻ لا يستكبرون عن عبادته .

❀❀❀

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

[النساء: ١٧٢-١٧٣]

المسيح عليه السلام ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ﴾ يعني: لن يأنف أو يتعاظم أو يتكبر عن أن يكون عبدا لله ﷻ، وكذلك الملائكة المقربون من الله ﷻ لا يستكبرون عن عبادة الله.

❀❀❀

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠].

يعني: الذين يستكبرون عن عبادة الله تعالى سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين، والعبادة هنا فسرها النبي ﷺ بالدعاء، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[١] .

❀❀❀

[١] أخرجه الترمذي (٢٩٦٩)، وأبو داود (١٤٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٧) .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾[فصلت] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[الأعراف٢٠٦].

وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا فِيهِ وَصْفُ أَكَابِرِ الْمَخْلُوقَاتِ بِالْعِبَادَةِ وَذَمُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ مُتَعَدِّدٌ فِي الْقُرْآنِ.

المؤلف هنا استشهد بآيات كثيرة كما مر، وكلها تقرر هذا المعنى، وتؤكد أن صفوة الخلق وأكابر الخلق من الملائكة والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وصفهم الله تعالى بأنهم كانوا يعبدون الله تعالى وكانوا لا يستكبرون عن عبادة الله، فمن زعم أنه أفضل من الأنبياء ومن الملائكة وأنه أعلى من أن يعبد الله تبارك وتعالى فهو ضال.

وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ بِذَلِكَ.

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَمَآ﴾ و﴿إِلَّا﴾ هذا أسلوب حصر، يعني: ما بعث الله رسولًا إلا أَوْحَى إليه أن يأمر الناس بعبادة الله ﷻ.

وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] .

وَقَالَ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[البقرة: ٤١].

وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] **وَقَالَ:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦] .

قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾.

هذه الآية الكريمة قيل: نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده، أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة لإظهار التوحيد بها[١].

وقوله: «**لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**» لأنهم أسوة بأمة محمد ﷺ، وقد هاجروا فرارًا بدينهم من بأس فرعون وجنوده.

فالقصد أن كل الآيات التي ذكرها فيها أمر بالعبادة.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١١-١٥] .

---

[١] تفسير القرطبي (١٣/ ٣٥٧).

هنا خطاب لنبينا محمد ﷺ، يقول له ربه ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ فنبينا ﷺ وهو أشرف الخلق، مأمور بعبادة الله ﷻ.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يعني أول المسلمين من هذه الأمة، أو أن الإسلام هنا هو الإسلام الخاص.

و في دعاء استفتاح الصلاة: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَاشَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**»[١].

فالمسلم إذا قال: «أنا أول المسلمين» فهنا تكون الأولية مضافة أو مقيدة، يعني هو أول بالنسبة لمن بعده، فإذا دعا الله تعالى أن يكون أول المسلمين يعني بالنسبة لمن يأتي بعده ويقتدي به أن يكون قدوة في الخير ويكون سابقا إلى الخير بالنسبة لمن يأتي بعده.

***

وَكُلُّ رَسُولٍ مِنْ الرُّسُلِ افْتَتَحَ دَعْوَتَهُ بِالدُّعَاءِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، كَقَوْلِ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ - عَلَيْهِمْ السَّلَامُ -: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْت بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصِّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي»[٢].

---

[١] أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي رضي الله عنه.

[٢] أخرجه أحمد (٥١١٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٣١).

هنا يبين المؤلف أن العبودية هي أول ما يدعى إليه، وأن الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يفتتحون دعوتهم بدعاء الناس إلى عبادة الله ﷻ، فالاقتداء بالرسل يقتضي من المسلم أن يُعنى بأمر التوحيد والدعوة إلى إفراد الله بالعبادة والتحذير من الشرك، وأن يكون هذا على رأس الأولويات وأهم المهمات في الدعوة إلى الله تعالى.

ثم بين أن نبينا ﷺ بُعث بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده، فأمة محمد ﷺ من الأمم التي أُذن لها في القتال والجهاد في سبيل الله، ويُبَيّن ﷺ أن الجهاد باق إلى يوم القيامة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وأن الغاية من الجهاد هي أن يعبدَ الناسُ اللهَ ﷻ وحده لا شريك له.

«وَجُعِلَ رزق تحت ظل رمحي» أي كان النبي ﷺ يرزق من الغنيمة التي تغنم في الجهاد وما أحل الله تعالى له، فقد جعل الله له خمس الخمس من المغنم نصيبا خاصا به ﷺ، وجَعل نصيبًا لذوي قرابته من الغنائم، فجعل الله تعالى رزق النبي ﷺ من جهاده في سبيل الله ومما يغنمه من أعداء الدين وأعداء الله ورسوله ﷺ.

«وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصِّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي» أي الكافرون والفاسقون أذلاء في أنفسهم بذل المعصية حتى لو كان لهم مال وجاه والمؤمن عزيز بعز الطاعة حتى لو نقص ماله وجاهه عند الناس

***

وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ عِبَادَهُ هُمْ الَّذِينَ يَنْجُونَ مِنْ السَّيِّئَاتِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[الحجر: ٤٢].

وَقَالَ: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[ص].

وَقَالَ فِي حَقِّ يُوسُفَ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[يوسف: ٢٤].

وَقَالَ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[الصافات: ١٥٩-١٦٠].

وَقَالَ: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[النحل: ٩٩-١٠٠].

قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾كلمة المخلصين قرئت في بعض القراءات المتواترة كقراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر بالكسر: «إلا عبادك منهم المخلِصين» في كل موضع من القرآن، فهي قراءة متواترة.

والفرق بينهما أن المخلَص هو الذي اصطفاه الله، فالمخلَصين يعني المصطفين المختارين الذين اختارهم الله.

والمخلِصين يعني الذين أخلصوا العبادة لله.

فإذًا، في هذه الآيات يستشهد المؤلف على ثمرات العبودية وفضلها وما تعود به العبودية على صاحبها، فبين أن العبودية هي أول ما دعت إليه الرسل، وأن أصحابها محفوظون من الشيطان، وأن الله تعالى نعت بها من اصطفاه من خلقه وشرفهم وفضلهم، فالذين يعبدون الله تعالى ويتوكلون عليه ليس للشيطان عليهم سلطان ولا سبيل.

وَبِالْعُبُودِيَّةِ نَعَتَ كُلَّ مَنِ اصْطَفَى مِنْ خَلْقِهِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص].

وَقَالَ عَنْ سُلَيْمَانَ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وَعَنْ أَيُّوبَ: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص].

وَقَالَ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [ص: ٤١] .

وَقَالَ نُوحٌ عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] .

وَقَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] .

وَقَالَ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] .

وَقَالَ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] .

وَقَالَ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] .

وَقَالَ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] .

وَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] .

وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ مُتَعَدِّدٌ فِي الْقُرْآنِ.

«**نَعَتَ**» يعني: وصف الله تعالى كل من اصطفاه من خلقه وصفهم بالعبودية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ يعني اصطفيناهم وفضلناهم

بخصلة أو بصفة، وهي ذكرى الدار، يعني كثرة ذكرهم للدار الآخرة، فهم كانوا دائمي الذكر للقاء الله ﷻ.

وقوله تعالى عَنْ سُلَيْمَانَ وَعَنْ أَيُّوبَ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ الأواب هو كثير الرجوع إلى الله، كثير التوبة والاستغفار.

فأيوب ﷺ ابتلي فصبر؛ فقال الله عنه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وسليمان ﷺ أنعم عليه فشكر، فقال الله عنه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

فهما طريقان يوصلان للمدح، وفي ذلك يقول مطرف بن عبد الله الشخير رحمه الله[١]: «**لَأَنْ أُعَافَى فَأَشْكُرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنِ ابْتَلَى فَأَصْبِرَ**».

وقد سأل رجل الإمامَ سفيان بن عيينة عن قول مطرف هذا، فقال له: «يا أبا محمد، أخبرني عن قول مطرف: «**لَأَنْ أُعَافَى فَأَشْكُرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنِ ابْتَلَى فَأَصْبِرَ**» أهو أحب إليك أم قول أخيه أبي العلاء: «**اللهُمَّ رَضِيتُ لِنَفْسِي مَا رَضِيتَ لِي**»؟

فقال: «**قَوْلُ مُطَرِّفٍ أَحَبُّ إِلَيَّ**». فقال الرجل: كيف وقد رضي هذا لنفسه ما رضيه الله له؟ فقال سفيان: «**إِنِّي قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَوَجَدْتُ صِفَةَ سُلَيْمَانَ ﷺ مَعَ الْعَافِيَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا** ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، **وَوَجَدْتُ صِفَةَ أَيُّوبَ ﷺ مَعَ الْبَلَاءِ الَّذِي كَانَ فِيهِ** ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] **فَاسْتَوَتِ الصِّفَتَانِ، وَهَذَا مُعَافًى، وَهَذَا مُبْتَلًى، فَوَجَدْتُ الشُّكْرَ قَدْ قَامَ مَقَامَ الصَّبْرِ، فَلَمَّا اعْتَدَلَا كَانَتِ الْعَافِيَةُ مَعَ الشُّكْرِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ**

---

[١] مطرف بن عبد الله بن الشخير، أبو عبد الله، الحرشي العامري. من كبار التابعين، له كلمات في الحكمة مأثورة، روى عن أبيه وعلي وعمار وأبي ذر وعثمان وعائشة وعثمان بن أبي العاص وعمران بن الحصين وعبد الله بن مغفل المزني وغيرهم رضي الله عنهم، وحدث عنه الحسن البصري وأخوه يزيد بن عبد الله وقتادة وثابت البناني وغيرهم. [طبقات ابن سعد ٧ / ١٤١، تهذيب التهذيب ١٠ / ١٧٣، وتذكرة الحفاظ ١ / ٦٠ والبداية والنهاية ٩ / ٦٩، والنجوم الزاهرة ١ / ٢١٤، وشذرات الذهب ١ / ١١٠]

الْبَلَاءِ مَعَ الصَّبْرِ»[١].

فأمر المؤمن كله خير، كما قال النبي ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[٢]. لكن المؤمن لا يتمنى البلاء، بل يتمنى العافية، وإذا عوفي المؤمن وشكر الله واستعان بنعم الله على طاعته واستعملها في مرضاته، فهو إن شاء الله نعم العبد. وباقي الآيات قد سبق بيانها.

فَصْلٌ

إِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاضَلُونَ فِي هَذَا الْبَابَ تَفَاضُلًا عَظِيمًا، وَهُوَ تَفَاضُلُهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ.

وَهُمْ يَنْقَسِمُونَ فِيهِ إِلَى: عَامٍّ، وَخَاصٍّ، وَلِهَذَا كَانَتْ رُبُوبِيَّةُ الرَّبِّ لَهُمْ فِيهَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ، وَلِهَذَا كَانَ الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ.

الناس يتفاضل بعضهم على بعض تفاضلًا عظيمًا في باب الإيمان.

فالله ﷻ هو الرب المالك، والمدبر والمتصرف، والخالق ﷻ، فالله عز وجل هو رب العالمين، لكن هناك من عبد الله طوعًا، وهناك من عبد الله كرهًا.

فمن عبد الله طوعًا، فالله تعالى يخصهم بهدايتهم وإنارة قلوبهم بالإيمان وإكرامهم بالجنة، فالله تعالى رب هؤلاء يدبر أمرهم ويصرف أمورهم، فهذه هي الربوبية الخاصة.

---

[١] حلية الأولياء (٧/ ٢٨٣).

[٢] أخرجه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب رضي الله عنه.

أما الربوبية العامة، فهي للذين عبدوا الله كرها فهم عباد الله أيضا وهو ربهم ﷻ، لكن في تدبير الله تعالى لأمرهم؛ لا يكرمهم الله بما أكرم به المؤمنين ولا يرحمهم بما رحم به المؤمنين.

قال تعالى عن الكافرين: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾[العنكبوت].

ثم إن عبودية المؤمنين الخاصة درجات ؛ ليس المؤمنون جميعا في درجة واحدة وإنما تتفاوت مراتبهم بحسب تفاوت عبادتهم لله ﷻ.

قوله: «**وَلِهَذَا كَانَ الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**».

وصف النبي ﷺ الشرك بأنه أخفى من دبيب النمل، فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»[١].

وهذا مثل الرياء، الذي سماه النبي ﷺ: «الشرك الخفي» فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»[٢].

فالرياء سماه: «الشرك الخفي» أخفى من دبيب النمل، يعمل العمل الصالح يريد به مدح الناس ويريد به الجاه والثناء من الناس .

❊ ❊ ❊

---

[١] أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٦) عن أبي بكر ﷺ، وصححه الشيخ الألباني.

[٢] أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة» .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ»[١].

فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدَ الدِّينَارِ، وَعَبْدَ الْقَطِيفَةِ، وَعَبْدَ الْخَمِيصَةِ.

القطيفة والخميصة أنواع من من الثياب والأقمشة.

وفي هذا الموضع يبين المؤلف ﷺ مسألة تتعلق بالعبودية، وهي أنه من لم يكن عبدًا لله تعالى كان عبدًا لغيره ولابد.

فيؤكد على هذا المعنى ويقرره في الصفحات القادمة، أنه من لم يكن عبدا لله فإنه سيكون، عبدا لغير الله ولابد.

فالإنسان بطبيعته مفطور على العبودية، فعبوديته لله كرها لا مفر له منها، وإن فر من عبودية الطوع لله تعالى فسيصرفها لمخلوق مثله أو لمخلوق أدنى منه.

ولهذا يقول ابن القيم ﷺ في نونيته:

هربوا من الرق الذي خلقوا له   فبلوا برق النفس والشيطان[٢]

يعني صار عبدًا لهوى نفسه، وصار عبدًا للشيطان وعبدًا للأوثان.

فالحديث هنا شاهد لهذا المعنى، فهناك من يعبد الدينار، ومن يعبد الدرهم.

وهناك من يعبد الشيطان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾[يس].

---

[١] أخرجه البخاري (٢٨٨٧) عن أبي هريرة ﷺ.

[٢] نونية ابن القيم (٣٠٨).

وهناك من يعبد هوى نفسه فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية: ٢٣].

وَذَكَرَ مَا فِيهِ دُعَاءً وَخَبَرًا، وَهُوَ قَوْلُهُ: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتُقِشَ» وَالنَّقْشُ: إِخْرَاجُ الشَّوْكَةِ مِنْ الرِّجْلِ، وَالْمِنْقَاشُ: مَا يُخْرَجُ بِهِ الشَّوْكَةُ.

هنا في قول النبي ﷺ دعاء وخبر:

أما الدعاء: فقوله ﷺ: «**تَعِسَ وَانْتَكَسَ**» يعني: خسر وخاب، فالانتكاس يأتي بمعنى الذل والهوان.

وأما الخبر: فقوله ﷺ: «**وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتُقِشَ**» يعني إذا دخلت في رجله الشوكة فلا أخرجت منه وظلت في رجله يتألم بها .

وهنا إشارة إلى مسألة أخرى تتعلق بالعبودية، وهي أن بعض من يعبد الله ﷻ يعبده على حرف، أي: على حالة أو نوع أو قِسْم، فيعبد الله في حالة دون الحالة الأخرى.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾[الحج].

يعني إذا كانت عبادة الله تجلب له المنافع الدنيوية، أو لا تتعارض مع مصالح دنياه ولا مع أهواء نفسه؛ عبد الله طوعا، طالما عبادته لله لا تعرضه لأي ضرر لدنياه ولا تنقص شيئا من جاهه ولا من ملكه ولا من ماله، ولا تتعارض مع أهواء نفسه .

أما مع أول شدة أو محنة تصيبه؛ فينقلب على وجهه .

فهذا قسم يعبد الله في الرخاء فقط، وأما في الشدة فإنه لا يعبد الله تعالى، بل يرتد على عقبيه مع أول امتحان يمتحن به بسبب عبادته لله تعالى.

والله ﷻ يبتلي المؤمنين كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

فهذا النوع الذي يعبد الله في حالة الرخاء مع أول امتحان واختبار ينقلب على وجهه، ولا يريد العبادة إذا كان كفره بالله تعالى سيجلب له مالًا أكثر ويجلب له منصبًا وجاهًا.

وهناك من الناس عكس هؤلاء، وهو من يعبد الله في وقت الشدة، ففي حالة الشدة يتضرع إلى الله ويلجأ إليه ويخلص لله تعالى الدعاء، ثم إذا أصابه الرخاء؛ انقلب على وجهه، وهذا النوع ذُكر في كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ [التوبة].

وقال تعالى عن المشركين: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت] .

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾ [لقمان].

فإذًا، هنا يتكلم شيخ الإسلام عن عبادة الله تعالى في حالي الرخاء والشدة، وأن العبد المؤمن الذي كمُلت عبوديته يعبد الله تعالى في الرخاء وفي الشدة، فهناك عبودية الرخاء، وهي شكر الله تعالى واستعمال نعمه في طاعته وعدم التكبر بها ، وهناك عبودية الشدة، وهي التضرع إلى الله، والصبر على البلاء.

وَهَذِهِ حَالُ مَنْ إذَا أَصَابَهُ شَرٌّ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ وَلَمْ يُفْلِحْ؛ لِكَوْنِهِ تَعِسَ وَانْتَكَسَ، فَلَا نَالَ الْمَطْلُوبَ وَلَا خَلَصَ مِنْ الْمَكْرُوهِ.

وَهَذِهِ حَالُ مَنْ عَبَدَ الْمَالَ، وَقَدْ وَصَفَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ «إذَا أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِذَا مُنِعَ سَخِطَ» .

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة: ٥٨] **فَرِضَاهُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَسُخْطُهُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَهَكَذَا حَالُ مَنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِرِئَاسَةٍ أَوْ بِصُورَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ، إنْ حَصَلَ لَهُ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ سَخِطَ، فَهَذَا عَبْدُ مَا يَهْوَاهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ رَقِيقٌ لَهُ، إذْ الرِّقُّ وَالْعُبُودِيَّةُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ رِقُّ الْقَلْبِ وَعُبُودِيَّتُهُ، فَمَا اسْتَرَقَّ الْقَلْبَ وَاسْتَعْبَدَهُ فَهُوَ عَبْدُهُ.**

اللمز هو الطعن والعيب، فالمنافقون كانوا يلمزون النبي ﷺ والمؤمنين، ويعيبونهم ويسخرون منهم، إن أعطوا من الصدقات رضوا عن قسمة النبي ﷺ، وإن لم يعطوا منها؛ إذا هم يسخطون، وبعضهم اتهم النبي ﷺ من جهة عدالته في قسمة الأموال .

وهذا حال من يتعلق بشيء من الدنيا، إذا أعطي منه رضي وعبد الله، وإذا لم يعط منه سخط وأعرض عن الله وعن عبادته.

ومن أمثلة هؤلاء هرقل قيصر الروم، لما جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام، أرسل إلى أبي سفيان ومن معه من المشركين وكانوا تجارًا بالشام يومئذ، فسأل أبا سفيان عن النبي ﷺ ونسبه وصفته وأحواله، فوجدتها كلها منطبقة على صفات النبي الخاتم، وكان هرقل من علماء أهل الكتاب، فقال لأبي سفيان: «**إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي**

أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ» .

فأراد هرقل أن يسلم لكن بشرط ألا يخسر ملكه، فجمع عظماء الروم وأغلق الأبواب، ثم قال لهم: «**يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الفَلَاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟**».

فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ، قَالَ: «**رُدُّوهُمْ عَلَيَّ**»، وَقَالَ: «**إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ**»، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ[١].

فلما وجد أن إسلامه سيؤدي بهم إلى أن يخلعوه من الملك، نكص على عقبيه، فقال لهم: إنما أردت أن أختبر إيمانكم.

ولما ظهر أمر النبي ﷺ بعد ذلك؛ خرج هرقل يقاتل المسلمين في غزوة مؤتة.

ثم في غزوة تبوك خرج أيضا هرقل بجيش كبير لقتال رسول الله ﷺ .

فهو في قرارة نفسه كان يعلم أن النبي ﷺ على حق، لكنه لم يؤمن به ولم يتبعه، ولم يفرد الله تعالى بالعبادة خوفًا على الملك والجاه.

ونفس الشيء ينطبق على اليهود، وعلى الذين كانوا يعلمون أن النبي ﷺ على حق ولكن آثروا الملك وآثروا الرياسة، ومن أشبههم من المسلمين ممن يؤثر المال والرياسة على عبودية الله تعالى، فهذا هو الذي يعبد الله ﷻ في السراء، لكن في الضراء لا يعبد الله تعالى.

بينما قص الله تعالى علينا حال سحرة فرعون وتهديد فرعون لهم، قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ

---

[١] أخرجه البخاري (٧) عن ابن عباس، عن أبي سفيان رضي الله عنه.

ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ [طه].

فهنا يظهر حال المؤمن الذي يعبد الله تعالى في السراء والضراء.

فيقول ﷺ: هذا حال هؤلاء الذين عبدوا المال؛ لأنهم إذا أعطوا المال رضوا، فولاؤهم لمن يعطيهم المال؛ إذا كانت الأموال تأتيهم عن طريق الإسلام والمسلمين فولاؤهم للمسلمين، ليس من أجل الإسلام ولكن من أجل المال للذي يأتيهم من ورائهم، وإن منعوا منه أو كان في إسلامهم نقصان في أموالهم؛ سخطوا.

ولذلك قال: «**فَرِضَاهُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَسُخْطُهُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَهَكَذَا حَالُ مَنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِرِئَاسَةٍ أَوْ بِصُورَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ، إِنْ حَصَلَ لَهُ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ سَخِطَ، فَهَذَا عَبْدُ مَا يَهْوَاهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ رَقِيقٌ لَهُ، إِذْ الرِّقُّ وَالْعُبُودِيَّةُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ رِقُّ الْقَلْبِ وَعُبُودِيَّتُهُ، فَمَا اسْتَرَقَّ الْقَلْبَ وَاسْتَعْبَدَهُ فَهُوَ عَبْدُهُ**».

إذا فالحرية الحقيقة في عبادة الله ﷻ، فأن تكون عبدا لله فقد عتقت من الرق لكل ما سوى الله ﷻ، لكن الذي يأبى أن يعبد الله تعالى سيصبح عبدا لغير الله ويُسترق للمال أوالهوى أوالشيطان.

وَلِهَذَا يُقَالُ:

الْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنِعَ   وَالْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمِعَ

وَقَالَ الْقَائِلُ:

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي   وَلَوْ أَنِّي قَنِعْت لَكُنْتُ حُرًّا

وَيُقَالُ: الطَّمَعُ غُلٌّ فِي الْعُنُقِ قَيْدٌ فِي الرِّجْلِ، فَإِذَا زَالَ الْغُلُّ مِنْ الْعُنُقِ زَالَ الْقَيْدُ مِنْ الرِّجْلِ.

وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﵁ أَنَّهُ قَالَ: «الطَّمَعُ فَقْرٌ، وَالْيَأْسُ غِنًى، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ إذَا يَئِسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ»[١].

العبد إذا كان قانعًا فهو حر، حتى لو كان عبدًا مملوكا لكنه يرضى بما قسم الله فهو حر، والحر عبد ما طمع.

ولهذا النبي ﷺ يقول: «لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[٢].

يعني أن تكون نفسك غنية عن ما سوى الله ﷻ، فهذا هو الغنى الحقيقي، لكن لو كثر المال والإنسان يطمع في المزيد ويستقل ما عنده، ولا يزال قلبه طامعًا فيما في يد غيره؛ فيظل فقير النفس، ومهما كثر ماله فهو فقير لأنه محتاج إلى ما عند غيره.

لكن طالما قنع ورضي بما أعطاه الله فهو الغني حقًّا؛ لأنه استغنى بالله واستغنى عن الناس.

---

[١] أخرجه نعيم بن حماد في «الزهد» (٦٣١).

[٢] أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، مسلم (١٠٥١) عن أبي هريرة ﵁.

ويقول النبي ﷺ قال: «ارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ»[١].

ولهذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

غني بلا مال عن الناس كلهم وليس الغنى إلا عن الشيء لا به

فالإمام الشافعي رحمه الله يقول عن نفسه: «**غني بلا مال**»، لأنه غني عن الناس كلهم، فالغنى هو الغنى عن الشيء لا بالشيء.

قوله: «**الطَّمَعُ غُلٌّ فِي الْعُنُقِ قَيْدٌ فِي الرِّجْلِ، فَإِذَا زَالَ الْغُلُّ مِنَ الْعُنُقِ زَالَ الْقَيْدُ مِنَ الرِّجْلِ**».

الغُّل هو الحبل الذي يُربط به العنق، والقيد هو ما يربط به الرِّجل،فالطمع غل في عنق الإنسان، وهو يقيد رجله عن الخير، فإذا زال هذا الغل الذي في عنقه يعني إذا زال عنه الطمع؛ زال القيد الذي في رجله، وانطلق إلى الخير.

***

وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يَيْأَسُ مِنْهُ لَا يَطْلُبُهُ وَلَا يَطْمَعُ بِهِ، وَلَا يَبْقَى قَلْبُهُ فَقِيرًا إِلَيْهِ، وَلَا إِلَى مَنْ يَفْعَلُهُ.

وَأَمَّا إِذَا طَمِعَ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَرَجَاهُ؛ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهِ، فَصَارَ فَقِيرًا إِلَى حُصُولِهِ، وَإِلَى مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ سَبَبٌ فِي حُصُولِهِ، وَهَذَا فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالصُّوَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

مثال ذلك أن الإنسان إذا لم يكن عنده أملٌ أن يكون رئيس الدولة، فإن هذا الموضوع

---

[١] أخرجه الترمذي (٢٣٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

لا يشغل باله، ولا ينافس على هذا ولا يتعلق قلبه به؛ فيستغنى عنه ولا يشعر بأنه أمر له أهمية بالنسبة له، لأنه يئس منها؛ فاستغنى عنها.

وأما إذا طمع في أمر من الأمور كالمال أو الجاه أو الصور، تعلق قلبه به وصار فقيرا إليه، والصور كتعلق قلب الرجل بامرأة حسناء أو تعلق قلب المرأة برجل

ويكثر المؤلف ﵀ من التحذير من تعلق القلب بامرأة معينة بحيث يكون متيما بها؛ لأن هذا داء وبلاء يقع فيه كثير من الناس،، وهذا نوع من أنواع العبودية لغير الله.

***

قَالَ الْخَلِيلُ ﷺ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فَالْعَبْدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ رِزْقٍ، وهو مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ، فَإِذَا طَلَبَ رِزْقَهُ مِنَ اللَّهِ صَارَ عَبْدًا لِلَّهِ، فَقِيرًا إِلَيْهِ، وَإِذا طَلَبَهُ مِنْ مَخْلُوقٍ صَارَ عَبْدًا لِذَلِكَ الْمَخْلُوقِ فَقِيرًا إِلَيْهِ.

الخليل إبراهيم ﵇ يأمر قومه فيقول: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ يعني: اطلبوا الرزق من الله لا تطلبوه من البشر.

ثم يذكر المؤلف التعليل وهو أنك إذا طلبت الرزق من الله صرت فقيرًا إلى الله ﷻ، وأما إذا طلبت الرزق من المخلوق صرت مفتقرًا إلى المخلوق.

والمقصود: أن المخلوق إنما هو السبب يوصل إليك الرزق، أما الرازق فهو الله ﷻ، وهذا المخلوق إنما استعمله الله تعالى ليوصل لك الرزق عن طريقه.

وهذا لا يعارض أن النبي ﵊ قال: «**مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ**»[١]، فالمؤمن

---

[١] أخرجه الترمذي (١٩٥٤) عن أبي هريرة ﵁، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

يشكر من كان سببًا في حصول الإحسان إليه ووصول الرزق إليه، ولكن يشكره باعتباره سببًا وليس باعتباره مسببًا، ولا يكون قلبه متعلقا بهذا الشخص، وظانا أن هذا الشخص الذي جاء الرزق عن طريقه لو مات أو سافر أن الرزق سينقطع.

لا، هو مجرد وسيلة وصل الله الرزق إليك من خلاله، فإذا ذهب هذا الشخص والله تعالى يريد أن يرزقك فسيهيئ وسيلة أخرى وسببا آخر لتوصيل الرزق إليك.

***

وَلِهَذَا كَانَتْ «مَسْأَلَةُ الْمَخْلُوقِ» مُحَرَّمَةً فِي الْأَصْلِ، وَإِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلضَّرُورَةِ، وَفِي النَّهْيِ عَنْهَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي الصِّحَاحِ، وَالسُّنَنِ، وَالْمَسَانِيدِ:

كَقَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ»[١].

وَقَوْلِهِ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشًا أَوْ خُمُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ»[٢].

سؤال الناس يعني الشحاذة، والتسول، أو طلب المال من الناس، كل هذا محرم في الأصل، لكن أبيح للضرورة.

وهذه المسألة فيها تفصيل:

فمن يسأل حقًّا له، كمن له دَيْن عند شخص، أو حق كنفقة واجبة من الزوجة لزوجها، أو طلب الوالد من ابنه، أو طلب الزوج من زوجته أمرا جعله الله تعالى حقا

---

[١] أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠) عن عبد الله بن عمر.

[٢] أخرجه ابن ماجه (١٨٤٠)، عن ابن مسعودرض، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة».

له عليها ، فهذا حلال.

وكذلك من يسأل الناس أن يتصدقوا على المحتاجين، فهذا لا يدخل في سؤال الناس، لأن الله تعالى قال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء].

وكان نبينا ﷺ يحث الناس على الصدقة ويأمرهم بها.

أما من يسأل الناس وعنده ما يكفيه، فهذا هو المحرم.

وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ، تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا**»[١].

قَوْلُهُ ﷺ: «مُزْعَةُ لَحْمٍ» .

المزعة هي قطعة اللحم الصغير.

والحديث الثاني: «**مَنْ سَأَلَ، وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ، جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشًا، أَوْ خُمُوشًا، أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ**» . يعني كلما الإنسان سأل وله ما يغنيه؛ كلما انخدش وجهه كأن قطعة لحم سقطت من وجهة، فيظل كذلك، حتى يأتي يوم القيامة

---

[١] أخرجه مسلم (١٠٤٤) عن قبيصة بن مخارق رضي الله عنه.

وليس في وجهة مزعة لحم من كثرة ما سأل الناس .

وَقَوْلِهِ: «لَا تَحِلُّ الْمَسْأَلَةُ إِلَّا لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ، أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ»[١] هَذَا الْمَعْنَى فِي الصَّحِيحِ[٢].

وَفِيهِ أَيْضًا: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَذْهَبَ فَيَحْتَطِبَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»[٣] .

وَقَالَ: «مَا أَتَاكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ سَائِلٍ وَلَا مُشْرِفٍ فَخُذْهُ، وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَك»[٤].

فَكُرِهَ أَخْذُهُ مِنْ سُؤَالِ اللِّسَانِ وَاسْتِشْرَافِ الْقَلْبِ.

غُرْم مُفْظِع: هو الدَّيْن الثقيل الذي يعجز عن أدائه.

دَم مُوجِع: وهي الدية.

فَقْرٍ مُدْقِعٍ: وهو الفقر الشديد، سمي مدقعًا لأن الدقعاء هي الأرض، فالفقر المدقع يعني الذي ألصقه بالأرض، فهو كناية عن شدة الفقر.

وقوله: «**هَذَا الْمَعْنَى فِي الصَّحِيحِ**» .

---

[١] أخرجه أبو داود (١٦٤١)، وابن ماجه (٢١٩٨) عن أنس ﷺ، وضعفه الألباني ﷺ.

[٢] روى الإمام مسلم (١٠٤٤) عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ، قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ**، ....» . وقد مر من قليل.

[٣] أخرجه البخاري (١٤٧٠) عن أبي هريرة ﷺ.

[٤] أخرجه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥) عن عمر ﷺ.

يعني جاءت أحاديث بهذا المعنى في البخاري ومسلم، أو في أحدهما.

وقوله: «**وَفِيهِ أَيْضًا**» يعني في الصحيح، صحيح البخاري، وهذا الحديث في ذم المسألة وهو يعضد الأحاديث السابقة ويؤكد معناه.

الاستشراف: هو التطلع إلى الشيء.

❊ ❊ ❊

وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ»[١].

في هذا الحديث الأمر بالاستغناء بالله سبحانه عن الناس بالله ﷻ.

ومن العبادة المحمودة أو من المقامات والأحوال القلبية المحمودة: عبادة الفقر، وعبادة الغنى.

فعبادة الفقر، هي الافتقار إلى الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر] يعني: أن المؤمن يشعر بحاجته إلى الله ويسأل الله حاجته.

وعبادة الغنى، هي الغنى بالله، أو الاستغناء بالله عن الناس.

ففي حق المؤمن يُمدح المؤمن بغناه بالله تعالى واستغنائه عن الناس، وإذا مُدح بفقره فالمقصود افتقاره إلى الله ﷻ لا إلى الناس.

❊ ❊ ❊

وَأَوْصَى خَوَّاصَّ أَصْحَابِهِ أَنْ لَا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا.

---

[١] أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

وَفِي الْمُسْنَدِ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِهِ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ نَاوِلْنِي إِيَّاهُ، وَيَقُولُ: «خَلِيلِي أَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا»[١].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَغَيْرِهِ: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ «أَنَّ النَّبِيَّ بَايَعَهُ فِي طَائِفَةٍ وَأَسَرَّ إِلَيْهِمْ كَلِمَةً خَفِيَّةً: أَنْ لَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا، فَكَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِ أَحَدِهِمْ، وَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ نَاوِلْنِي إِيَّاهُ» .

من الأخلاق المذمومة عند بعض الناس؛ أن يسأل من لا حقَّ له عليه، من نظرائه أو ممن هم فوقه يكلفهم بأشياء، يقول له: ناولني كذا، واحضر لي كذا وافعل لي، حتى لو كان لا يسأل مالًا، فهذا مما لا ينبغي .

ويستثنى من الذم من لك حق عليه، كالوالد يطلب من ولده، والزوج يطلب من زوجته، أو سؤال الإنسان لخادمه، أو رئيس العمل يطلب من الموظفين عنده، فلا إفراط ولا تفريط، فليس معنى النهي عن سؤال الناس أن مدير العمل لا يطلب من الموظفين شيئا، أو الخادم لا يُطلَب منه شيء، أو أن الرجل لا يطلب من زوجته، أو أولاده، فهذا لا حرج فيه، لأنك تطلب حقًّا لك عندهم.

وَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَى الْأَمْرِ بِمَسْأَلَةِ الْخَالِقِ، وَالنَّهْيِ عَنْ مَسْأَلَةِ الْمَخْلُوقِ، فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾[الشرح: ٧-٨]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»[٢] .

---

[١] أخرجه أحمد (٦٥) .

[٢] أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قوله تعالى: ﴿فَٱنصَبۡ﴾ يعني فاجتهد في عبادة الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ يعني: الجأ إلى الله تعالى واطلب منه وسله حاجتك.

وقول النبي ﷺ لابن عباس: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْت فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ**» هذا نص آخر فيه أمر بمسألة الخالق سبحانة وتعالى، أن الإنسان يطلب من الله ﷻ أن يقضي حوائجه.

***

وَمِنْهُ قَوْلُ الْخَلِيلِ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾[العنكبوت: ١٧] وَلَمْ يَقُلْ: فَابْتَغُوا الرِّزْقَ عِنْدَ اللَّهِ، لِأَنَّ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ يُشْعِرُ بِالِاخْتِصَاصِ وَالْحَصْرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَبْتَغُوا الرِّزْقَ إلَّا عِنْدَ اللَّهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾[النساء: ٣٢] .

أسلوب الحصر هوأسلوب القصر، يسمونه فى النحو: الحصر، وفى البلاغة: القصر.

فمنه: تقديم الظرف، يعنى أصل الجملة: «فابتغوا الرزق عند الله»، لكنه سبحانه قدم الظرف ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ لأن تقديم الظرف يُشعر بالاختصاص و الحصر، كأنه قال: ولا تبتغوا الزرق إلا عند الله.

***

وَالْإِنْسَانُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حُصُولِ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ الرِّزْقِ وَنَحْوِهِ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ.

وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ شُرِعَ لَهُ أَنْ يَكُونَ دُعَاؤُهُ لِلَّهِ، فَلَا يَسْأَلَ رِزْقَهُ إلَّا مِنَ اللَّهِ، وَلَا

يَشْتَكِي إِلَّا إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ يَعْقُوبُ عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٦] .

الإنسان بطبيعته بحاجه إلى طلب ما ينفع، وكذلك الشكوى مما يضر.

وكلا الأمرين شرع له التوجه فيهما إلى الله، بالدعاء وطلب الرزق والخير والشكوى مما يضره ويؤلمه أو يتأذى منه .

فلا يسأل رزقه إلا من الله ولا يشتكي إلا إليه، كما فعل يعقوب عليه السلام .

***

وَاللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ: «الْهَجْرَ الْجَمِيلَ»، «وَالصَّفْحَ الْجَمِيلَ»، «وَالصَّبْرَ الْجَمِيلَ» .

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْهَجْرَ الْجَمِيلَ هُوَ هَجْرٌ بِلَا أَذًى.

وَالصَّفْحَ الْجَمِيلَ صَفْحٌ بِلَا مُعَاتَبَةٍ.

وَالصَّبْرَ الْجَمِيلَ: صَبْرٌ بِغَيْرِ شَكْوَى إِلَى الْمَخْلُوقِ.

هذه الأمور الثلاثة ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾[المزمل: ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾[الحجر: ٨٥] .

وقال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾[يوسف: ١٨].

«فالْهَجْر الْجَمِيل هُوَ هَجْرٌ بِلَا أَذًى» يعني أن الإنسان يهجر عدوه لكن من غير أن يؤذيه، يعني يتركه وشانه ويبتعد عنه من غير أن يؤذيه.

«وَالصَّفْح الْجَمِيل: صَفْحٌ بِلَا مُعَاتَبَةٍ» هو العفو عن المسيء، ويكون الصفح جميلًا إذا خلا من المعاتبة، يعني الإنسان إذا عفا عن المسيء لكن ظل يوبخه و يعاتبه ويقول له: «أسأت في كذا وفي كذا وسأعفو عنك ولن أعاقبك » فهذا صفح ولكنه ليس جميلاً، أما الصفح الجميل فهو التغاضي عما حصل في السابق من غير معاتبة.

«وَالصَّبْرَ الْجَمِيلَ: صَبْرٌ بِغَيْرِ شَكْوَى إِلَى الْمَخْلُوقِ» .

الصبر في اللغة معناه: الحبس.

وفي الشرع: هو حبس ثلاثة أشياء:

الأول: حبس النفس عن التسخط على قدر الله.

الثاني: حبس اللسان عن الشكوى إلى مخلوق.

الثالث: حبس الجوارح عن المعصية التي لها علاقة بالاعتراض على المصيبة أو إظهار الضجر منها، كلطم الخدود، وشق الجيوب، وشق الثياب، وحلق الشعر مثل هذه الأفعال التي تصدر من بعض الناس عند المصيبة.

***

وَلِهَذَا قُرِئَ عَلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي مَرَضِهِ أَنَّ طَاوُسًا[١] كَانَ يَكْرَهُ أَنِينَ الْمَرِيضِ وَيَقُولُ: إِنَّهُ شَكْوَى. فَمَا أَنَّ أَحْمَدُ حَتَّى مَاتَ.

---

[١] طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء، أبو عبد الرحمن. (٣٣ - ١٠٦ هـ)أصله من الفرس، مولده ومنشؤه في اليمن، من كبار التابعين في الفقه ورواية الحديث،، كان ذا جرأة على وعظ الخلفاء والملوك، توفي حاجًا بالمزدلفة أو منى. وصلى عليه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك.[الأعلام للزركلي؛ وتهذيب التهذيب ٥ / ٨؛ وابن خلكان ١ / ٢٣٣] .

قال الإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل: «قَالَ أَبِي فِي مَرَضِه: أَخرِجْ كِتَابَ عَبْدِ اللهِ بنِ إِدْرِيْسَ، فَقَالَ: اقرَأْ عَليَّ حَدِيْثَ لَيْثٍ: أَنَّ طَاوُوْساً كَانَ يَكْرَهُ الأَنِيْنَ فِي المَرَضِ، فَمَا سَمِعْتُ لأَبِي أَنِيناً حَتَّى مَاتَ»[١].

فإذًا، حبس الألم والتظاهر بالعافية حتى لو كان الإنسان يتألم ويجتهد ألا يَئِنّ ولا يظهر الشكوى فهذا من كمال الصبر.

والعلماء يفصلون في الشكوى إلى المخلوق:

فشكوى الخالق إلى المخلوق تتنافى مع الصبر وتتعارض معه إذا كان يشكو إليه ما أصابه من الله تعالى كأنه معترض على قضاء الله.

وهناك نوع آخر وهو الشكوى بغرض طلب المساعدة أو المعاونة من المخلوق في شئ يقدر عليه المخلوق فيشكو إليه أن ضُراً أصابه وليس اعتراضاً على قضاء الله ولكن مع الرضا والتسليم ولكن هو بحاجه إلى مساعدة أو أعطائه دواءً أو الذهاب به إلى طبيب، وليس غرضه الاعتراض على الله تعالى، فهذا بإذن الله معفو عنه.

وقد ورد أن النبي ﷺ قال: «وا رأساه»، فعن أم المؤمنين عَائِشَة قالت: «**وَا رَأْسَاهْ**»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاهْ**»[٢].

فليس غرضه ﷺ الاعتراض على قضاء الله حاشاه ﷺ.

وَأَمَّا الشَّكْوَى إِلَى الْخَالِقِ فَلَا تُنَافِي الصَّبْرَ الْجَمِيلَ؛ فَإِنَّ يَعْقُوبَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ

---

[١] سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٠٥).

[٢] أخرجه البخاري (٥٦٦٦).

جَمِيلٌ﴾[يوسف: ١٨] وَقَالَ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٦] .

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ بِسُورَةِ يُونُسَ، وَيُوسُفَ، وَالنَّحْلِ فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي قِرَاءَتِهِ فَبَكَى حَتَّى سُمِعَ نَشِيجُهُ مِنْ آخِرِ الصُّفُوفِ.

كان عمر ابن الخطاب ﷺ يقرأ في الفجر فلما مر بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٦] بكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف .

***

وَمِنْ دُعَاءِ مُوسَى: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، وَإِلَيْك الْمُشْتَكَى، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ، وَعَلَيْك التُّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِك».

هنا الشاهد أن الدعاء اشتمل على شكوى إلى الله في قوله: «**وَإِلَيْك الْمُشْتَكَى**»

***

وَفِي الدُّعَاءِ الَّذِي دَعَا بِهِ النَّبِيُّ لَـمّا فَعَلَ بِهِ أَهْلُ الطَّائِفِ مَا فَعَلُوا: «اللَّهُمَّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي. اللَّهُمَّ إلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إلَى عَدُوٍّ مَلَّكْته أَمْرِي، إنْ لَمْ يَكُنْ بِك غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَك أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الَّذِي أَشْرَقَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُك، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُك، لَك الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِك» - وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ - «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِك» .

كان النبي ﷺ دعا أهل مكة فقلَّت استجابتهم وآذوا النبي ﷺ وآذوا أصحابه، فذهب إلى الطائف لعل أهل الطائف يكونون أحسن استجابة له ﷺ، وكان هذا اليوم أشد ما

لاقى النبي ﷺ كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ قالت: «**هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟**».

لأن يوم أحد استُشهد سبعون من المسلمين منهم عمه حمزة رضي الله عنه وجرح النبي ﷺ وكاد أن يقتل.

فقالت: «**هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟**» فَقَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ**» .

وقصة الطائف: «أن رسول الله ﷺ عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه:

فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك- أي: يمزق ثياب الكعبة.

وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك!

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من ثقيف، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه، فيثيرهم ذلك ويجرئهم عليه.

فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من

سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد ﷺ إلى ظل شجرة من العنب، فجلس فيه.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس**، ....» الدعاء[١].

والشاهد أن النبي ﷺ شكا إلى الله ﷻ ما أصابه، فأرسل الله ﷻ إليه ملك الجبال في عودته من الطائف، قال ﷺ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[٢].

والأخشبان: جبلان يحيطان بمكة، قيل: هما جبل أبي قبيس وجبل قعيقيعان .

فالشاهد من الحديث: أن النبي ﷺ اشتكى إلى الله ﷻ.

فإذًا، الشكوى إلى الله عزّ وجل هي من العبودية لله ﷻ، فالمؤمن يشكو إلى الله ﷻ، ولا يشكو الخالق إلى المخلوق.

ويقول القائل[٣]:

---

[١] سيرة ابن هشام (١/ ٤١٩).

[٢] أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

[٣] مدراج السالكين (٢/ ١٦٠)، وعيون الأخبار (٢/ ٢٨٤).

وَإِذَا عَرَتْكَ بَلِيَّةٌ فَاصْبِرْ لَهَا صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ
وَإِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

ثم إن الناس في أمر الشكوى على ثلاث مراتب، طرفان ووسط:

الفريق الأول؛ أهل الإفراط: وهو فريق ينهى عن الشكوى إلى الله وإلى المخلوق جميعاً.

فقد ظن بعض المتعبدين أن من كمال العبادة أن لا يشكو حاله إلى الله ﷻ بناء على أن الله عز وجل يعلم ما بالعبد، وظنوا أن الشكوى إلى الله انتقاص من الصبر.

وهذا من الغلو؛ لأنهم لن يكونوا أكمل عبادة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فنبينا محمد ﷺ قال: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي**»، ويعقوب عليه السلام قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف: ٨٦]، وموسى قال: «**إليك المشتكى**».

فمن ظن أنه أكمل عبادة من الأنبياء، وأنه بلغ به كمال الصبر أنه لا يشكو إلى الله؛ فهذا من الغلو المذموم والابتداع في الدين.

الفريق الثاني؛ أهل التفريط: وهو فريق يشكو إلى المخلوق ما قدره الله عليه اعتراضاً على قضاء الله.

الفريق الثالث، أهل الوسط: وهو المؤمن الذي يشكو إلى الله ﷻ ولا يشكو إلى المخلوق، كما مر بيانه.

❀ ❀ ❀

وَكُلَّمَا قَوِيَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وَرَجَائِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ وَدَفْعِ ضَرُورَتِهِ؛ قَوِيَتْ عُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَحُرِّيَّتُهُ مِمَّا سِوَاهُ.

من كمال عبودية المؤمن لله؛ أنه يطلب من الله تعالى الحوائج، ويشكو إليه ﷻ ما أصابه من الضر.

وهذا يوجب حرية العبد مما سوى الله، مما يبين أن هناك تلازما بين العبودية لله سبحانة وتعالى والحرية مما سوى الله والعكس، فكل من ضعفت عبوديته لله صار عبدًا لما سوى الله ﷻ.

❊ ❊ ❊

فَكَمَا أَنَّ طَمَعَهُ فِي الْمَخْلُوقِ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ فَيَأْسُهُ مِنْهُ يُوجِبُ غِنَى قَلْبِهِ عَنْهُ.

الطمع في المخلوق يؤدي إلى العبودية لهذا المخلوق، فكلما قوي الطمع في المخلوق صار عبدًا لهذا المخلوق، وكلما استغنى عنه ويئس منه أوجب غنى القلب عنه.

❊ ❊ ❊

كَمَا قِيلَ: اسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْت تَكُنْ نَظِيرَهُ، وَأَفْضِلْ عَلَى مَنْ شِئْت تَكُنْ أَمِيرَهُ، وَاحْتَجْ إلَى مَنْ شِئْت تَكُنْ أَسِيرَهُ.

هذا من الحكم المأثورة:

اسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْت تَكُنْ نَظِيرَهُ: لأن أى شخص مهما كان أكثر منك مالاً أو منصبًا أو جاهًا إذا كنت مستغنيًا عنه كنت نظيره لست محتاجـًا إليه.

وَأَفْضِلْ عَلَى مَنْ شِئْت تَكُنْ أَمِيرَهُ: يعنى من الإحسان إليه والإنعام عليه كما قال

أبو الفتح البُستي[١]:

أحسنْ إلى الناسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهمُ   فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

فالأنسان الذي في قلبه خير ؛ دائما يشكر إحسان المحسن، ويكون وفيًّا له، فتصبح أميراً لمن أحسنت إليه.

وَاحْتَجْ إِلَى مَنْ شِئْت تَكُنْ أَسِيرَهُ: إذا احتجت إلى شخص ما حتى لو كان أقل منك مالاً أو منصباً تصبح أسيراً عنده بحاجتك إليه.

***

فَكَذَلِكَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي رَبِّهِ وَرَجَاؤُهُ لَهُ يُوجِبُ عُبُودِيّتَهُ لَهُ.

وَإِعْرَاضُ قَلْبِهِ عَنْ الطَّلَبِ مِنْ اللهِ وَالرَّجَاءِ لَهُ يُوجِبُ انْصِرَافَ قَلْبِهِ عَنْ الْعُبُودِيّةِ لِلّهِ.

كلما قوي طمعك في الله ﷻ واحتياجك إليه ورجائك منه؛ كلما قويت عبوديتك له ﷻ، وكلما انصرف القلب وأعرض عن الطلب من الله كان هذا نقصاً في العبودية فمن أعرض عن الطلب من الله؛ انصرف قلبه عن العبودية لله .

***

[١] عَليّ بن مُحَمَّد، أَبُو الْفَتْح البستي، من بست: بِضَم الْبَاء الْمُوَحدَة، وَإِسْكَان السِّين الْمُهْملَة – الشَّاعِر، الْكَاتِب.كَانَ أديباً، شَاعِرًا، مَشْهُور التطبيق والتجنيس، كثير الاختراع للمعنى الْغَرِيب النفيس، صَاحب بلديه الإِمَام أَبَا سُلَيْمَان الْخطابِيّ، وَله أشعار فِي تَفْضِيل الشَّافِعِي، وتقريظ مُخْتَصر الْمُزنِيّ،.ومن ألفاظه البديعة قوله: «من أصلح فاسده، أرغم حاسده». «من أطاع غضبه، أضاع أدبه». توفي سنة أربعمائة، وقيل سنة إحدى وأربعمائة ببخارى .[طبقات الشافعية ٢/ ٦٤٤، وفيات الأعيان ٣/ ٣٧٦، سير أعلام النبلاء ١٤٧/١٧].

لَا سِيَّمَا مَنْ كَانَ يَرْجُو الْمَخْلُوقَ وَلَا يَرْجُو الْخَالِقَ، بِحَيْثُ يَكُونُ قَلْبُهُ مُعْتَمِدًا إِمَّا عَلَى رِئَاسَتِهِ وَجُنُودِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَمَمَالِيكِهِ، وَإِمَّا عَلَى أَهْلِهِ وَأَصْدِقَائِهِ، وَإِمَّا عَلَى أَمْوَالِهِ وَذَخَائِرِهِ، وَإِمَّا عَلَى سَادَاتِهِ وَكُبَرَائِهِ، كَمَالِكِهِ وَمَلِكِهِ، وَشَيْخِهِ وَمَخْدُومِهِ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ هُوَ قَدْ مَاتَ أَوْ يَمُوتُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان: ٥٨].

إذا كان المخلوق هذا لا يعتمد على الله ﷻ ولا يعلق حوائجه بالله وإنما يعلق هذه الحوائج بآخرين، إما بالاعتماد على الرئاسة والجنود والأتباع والمماليك إذا كان هو رئيساً وله أتباع وجنود، فلا يكون اعتماده على الله تعالى وإنما على الجنود والأتباع.

وبعض الناس اعتماده في حوائجه على أهله وأصدقائه، وبعضهم على أمواله وذخائره، فمتى احتاج فالأموال التي عنده كفيلة بقضاء حوائجه، فلا يكون في قلبه احتياج إلى الله.

وبعض الناس اعتماده في حوائجه على ساداته وكبرائه، فقد يكون المعتمد على غير الله عبداً أو خادماً فهو لا يعتمد على الله، وإنما يعتمد على سيده، أو مالكه، أو شيخه .

وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمَخْلُوقِينَ أَنْ يَنْصُرُوهُ، أَوْ يَرْزُقُوهُ، أَوْ أَنْ يَهْدُوهُ خَضَعَ قَلْبُهُ لَهُمْ، وَصَارَ فِيهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ أَمِيرًا لَهُمْ مُدَبِّرًا لَهُمْ مُتَصَرِّفًا بِهِمْ.

هنا يشير إلى مسألة من مسائل العبودية، فيقول: إن العبودية هي تعلق القلب، فقد

يتعلق القلب بمخلوق؛ فيخضع له، طلبـاً للنصرة والهداية والرزق.

وقد يكون المخضوع الذي خضع له الإنسان هو أقل شأنـاً من الخاضع، فالخاضع قد يكون أميرًا، أو رئيسًا، لكن قلبه متعلق بحاشيته وبطانته وجنوده واعتماده التام عليهم، فلا يرى أنهم مجرد سبب، وأن مسبب الأسباب هو الله ﷻ.

***

فَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ إِلَى الْحَقَائِقِ لَا إِلَى الظَّوَاهِرِ، فَالرَّجُلُ إِذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِامْرَأَةٍ وَلَوْ كَانَتْ مُبَاحَةً لَهُ يَبْقَى قَلْبُهُ أَسِيرًا لَهَا تَحْكُمُ فِيهِ وَتَتَصَرَّفُ بِمَا تُرِيدُ، وَهُوَ فِي الظَّاهِرِ سَيِّدُهَا لِأَنَّهُ زَوْجُهَا، أَوْ مَالِكُهَا.

وَلَكنه فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ أَسِيرُهَا وَمَمْلُوكُهَا، لَا سِيَّمَا إِذَا دَرَتْ بِفَقْرِهِ إِلَيْهَا، وَعِشْقِهِ لَهَا، وَأَنَّهُ لَا يَعْتَاضُ عَنْهَا بِغَيْرِهَا، فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تتحكَّمُ فِيهِ تَحَكُّمَ السَّيِّدِ الْقَاهِرِ الظَّالِمِ فِي عَبْدِهِ الْمَقْهُورِ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلَاصَ مِنْهُ، بَلْ أَعْظَمُ.

الزوج يقال له: سيد، كما قال تعالى عن امرأة العزيز: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]

فالله تعالى جعل القوامة للرجل، لكن أحيانًا الرجل يكون عنده امرأة مباحة له، لكن قلبه قد تعلق بها ذلك التعلق الشديد الذي جعله أسيراً عندها؛ تتحكم فيه وتتصرف بما تريد ، فهو وإن كان في الظاهر سيدها، لكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها لاسيما إذا علمت بفقره إليها وعشقه لها.

ولذلك من ضمن الحكم التي يذكرها الفقهاء في تشريع الطلاق؛ أن كلاً من الزوجين يعلم أنه يوجد سبيل إلى الخلاص، يعني سواء تشريع الطلاق في حق الرجل أو الخلع

في حق المرأة أو التطليق عن طريق القاضي، فيكون هذا سبباً من ضمن الأسباب التي تؤدي إلى استقامة أمر الأسرة، وحرص كلٍ من الزوجين على أن يأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى استمرار هذه العلاقة، طالما هناك احتمال لانفكاك هذه العلاقة.

لكن لو أن الطلاق لا يوجد، ولا يوجد سبيل إلى انفكاك هذه العلاقة الزوجية، لربما تحكم أحد الطرفين في الآخر تحكم الظالم في العبد المقهور الذي لا يستطيع الخلاص.

***

فَإِنَّ أَسْرَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ أَسْرِ الْبَدَنِ، وَاسْتِعْبَادَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ اسْتِعْبَادِ الْبَدَنِ، فَإِنَّ مَنْ اسْتُعْبِدَ بَدَنُهُ وَاسْتُرِقَّ لَا يُبَالِي إِذَا كَانَ قَلْبُهُ مُسْتَرِيحًا مِنْ ذَلِكَ مُطْمَئِنًّا، بَلْ يُمْكِنُهُ الِاحْتِيَالُ فِي الْخَلَاصِ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَلْبُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ رَقِيقًا مُسْتَعْبَدًا مُتَيَّمًا لِغَيْرِ اللهِ فَهَذَا هُوَ الذُّلُّ وَالْأَسْرُ الْمَحْضُ، وَالْعُبُودِيَّةُ الذَّلِيلَةُ لَـمَّا اسْتَعْبَدَ الْقَلْبُ.

رق القلب أسوأ من رق البدن، فقد يكون البدن رقيقا،كأن يكون العبد مملوكًا أو أسيراً، لكن قلبه حر، فهو لا يبالي إن كان قلبه مستريحا مطمئنا، بل يمكنه الاحتيال في تخليص بدنه بطرق شتى.

أما إذا كان القلب متيما لغير الله، والتتيم هو درجة من الحب تصل إلى حد العبادة، فهذا هو الذل والأسر المحض.

***

وَعُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَأَسْرُهُ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَوْ أَسَرَهُ كَافِرٌ، أَوْ اسْتَرَقَّهُ فَاجِرٌ بِغَيْرِ حَقٍّ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ قَائِمًا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ

مِنْ الْوَاجِبَاتِ، وَمَنْ اسْتَعْبَدَ بِحَقٍّ إذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ لَهُ أَجْرَانِ.

عبودية القلب لغير الله هذه التي يترتب عليها العقاب، أما عبودية البدن فهذه لا عقاب عليها، فقد يُستعبد بدن المسلم بغير حق، كأن يأسره كافر أو يسترقه فاجر بغير حق؛ فهذا لا يضره طالما هو قائم بأمر الله.

وكذلك من استُعبد بحق، مثل العبد المملوك الذي اشترى بحق، ومالكه يملكه بحق، إذا أدي حق الله وحق مواليه فله أجران، كما قال النبي ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَّاهَا، فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ**»[1].

***

وَلَوْ أُكْرِهَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكُفْرِ فَتَكَلَّمَ بِهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ وَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبُهُ فَصَارَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ.

حتى لو كان مالكه كافراً وأجبره على التكلم بالكفر، و هو مكره فلن يضره ذلك.

فإذًا عبودية البدن لا تضر الإنسان، لكن عبودية القلب لغير الله هي التي تضر.

***

فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ، وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ، كَمَا أَنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، قَالَ

---

[١] أخرجه مسلم (١٥٤) عن أبي موسى رضي الله عنه.

النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ» .

العبودية هى عبودية القلب، والحرية هي حرية القلب، كما أن الغنى غنى النفس والفقر فقر النفس. فالغنى والفقر الحقيقي ليس عن كثرة المال أو قلة المال، وإنما غنى النفس كما قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ**» والعرض أى: المال والممتلكات.

بمعنى أن الإنسان يكون مستغنيًا عن هذه الأموال ومستغنيًا عن غيره قانعًا بما أعطاه الله، وهذا هو الغنى الحقيقي.

لكن قد يكون الإنسان كثير المال، لكنه غير قانع بما أعطاه الله، وقلبه متعلق بغير الله، فهو فقير النفس مهما كثر ماله.

***

وَهَذَا -لَعَمْرُ اللهِ- إِذَا كَانَ قَدْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُبَاحَةٌ.

هنا يقسم بحياة الله تعالى، والحياة صفة من صفات الله تعالى، واللام في الأصل ليست من حروف القسم، لذلك يجوز أن يقول الإنسان: لعمري أو لعمر فلان؛ لأنها كلمة يؤتى بها للتوكيد، واللام ليست من حروف القسم، حروف القسم هي: الواو والباء والتاء، أما اللام فهي هنا تفيد معنى القسم وإن كانت بغير حروفه.

قال: «**وَهَذَا -لَعَمْرُ اللهِ- إِذَا كَانَ قَدْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُبَاحَةٌ**» يعني ما فات من الكلام فإنه كان عن المرأة التي أحلها الله للمسلم عليه ألا تستعبده، وألا يغلو في الحب حتى يصل إلى درجة حب العبودية، فيكون مسترقًا لها.

***

فَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُحَرَّمَةٌ: امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ، فَهَذَا هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي لَا يُدَانُ فِيهِ.

وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ عَذَابًا وَأَقَلِّهِمْ ثَوَابًا، فَإِنَّ الْعَاشِقَ لِصُورَةٍ إِذَا بَقِيَ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقًا بِهَا، مُسْتَعْبَدًا لَهُ اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مَا لَا يُحْصِهِ إِلَّا رَبُّ الْعِبَادِ.

أما من استعبد قلبه عشق امرأة أجنبية، أو صبي كبعض الذين يرغبون في فعل فاحشة قوم لوط، فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب.

فقد اجتمع لهم العذاب مع قلة الثواب على هذا العذاب، فهناك مصائب يبتلى بها الإنسان كالفقر أو المرض أو السجن، وقد يكون فيها ألم نفسي له، لكن فيها أجر إذا صبر عليها.

لكن هذا العشق الذي هو تعلق القلب بامرأة أجنبية أو صبي، صاحبه من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً.

***

وَلَوْ سَلِمَ مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ الْكُبْرَى، فَدَوَامُ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهَا بِلَا فِعْلِ الْفَاحِشَةِ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْهِ، مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ وَيَزُولُ أَثَرُهُ مِنْ قَلْبِهِ.

هذا الذي يعشق امرأة أو طفلا، إما أن يؤدي به هذا إلى الوقوع في فاحشة الزنا أو اللواط.

وإما أنه لا يتمكن من فعل هذه الفاحشة.

فربما وقع شخص في فاحشة الزنا، ثم زال تعلق قلبه بتلك المرأة التي زنا بها و تاب

إلى الله، فهذا يكون ضرر الزنا عليه أخف من ضرر ذلك الذي قلبه لم يزل متعلقا بامرأة حتى لو لم يصل بها إلى حد الزنا.

لأن استمرار تعلق القلب بها؛ قد يوقعه في الشرك الذي هو أسوأ من الزنا، فيصبح قلبه متعلقا بها تعلق العبودية وينصرف عن عبودية الله فيوصله هذا إلى الشرك، وربما استعمل أنواع الشركيات كالسحر، ليصل إلى بغيته.

***

وَهَؤُلَاءِ يُشَبَّهُونَ بِالسُّكَارَى وَالْمَجَانِينِ، كَمَا قِيلَ:

سَكْرَانِ: سُكْرُ هَوًى، وَسُكْرُ مُدَامَةٍ ... وَمَتَى إِفَاقَةُ مَنْ بِهِ سَكْرَانِ

سكر مدامة: هو سكر الخمر.

والمعنى: ومتى إفاقة من اجتمع عليه سكر الهوى وسكر الخمر.

فالسكر: وهو زوال العقل، قد يكون بسبب العشق والمحبة؛ فيذهب عقل الإنسان، ويتصرف تصرفات تشبه تصرفات المجانين، ولا يتصرف بطريقة العقلاء الذين يفكرون في عواقب الأمور بسبب تأثير الخمر.

وقد يحصل السكر بسبب شدة الألم .

ومنه تسمية: «سكرات الموت» أي من شدة الألم يغمى على الإنسان .

***

وَقِيلَ:

قَالُوا جُنِنْت بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْت لَهُمْ ... الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ   وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

يقولون: إن العشق أشد من الجنون، فالجنون قد يكون مؤقتاً، يصرع ثم يفيق ثم يصرع ثم يفيق، لكن العشق مستمر لا يستفيق الدهرَ صاحبُه.

❧❧❧

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ هَذَا الْبَلَاءِ: إِعْرَاضُ الْقَلْبِ عَنْ اللَّهِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ قَطُّ أَحْلَى مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَلَذَّ وَلَا أَطْيَبَ.

وَالْإِنْسَانُ لَا يَتْرُكُ مَحْبُوبًا إِلَّا بِمَحْبُوبٍ آخَرَ يَكُونُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُ، أَوْ خَوْفًا مِنْ مَكْرُوهٍ.

من أعظم أسباب بلاء العشق هو انصراف القلب عن العبودية لله، فلا تجد مؤمنًا كملت عبوديته لله يقع في هذا البلاء.

لأن الإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو أن هذا المحبوب الأول محبته تجلب مكروهاً أكبر منه.

❧❧❧

فَالْحُبُّ الْفَاسِدُ إِنَّمَا يَنْصَرِفُ الْقَلْبُ عَنْهُ بِالْحُبِّ الصَّالِحِ، أَوْ بِالْخَوْفِ مِنْ الضَّرَرِ.

الحب الفاسد ينصرف عن القلب بأمرين:

إما بالحب الصالح. وإما بالخوف من ضرر ذلك الحب الفاسد.

❧❧❧

قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ يُوسُفَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤]، فَاللَّهُ يَصْرِفُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يَسُوءُهُ مِنْ الْمَيْلِ إِلَى الصُّوَرِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، وَيَصْرِفُ عَنْهُ الْفَحْشَاءَ بِإِخْلَاصِهِ لِلَّهِ.

كأن المؤلف ﷺ استشهد بقراءة الكسر في قوله:﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1] يعني: بسبب إخلاصه لله صرف عنه السوء والفحشاء.

***

وَلِهَذَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَذُوقَ حَلَاوَةَ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى اتِّبَاعِ هَوَاهَا، فَإِذَا ذَاقَ طَعْمَ الْإِخْلَاصِ، وَقَوِيَ فِي قَلْبِهِ انْقَهَرَ لَهُ هَوَاهُ بِلَا عِلَاجٍ.

إن العشق إنما يقع فيه من وقع، قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله وحلاوة الإخلاص لله؛ فتغلبه نفسه، لكن عندما يذوق العبد حلاوة العبودية لله والإخلاص لله ويقوى ذلك في قلبه؛ ينقهر هواه وينصرف عن قلبه ذلك العشق الذي وصل به إلى عبودية المخلوق.

***

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا دَفْعٌ لِلْمَكْرُوهِ، وَهُوَ الْفَحْشَاءُ وَالْمُنكَرُ، وَفِيهَا تَحْصِيلُ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ.

وَحُصُولُ هَذَا الْمَحْبُوبِ أَكْبَرُ مِنْ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ.

---

[١] مر ذكر الأوجه في الآية.

حصول هذا المحبوب وهو ذكر الله، أكبر من دفع ذلك المكروه وهو الفحشاء والمنكر.

❊ ❊ ❊

فَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ عِبَادَةٌ لِلَّهِ، وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ لِلَّهِ مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا، وَأَمَّا انْدِفَاعُ الشَّرِّ عَنْهُ فَهُوَ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ.

ذكر الله ﷻ قد يكون لسانيـاً وقد يكون قلبيـاً:

فذكر الله تعالى يشمل ذكر اللسان بالتسبيح والتحميد وتلاوة القرآن ونحوه .

ويشمل ذكر القلب بأن يكون القلب ذاكراً الله ﷻ لا يغفل عن الله، وإذا كان في موطن لله فيه أمر كان ذاكراً ذلك الأمر ولا يغفل عنه، وإذا كان في موطن لله فيه نهي يكون ذاكراً ذلك النهي، فكل هذه من ذكر الله تعالى بالقلب.

فالذكر هو عبادة الله تعالى، وقد سمى الله الصلاة ذكراً، فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[طه: ١٤].

قال: «**وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ لِلَّهِ مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا، وَأَمَّا انْدِفَاعُ الشَّرِّ عَنْهُ فَهُوَ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ**» .

اندفاع الشر عن القلب مقصود لغيره؛ حتى يخلو القلب ويكون مهيئًا لكي يُعمَر بعبادة الله وطاعته، فالقلب مثل الإناء، فإذا كان الإناء مملوءا بشراب كريه أو شيئ متعفن، فالإنسان يريد أن يفرغه ليس لذاته، وإنما تفريغه من أجل أن يملأه بالشراب النافع الذي يرغب في استعماله .

فكذلك القلب، تفريغ القلب من السوء والفحشاء واندفاع الشر والمكروه عنه

هو مقصود لغيره، من أجل أن يصبح القلب فارغـًا ليُعمر بعد ذلك بذكر الله وطاعته وعبادته.

***

وَالْقَلْبُ خَلْقٌ يُحِبُّ الْحَقَّ وَيُرِيدُهُ وَيَطْلُبُهُ، فَلَمّا عَرَضَتْ لَهُ إِرَادَةُ الشَّرِّ طَلَبَ دَفْعَ ذَلِكَ، فَإِنَّهَا تُفْسِدُ الْقَلْبَ كَمَا يَفْسُدُ الزَّرْعُ بِمَا يَنْبُتُ فِيهِ مِنْ الدَّغَلِ.

الدغل هو الفساد، فإرادة الشر تفسد القلب وتجعل في القلب فساداً، مثل الزرع إذا عرض له ما يفسده من الآفات.

***

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[الشمس: ٩-١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾[الأعلى: ١٤-١٥] .

وَقَالَ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾[النور: ٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[النور: ٢١].

استشهد المؤلف ﷺ هنا بأربعة مواضع من كتاب الله تعالى فيها ذكر تزكية النفوس.

والتزكية هي النماء والتطهير، ومنه سميت زكاة المال بالزكاة، لكونها تنمية للمال وتطهيراً له، وتزكية النفوس أي تطهيرها من الرذائل.

وقال تعالى في بعثة نبينا ﷺ ولماذا بُعث: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾[آل عمران: ١٦٤].

وفي الموضع الآخر في قصة إبراهيم عليه السلام لما طلب ذلك من الله تعالى وجاءت على لسان إبراهيم بجعل التعليم قبل التزكية قال ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾[البقرة: ١٢٩]

فعندما يكون الكلام من الله سبحانه وتعالى تأتي التزكية قبل التعليم، فالقصد أنه من وظيفة الرسل التي لأجلها بعث الله تعالى الرسل التزكية.

لكن في طلب إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يأتي رسول لتعليمهم دينهم وللتزكية.

***

فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ غَضَّ الْبَصَرِ، وَحِفْظَ الْفَرْجِ هُوَ أَزْكَى لِلنَّفْسِ، وَبَيَّنَ أَنَّ تَرْكَ الْفَوَاحِشِ مِنْ زَكَاةِ النُّفُوسِ، وَزَكَاةُ النُّفُوسِ تَتَضَمَّنُ زَوَالَ جَمِيعِ الشُّرُورِ مِنَ الْفَوَاحِشِ، وَالظُّلْمِ، وَالشِّرْكِ، وَالْكَذِبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ طَالِبُ الرِّئَاسَةِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ قَلْبُهُ رَقِيقٌ لِمَنْ يُعِينُهُ عَلَيْهَا وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مُقَدَّمَهُمْ وَالْمُطَاعَ فِيهِمْ.

فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ يَرْجُوهُمْ وَيَخَافُهُمْ، فَيَبْذُلُ لَهُمْ الْأَمْوَالَ وَالْوِلَايَاتِ، وَيَعْفُو عَنْهُمْ لِيُطِيعُوهُ، وَيُعِينُوهُ، فَهُوَ فِي الظَّاهِرِ رَئِيسٌ مُطَاعٌ، وَفِي الْحَقِيقَةِ عَبْدٌ مُطِيعٌ لَهُمْ.

هنا يتكلم المؤلف رحمه الله على ما ينافي العبودية لله، فذكر العبودية للصور وهي تعلق القلب بصورة امرأة جميلة أو شاب جميل، وأن هذا قد يصل بالعبد إلى عبودية غير الله.

ثم يتكلم عن العبودية للرئاسة والعلو في الأرض، فيقول: «**طَالِبُ الرِّئَاسَةِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ قَلْبُهُ رَقِيقٌ لِمَنْ يُعِينُهُ عَلَيْهَا**» قلبه رقيق: من الرق، أي العبودية لمن يعينه عليها.

ففي الظاهر هو ملك أو رئيس، لكن هو عبد لحاشيته وجنوده، فيتغاضى عن جرائمهم، ويعطيهم الأموال والولايات، حتى يضمن ولاءهم له، لأن قلبه متعلق بهم، ويرى أنهم سبب ملكه ورئاسته، وأنهم إذا تغيروا عليه زال عنه الملك والرياسة فيظل قلبه متعلقا بهم.

***

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ كِلَيْهِمَا فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِلْآخَرِ، وَكِلَاهُمَا تَارِكٌ لِحَقِيقَةِ عِبَادَةِ اللَّهِ.

المرؤوس الذي تعلق برئيسه وقصده في حوائجه وتعلق قلبه به، والرئيس الذي تعلق قلبه بالمرؤس، كل منهما الذي تعلق قلبه بالآخر أو اعتمد عليه وترك التوكل على الله، وتوكل على الآخر؛ كلاهما تارك لحقيقة عبادة الله.

***

وَإِذَا كَانَ تَعَاوُنُهُمَا عَلَى الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ كَانَا بِمَنْزِلَةِ الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْفَاحِشَةِ أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الشَّخْصَيْنِ -لِهَوَاهُ الَّذِي اسْتَعْبَدَهُ وَاسْتَرَقَّهُ- مُسْتَعْبَدٌ لِلْآخَرِ.

يعني الملك مستعبد للجنود والحاشية، والجنود والحاشية مستعبدون للملك، و هم يتعاونون على العلو في الأرض كتعاون المتعاونين على الفاحشة أو المتعاونين على قطع الطريق و غيرة من المحرمات.

وهذا فيمن تعلقت قلوبهم بهؤلاء، ولم تكن متعلقة بالله وكان قصدهم العلو في الأرض وليس نصرة الدين وطاعة الله ﷻ.

***

وَهَكَذَا أَيْضًا طَالِبُ الْمَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَعْبِدُهُ وَيَسْتَرِقُّهُ.

طالب المال إذا تعلق قلبه بذلك المال وبالأسباب التي تجلب له المال قد يصبح عبداً مسترقـاً للمال.

فالخلاصة:

أنه كل من ترك العبودية لله تعالى أو ضعفت عبوديته لله صار عبداً لغير الله و لابد، إما عبداً للنساء، أو للمال، أو للرئاسة.

ومن تمام العبودية لله تعالى ألا يتعلق القلب بهذه الأمور و أن يكون التعلق بالله ﷻ .

* * *

وَهَذِهِ الْأُمُورُ نَوْعَانِ:

الإشارة هنا تعود على طلب المال، وطلب الرئاسة، والتعلق بالنساء، ونحو ذلك من الأمور.

* * *

مِنْهَا: مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامِهِ، وَشَرَابِهِ، وَمَسْكَنِهِ، وَمُنْكَحِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَهَذَا يَطْلُبُهُ مِنَ اللهِ وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ فِيهِ، فَيَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ يَسْتَعْمِلُهُ فِي حَاجَتِهِ بِمَنْزِلَةِ حِمَارِهِ الَّذِي يَرْكَبُهُ، وَبِسَاطِهِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ؛ بَلْ بِمَنْزِلَةِ الْكَنِيفِ الَّذِي يَقْضِي فِيهِ حَاجَتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ، فَيَكُونَ هَلُوعًا إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا.

القسم الأول: ما يحتاج إليه العبد من الطعام والشراب والمسكن والزوجة، فيطلب هذه الأمور من الله ﷻ.

وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ فِيهِ: يعني يكون تعلق القلب فيه بالله ﷻ.

الْكَنِيفِ: أكرمكم الله؛ هو المرحاض موضع قضاء الحاجة.

فيقول: ينبغي أن تكون نظرة المسلم لأمور الدنيا كالمسكن والطعام والشراب والزوجة، أنها أمور يقضي بها حوائجه ومصالحه لكن لا يتعلق بها قلبه.

وضرب لها مثالا بالحمار الذي يركبه، والكنيف -أكرمكم الله- الذي يقضي الإنسان فيه حاجته، فهذا شيء يحتاج الإنسان إليه، لكن في نفس الوقت قلبه غير متعلق به، فكذلك كل أمور الدنيا ينبغي أن تكون بهذه المثابة، فهي أشياء يحتاج إليها الإنسان، لكن قلبه لا يتعلق بها، وإنما يتعلق بالله تعالى، وإذا هو فقد شيئا من هذه الأمور يطلبه من الله ﷻ، و يطلب من الله تعالى الإنعام عليه بهذه الأمور من أمور الدنيا.

قال: «**مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ، فَيَكُونَ هَلُوعًا إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**»

أمور الدنيا من الرئاسة والمال والمسكن، وغيره، عليه ألا يتعلق قلبه بها، وألا يجزع عند فقدها، وألا يصيبه الهلع والخوف من فقدها.

❊ ❊ ❊

وَمِنْهَا: مَا لَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ، فَهَذِهِ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَلِّقَ قَلْبَهُ بِهَا.

هناك أشياء من أمور الدنيا، الإنسان ليس بحاجة إليها، كزيادة من المال عن حاجة الإنسان، لا يحتاج إليها، أو لا يدخرها لمصالحه، لكن مثل الذي عنده البلايين، فلو

أكل كل يوم أحسن الطعام، ولبس أحسن اللباس، وهكذا إلى آخر عمره لن يحتاج إلى الأموال كلها، أو أشياء من الرئاسة، ومن المناصب.

فهناك أشياء لا يكون الإنسان محتاجا إليها؛ فهذه لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها.

❀❀❀

فَإِذَا تعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهَا صَارَ مُسْتَعْبَدًا لَهَا، وَرُبَّمَا صَارَ مُعْتَمِدًا عَلَى غَيْرِ اللَّهِ، فَلَا يَبْقَى مَعَهُ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَلَا حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، بَلْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشُعْبَةٌ مِنْ التَّوَكُّلِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَهَذَا مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ بِقَوْلِهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ»

القطيفة والخميصة: كما سبق نوعان من الثياب يضرب بها النبي ﷺ المثل لمن صار عبدا لغير الله ﷻ، كعبودية المال، وعبودية النساء...

❀❀❀

وَهَذَا هُوَ عَبْدُ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَلَوْ طَلَبَهَا مِنْ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ إذَا أَعْطَاهُ إيَّاهَا رَضِيَ؛ وَإِذَا مَنَعَهُ إيَّاهَا سَخِطَ، وَإِنَّمَا عَبْدُ اللَّهِ مَنْ يُرْضِيهِ مَا يُرْضِي اللَّهَ؛ وَيُسْخِطُهُ مَا يُسْخِطُ اللَّهَ؛ وَيُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيُبْغِضُ مَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَ اللَّهِ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ.

بعض الناس يطلب هذه الأشياء من الله، فإن أعطاه منها رضي، وإذا لم يعطه الله منها سخط، كما مر بنا حال الذي يعبد الله على حرف، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾[الحج: ١١]

فبعض الناس يعبد الله في الرخاء فقط، أو يعبد الله إذا كانت عبادته لله تجلب له مصالح الدنيا، أما إذا تعرض بسبب عبادته لمحنة أو لابتلاء فينقلب على عقبيه، فيستغنى عن عبادة الله،فهذا في الحقيقة ليس عبدا لله تعالى، فليست عبادة الله غاية عنده، وإنما هي وسيلة لتحصيل المال والجاه.

أما المؤمن الحق، فهو الذي يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله.

❊ ❊ ❊

كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ: فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ» .

يعني إذا منع إعطاء شخص؛ فإنما يمتنع طلبًا لثواب الله تعالى، فقد يكون هذا الشخص عدوا لله تعالى، وإعطاؤه هذا المال سيجعله يستعين به على معصية الله ويستعمله فيما يغضب الله، فهو عندما يمنع يمنع لله، وعندما يعطي يعطي لله، لأنه يريد ثواب الله في الإعطاء ويريد ثواب الله في المنع.

❊ ❊ ❊

وَقَالَ: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ» .

العروة: هي حلقات السلسلة، و العروة الوثقى يعني أحكم العرى وأمتنها وأقواها.

❊ ❊ ❊

وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْهُ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ

كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»[١].

الحديث مر بنا شرحه من قبل[٢].

***

فَهَذَا وَافَقَ رَبَّهُ فِيمَا يُحِبُّهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ فَكَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَحَبَّ الْمَخْلُوقَ لِلَّهِ لَا لِغَرَضٍ آخَرَ، فَكَانَ هَذَا مِنْ تَمَامِ حُبِّهِ لِلَّهِ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ مَحْبُوبِ الْمَحْبُوبِ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ الْمَحْبُوبِ؛ فَإِذَا أَحَبَّ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ وَأَوْلِيَاءَ اللَّهِ لِأَجْلِ قِيَامِهِمْ بِمَحْبُوبَاتِ الْحَقِّ لَا لِشَيْءٍ آخَرَ، فَقَدْ أَحَبَّهُمْ لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤].

عندما يحب الإنسان ما يحبه محبوبه؛ فهذا من تمام محبته لمحبوبه، فمحبوب الله هم أنبياؤه وملائكته وأولياؤه وكتبه، فإذا أحبهم لأن الله ﷻ يحبهم، فقد أحبهم لله لا لغيره، وهذه المحبة ليست هي المحبة الشركية مع الله وإنما هي محبة لله.

***

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٣١]

هنا كما ورد عن الحسن ادعى قوم محبة الله فامتحنهم الله بهذه الآية قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، أي إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم تحبون الله فعلامة صدق المحبة هي اتباع النبي ﷺ.

***

[١] أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) عن أنس رضي الله عنه.

[٢] انظر ص ١٣٦.

فَإِنَّ الرَّسُولَ يَأْمُرُ بِمَا يُحِبُّ اللَّهُ، وَيَنْهَى عَمَّا يُبْغِضُهُ اللَّهُ، وَيَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَيُخْبِرُ بِمَا يُحِبُّ اللَّهُ التَّصْدِيقَ بِهِ.

فَمَنْ كَانَ مُحِبًّا لِلَّهِ لَزِمَ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ، فَيُصَدِّقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَيُطِيعُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَيَتَأَسَّى بِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَمَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدْ فَعَلَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ؛ فَيُحِبُّهُ اللَّهُ.

هنا وضَّح حقيقة الاتباع، فمعنى اتباع الرسول ﷺ هو: تصديقه فيما أخبر، وطاعته في ما أمر، والتأسي به فيما فعل.

ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله؛ فيحبه الله، لأن المحبة من الجانبين، والجزاء من جنس العمل.

دائما الجزاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من جنس العمل، «فالله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»، «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته».

وفي المقابل: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة: ٧٩]، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[التوبة: ٦٧]، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[الحشر: ١٩].

***

فَجَعَلَ اللَّهُ لِأَهْلِ مَحَبَّتِهِ عَلَامَتَيْنِ: اتِّبَاعَ الرَّسُولِ، وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ.

العلامة الثانية على محبة الله تعالى هي الجهاد في سبيل الله.

***

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَادَ حَقِيقَتُهُ الِاجْتِهَادُ فِي حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَمِنْ دَفْعِ مَا يَبْغُضُهُ اللَّهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ.

هذه حقيقة الجهاد؛ الاجتهاد في حصول ما يحبه الله ودفع ما يبغضه الله، وهذا فيه تعزية للمسلم إذا لم يتح له مجال للجهاد في المعارك والحروب بالسلاح، فهناك مجالات أخرى للجهاد، كجهاد الحجة والدعوة واللسان:

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان]، أي: بالقرآن، فسماه جهادا كبيرا، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[التوبة: ٧٣] وجهاده للمنافقين كان بالحجة والبيان، فالنبي ﷺ ما جاهد المنافقين بالسلاح، وإنما جهاده للمنافقين كان جهاد الحجة والبيان.

وقال ﷺ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَأَنْفُسِكُمْ، وَأَلْسِنَتِكُمْ**»[١].

وقال ﷺ: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»[٢].

فمن فاته باب من أبواب الجهاد، فهناك أبواب أخرى؛ كالجهاد بالمال والحجة والبيان، إذًا، فالجهاد بصفة عامة هو من علامة محبة الله ﷻ، والجهاد كما فسره ابن تيمية ﵀ أنه الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، فمن يبذل جهده ووسعه بالنفس بالمال واللسان في تحصيل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح فهذه علامة على محبة الله.

---

[١] أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)، عن أنس ﵁، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

[٢] أخرجه مسلم (٥٠) عن ابن مسعود ﵁.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[التوبة: ٢٤]

فَتَوَعَّدَ مَنْ كَانَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ بِهَذَا الْوَعِيدِ.

قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾: أي: انتظروا .

بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[١] .

وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي: فَقَالَ: «لَا يَا عُمَرُ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْك مِنْ نَفْسِك» فَقَالَ: فَوَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ: «الْآنَ يَا عُمَرُ»[٢] .

هنا مسألة: كيف أن عمر رضي الله عنه بمجرد أن قال له النبي ﷺ: «**لَا يَا عُمَرُ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْك مِنْ نَفْسِك**»، فمباشرة صار النبي ﷺ أحب إليه من نفسه؟

سبب ذلك أن المؤمن يحتاج إلى التذكرة، فالمؤمن يحب نفسه محبة طبيعية ؛ لأن الإنسان مطبوع على أن يحب نفسه، لكن إذا تفكر المؤمن وتدبر فإنه سيجد أن نفسه توصله إلى المهالك، فنفسه تهوى معصية الله تعالى، وتهوى أشياء لو أنه أطاع هوى

---

[١] أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، عن أنس رضي الله عنه .

[٢] أخرجه البخاري (٢٣٦٦) عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه .

نفسه فيها؛ وصلته إلى الهلاك.

بينما النبي ﷺ يقوده إلى النجاة، وهو الذي جعله الله سببا في إخراج المؤمن من الظلمات إلى النور.

فلو كان الإنسان يحب نفسه محبة طبيعية؛ فالرسول ﷺ هو السبب في نجاتها وفلاحها.

وفي الدعاء: «**لا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»[١].

وروي عنه ﷺ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**»[٢].

فالمؤمن يحتاج إلى هذه التذكرة: أن نفسه لو أطاع هواها؛ لأدت به إلى الهلاك وأنه إن كان يحب نفسه المحبة الطبيعية، فإنه يحب لنفسه أن تنجو من الهلاك وأن تفوز بالنعيم المقيم، ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق رسول الله ﷺ الذي جعله الله سببًا في نجاة هذه النفس.

فإذًا، محبة النبي ﷺ تكون أولى من محبة النفس، لأن محبة النبي ﷺ سببٌ للنجاة، أما محبة النفس و الاتكال عليها والركون إليها فهذا من أسباب الهلاك، وعمر ﷺ استحضر هذه المعاني بمجرد التذكرة فقال: فَوَاللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**».

---

[١] أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١)، وأبو داود (٥٠٩٠) عن أبي بكرة ﷺ، وحسنه الألباني.

[٢] أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠) عن شداد بن أوس ﷺ، وضعفه الألباني.

فَحَقِيقَةُ الْمَحَبَّةِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِمُوَالَاةِ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ مُوَافَقَتُهُ فِي حُبِّ مَا يُحِبُّ، وَبُغْضِ مَا يَبْغَضُ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى، وَيَبْغَضُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ.

محبة المؤمن لله تعالى أنه يحب ما يحبه الله، والله تعالى يحب رسوله الكريم ﷺ، وتكون محبة الإنسان للرسول ﷺ أيضا من هذا الباب أولى من محبته لنفسه.

وعلامة أن محبة الله ورسوله ﷺ عند المؤمن أكبر وأقوى من محبته لنفسه: أنه عندما تتعارض رغبات نفسه أو محبوبات نفسه مع محبوبات الله ورسوله ﷺ فإنه يقدم ويؤثر ما يحب الله ورسوله.

فمثال ذلك الصيام: فالنفس البشرية تحب الطعام والشراب، وتكره العطش والجوع لكن عندما أمر الله بالصيام، فهو آثر الجوع والعطش وقدمه على ما تهواه نفسه، فهذه علامة على أن الله ورسوله أحب إليه من من نفسه.

وقد سبق أن المحبة تنقسم إلى محبة طبيعية ومحبة شرعية، وكذلك الكراهية تنقسم إلى كراهية شرعية وكراهية طبيعية .

***

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحُبَّ يُحَرِّكُ إِرَادَةَ الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا قَوِيَتْ الْمَحَبَّةُ فِي الْقَلْبِ، طَلَب الْقَلْبُ فِعْلَ الْمَحْبُوبَاتِ، فَإِذَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ تَامَّةً اسْتَلْزَمَتْ إِرَادَةً جَازِمَةً فِي حُصُولِ الْمَحْبُوبَاتِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ قَادِرًا عَلَيْهَا حَصَّلَهَا.

هناك تلازم بين المحبة القلبية وبين فعل المحبوبات، فالمؤمن إذا قويت محبته للطاعة تحولت إلى إرادة جازمة، ثم إذا صاحب الإرادة الجازمة قدرةٌ تحولت إلى فعل.

فإذا كان المسلم يحب ما يحبه الله ورسوله، وكانت هذه المحبة تامة فإنها تتحول إلى إرادة جازمة، فيصبح في قلبه إرادة جازمة، أي: عزم أكيد وتصميم على فعل الطاعات التي يحبها ورسوله، فهذه الإرادة الجازمة إذا صاحبها قدرة بدنية، كبدن سليم ليس فيه عائق يمنعه من فعل الطاعة، فهذه الإرادة الجازمة مع القدرة على فعل الطاعة ستتحول إلى فعل.

فلذلك الذي يكون قادرا على فعل الطاعة ثم لا يفعلها؛ فهذا فيه خلل، وهو أنه ليست عنده إرادة جازمة، كشخص لا يصلي أو لا يصوم أو لا يزكي، أو فيه تفريط في المستحبات، فهذا عنده نقص في الإرادة وليس عنده الإرادة الجازمة لفعل ذلك، ونقص الإرادة الجازمة عائد إلى نقص في المحبة.

فنقص الإرادة أدى إلى عدم وجود الفعل مع قدرته عليه، لكن إذا وجدت المحبة التامة تتحول إلى إرادة جازمة، والإرادة مع القدرة تتحول إلى الفعل.

***

وَإِنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْهَا فَفَعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ الْفَاعِلِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْوِزْرِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا»[١] .

إذا كان الإنسان حقًّا يحب الله ورسوله وعنده إرادة جازمة لفعل الطاعة، لكن عنده عجز يمنعه عنها، كعجز بدني، أو مالي، فمع الإرادة الجازمة وقلة القدرة لا يتركها بالمرة، بل يحاول أن يفعل الجزء الذي يستطيعه، وله أجر كأجر الفاعل، كما قال النبي

---

[١] أخرجه امسلم (٤٧٦٢) عن أبي هريرة ﷺ.

ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا؛ وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْوِزْرِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا» لأن الذي دعا إلى الهدى ويحب الهدى ويريد تحصيله وعنده إرادة جازمة وحث غيره عليه قد شاركهم في الأجر.

❀❀❀

وَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ». قَالُوا: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ. قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ» [١].

هذا في غزوة تبوك، وفي رواية أن النبي ﷺ قال: «إلا شركوكم في الأجر».

وهؤلاء المذكورون الذين حبسهم العذر، هم الذين ذكرهم الله تعالى في آخر سورة التوبة، قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

فهؤلاء كانوا يريدون الخروج مع النبي ﷺ للجهاد، والنبي ﷺ ما كان معه من الدواب والسلاح ما يكفي لحملهم معه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع.

إذا هم فعلوا ما يقدرون عليه: ذهبوا إلى النبي ﷺ، وطلبوا منهم أن يحملهم، وحاولوا وبذلوا ما يستطيعون، وبكاؤهم حزنًا علامة على صدق الإرادة الجازمة وصدق المحبة؛ فلذلك شاركوا في الأجر، فكان يكتب لهم من الأجر مثل الذين خرجوا.

❀❀❀

[١] أخرجه البخاري (٢٨٣٩)، ومسلم (١٩١١) عن جابر رضي الله عنه.

وَالْجِهَادُ هُوَ بَذْلُ الْوُسْعِ، وَهُوَ كُلّ مَا يُمْلَكُ مِنْ الْقُدْرَةِ فِي حُصُولِ مَحْبُوبِ الْحَقِّ، وَدَفْعِ مَا يَكْرَهُهُ الْحَقُّ، فَإِذَا تَرَكَ الْعَبْدُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْجِهَادِ كَانَ دَلِيلًا عَلَى ضَعْفِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي قَلْبِهِ.

الحق من أسماء الله تعالى.

وإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد بأنواعه، فقد يكون عاجزًا عن حمل سلاح لكن يمكن أن يجاهد باللسان ويجاهد بالمال، فإذا ترك ما يقدر عليه من ذلك، يكون هذا دليلًا على ضعف محبته لله وللرسول ﷺ.

❊❊❊

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْـمَحْبُوبَاتِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِاحْتِمَالِ الْـمَكْرُوهَاتِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَحَبَّةً صَالِحَةً أَوْ فَاسِدَةً.

أي محبوب سواء محبة صالحة أو فاسدة، حتى يناله الراغب فيه، لابد وأن يتعرض لأشياء تكرهها نفسه، ولا بد أن يحتمل أشياء من الأذى والضرر.

❊❊❊

فَالْـمُحِبُّونَ لِلْـمَالِ وَالرِّئَاسَةِ وَالصُّوَرِ لَا يَنَالُونَ مَطَالِبَهُمْ إِلَّا بِضَرَرٍ يَلْحَقُهُمْ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ الضَّرَرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

الذي يحب المال ويسعى لجمعه سواء بطريقة حلال أو بطريقة حرام فإنه يبذل وسعه ويتعب بدنه ويجد في عمل وسهر، وقد يسعى للحصول عليه بالسرقة فيعرض نفسه للمخاطر أو للحبس، من أجل التحصيل.

وكذلك الذي يحب الرئاسة، ربما يدبر مكائد وانقلابات على من هو فوقه، ويعرض نفسه لمخاطر، إما أن يفوز بالرئاسة وإما أن يتعرض للسجن أو القتل فيحتمل المصاعب والمتاعب من أجل تحصيل محبوبه.

وكذلك محب الصور والنساء، يضحي من أجل ذلك ويبذل من جهده وماله ويعرض نفسه للمخاطر .

***

فَالْمُحِبُّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ إِذَا لَمْ يَحْتَمِلْ مَا يَرَى ذُو الرَّأْيِ مِنْ الْمُحِبِّينَ لِغَيْرِ اللَّهِ مِمَّا يَحْتَمِلُونَ فِي سَبِيلِ حُصُولِ مَحْبُوبِهِمْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى ضَعْفِ مَحَبَّتِهِمْ لِلَّهِ إِذَا كَانَ مَا يَسْلُكُهُ أُولَئِكَ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي يُشِيرُ بِهِ الْعَقْلُ.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَشَدُّ حُبًا لِلَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة: ١٦٥] .

ذو الرأي، يعني: العاقل.

فالإنسان العاقل من المحبين للمال أو الرئاسة أو غيرها من أمور الدنيا يحتمل بعض الأذى من أجل تحصيل محبوبه، والمؤمن الذي يحب الله ورسوله لا يكون أقل شأنا من ذوي الرأي من المحبين للمال والرئاسة الذي يحتملون المكروه ويحتملون الأذى من أجل تحصيل محبوبهم والفوز به، فالمؤمن كذلك عليه أن يحتمل الأذى في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[الأنعام: ٣٤].

وفي حديث ورقة بن نوفل لما قال للنبي ﷺ: «**لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ قَطُّ إِلَّا عُودِيَ**»[١].

فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أوذوا واحتملوا ذلك في سبيل الله وفي سبيل الدعوة إلى الله، ومن المعلوم أن المؤمن أشد حبا لله، فهو أولى بالصبر من غيره.

وقد مر أن الآية فُسرت بتفسيرين.

الأول: أن المشرك يحب الله ويحب آلهته ويساوي آلهته بالله، ولكن المؤمنين حبهم لله أشد من حبهم لغير الله، من الأمور المباحة التي تحبها نفوسهم محبة طبيعية، فعند تعارض المحبة الطبيعية مع ما يحبه الله؛ فإنه يؤثر ما يحبه الله على هوى نفسه، بدليل أن المؤمن يصوم رمضان، رغم أن نفسه تحب الطعام وتكره الجوع والعطش، ولكن لما علم أن الله يحب منه أن يجوع ويعطش؛ فإنه يصوم ليؤثر محبوب الله على محبوب نفسه.

التفسير الثاني: أن المشركين يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله، ولكن المؤمنين أشد حبًا لله من حب المشركين لآلهتهم الباطلة.

والتفسير الثاني هو الذي يستشهد به في هذا الموضع.

***

نَعَمْ، قَدْ يَسْلُكُ الْمُحِبُّ لِضَعْفِ عَقْلِهِ وَفَسَادِ تَصَوُّرِهِ طَرِيقًا لَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَطْلُوبُ، فَمِثْلُ هَذِهِ الطَّرِيقِ لَا تُحْمَدُ إِذَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ صَالِحَةً مَحْمُودَةً، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ فَاسِدَةً وَالطَّرِيقُ غَيْرُ مُوَصِّلٍ.

قد يسلك الإنسان في محبة الشيء المحمود طريقًا غير صحيح، فهو عنده قصد

---

[١] أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة.

حسن لكن سلك وسيلة غير صحيحة، كبعض الجهلة -مثلا- من العباد، أو أهل البدع على اختلافهم، فقد يظن أنه لمحبته لله تعالى يتقرب إليه بالرهبانية؛ فيترك زواج النساء، أو أن يحرم بعض الحلال على نفسه، مثل النفر الثلاثة الذين جاءوا إلى بيت النبي ﷺ، فعن أنس ﷺ قال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: **«أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»** [١].

فهذا قد يكون مقصوده الوصول إلى محبة الله تعالى، لكنه سلك طريقا غير صحيحة، ليست هي الطريق التي توصل إلى محبة الله.

فيقول رحمه الله: حتى لو كان المحبوب صالحا، أو محبة صالحة محمودة لكن سلك إليها طريقة غير صحيحة فهذا من ضعف العقل وفساد التصور، فما بالك إذا كانت المحبة فاسدة والطريق التي سلكت إليها لا توصل إلى هذا المحبوب الفاسد.

***

كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَهَوِّرُونَ فِي طَلَبِ الْمَالِ، وَالرِّئَاسَةِ وَالصُّوَرِ فِي حُبِّ أُمُورٍ تُوجِبُ لَهُمْ ضَرَرًا، وَلَا تُحَصِّلُ لَهُمْ مَطْلُوبًا، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ الطُّرُقُ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْعَقْلُ لِحُصُولِ مَطْلُوبِهِ.

كالشخص الذي يحب المال ويسعى في تحصيله، لكن سلك طريقًا تزيده فقرا

[١] أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

وتضيع ماله، كمن سلك طلب المال عن طريق المقامرة مثلا، فكان معه ألف وذهب يطلب المال بالمقامرة فضاعت منه الألف؛ لأنه سلك طريقا غير صحيح.

وَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَكُلَمّا ازْدَادَ الْقَلْبُ حُبّا لِلَّهِ ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً، وَكُلَمّا ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً ازْدَادَ لَهُ حُبّا وَحُرِّيَّةً عَمَّا سِوَاهُ.

خلاصة ما مر: أنه كلما ازداد القلب حبًّا لله؛ ازداد عبودية لله تعالى.

وكلما ازداد عبودية؛ ازداد حبًّا، فبينهما ارتباط.

وكلما ازداد عبودية لله ازداد تحررًا عما سوى الله سبحانه تعالى، فلا يتعلق قلبه بغير الله.

وَالْقَلْبُ فَقِيرٌ بِالذَّاتِ إِلَى اللَّهِ مِنْ وَجْهَيْنِ:
مِنْ جِهَةِ الْعِبَادَةِ وَهِيَ الْعِلَّةُ الْغَائِيَةُ
وَمِنْ جِهَةِ الِاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ، وَهِيَ الْعِلَّةُ الْفَاعِلِيَّةُ.

هذه مصطلحات المتكلمين، يقولون: العلة غائية وفاعلية:

العلة الغائية: وتكون قبل الفعل، وهي الغاية أو الهدف أو الحكمة من إيجاد الشيء، فيقولون -مثلا-: عندما يصنع الصائغ حليًّا يُتزين بها، فالتزين بالحلي هذا نسميه العلة الغائية، يعني هي الغاية من الصناعة.

أو يصنع النجار كرسيًّا ليُجلس عليه، فالجلوس على الكرسي هو العلة الغائية من

صنع الكرسي.

العلة الفاعلية: كالنجار هو العلة الفاعلية في الكرسي؛ لأنه هو الذي صنعه، والصائغ هو العلة الفاعلية في الحلي؛ لأنه هو الذي صاغها.

فيقول ﷺ: «**الْقَلْبُ فَقِيرٌ بِالذَّاتِ إِلَى اللهِ**»، لأن الإنسان بطبيعته فيه فقر ذاتي، والله ﷻ من صفته الغنى الذاتي.

فغنى الله تعالى الذاتي ليس ناشئًا عن امتلاك الله تعالى للسموات والأرض وما بينهما، ولكنه سبحانه له الغنى الذاتي؛ لأنه ﷻ هو الغني عن العالمين، فلو شاء ﷻ أن يزيل هذا الكون، وأن يخلق مثله أو أعظم منه، لفعل ما يشاء ﷻ، فليس غناه بملكه السماوات والأرض وما بينهما، وإنما بغناه عنها ﷻ.

أما الإنسان فطبيعته أنه فقير، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[محمد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥].

والإنسان قد يوصف بالغنى، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[البقرة: ٢٧٣]

وقال تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾[النساء: ١٣٥].

ولكن الغنى هذا ليس غنى ذاتيًّا، بل هذا غنى عارض مكتسب، يعني عرض له بسبب امتلاكه لأموال وأشياء خارجة عن ذاته، وبمجرد زوال هذه الأشياء يرجع إلى الفقر.

فالإنسان فقير بذاته إلى الله من وجهين:

الأول: من جهة العبادة وهي العلة الغائية.

فإن الغاية من خلق الخلق أن يعبدوا الله ﷻ، وأيضا غاية المسلم الوصول إلى

مرضاة الله ﷻ وإلى جنته.

الثاني: من جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلية.

استعانة القلب بالله ﷻ، واعتماد القلب على الله ﷻ لأن الله تعالى هو الذي خلق هذا القلب، وهو الذي أوجده، وهو الذي أوجد هذا الإنسان، فالقلب فيه افتقار ذاتي إلى الله تعالى، فالمؤمن يستعين بالله ويتوكل على الله، وسيشرح هذا ويوضحه فيما يلي:

فَالْقَلْبُ لَا يَصْلُحُ وَلَا يُفْلِحُ، وَلَا يَلْتَذُّ، وَلَا يُسَرُّ، وَلَا يَطِيبُ، وَلَا يَسْكُنُ، وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحُبِّهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَلَوْ حَصَلَ لَهُ كُلُّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ يَطْمَئِنَّ، وَلَمْ يَسْكُنْ، إِذْ فِيهِ فَقْرٌ ذَاتِيٌّ إِلَى رَبِّهِ، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ، وَمَحْبُوبُهُ، وَمَطْلُوبُهُ وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ الْفَرَحُ، وَالسُّرُورُ، وَاللَّذَّةُ، وَالنِّعْمَةُ، وَالسُّكُونُ، وَالطُّمَأْنِينَةُ.

هذا هو القسم الأول من الفقر من جهة العبادة، فالقلب لا يصلح ولا ينعم ولا يهتز إلا بعبادة الله ﷻ.

وَهَذَا لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِإِعَانَةِ اللهِ لَهُ، لَا يَقْدِرُ عَلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ لَهُ إِلَّا اللهُ، فَهُوَ دَائِمًا مُفْتَقِرٌ إِلَى حَقِيقَةِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥] .

العبادة لا تكون إلا بإعانة الله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]، فحتى العبادة التي هي عمل العبد، من خلق الله ﷻ.

أيضا، افتقار القلب إلى الله من جهة الاستعانة والتوكل، هذا لا يحصل إلا بإعانة الله له، وهذا معنى الآية الكريمة في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

و قد ورد في الآثار أن الله تعالى جمع في القرآن العظيم علم التوراة والإنجيل والزبور، ثم جمع الله علوم القرآن الكريم في فاتحة الكتاب، فهي أم الكتاب وجمع فيها مقاصد القرآن وعلوم القرآن ثم جمعت علوم الفاتحة في هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فالعبد دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولهذا للإمام ابن القيم رحمه الله كتابه العظيم: «مدارج السالكين شرح منازل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» في أربع مجلدات كلها في شرح منازل العبادة ومنازل الاستعانة.

***

فَإِنَّهُ لَوْ أُعِينَ عَلَى حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ وَيَطْلُبُهُ وَيَشْتَهِيهِ وَيُرِيدُهُ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ عِبَادَةٌ لِلَّهِ، فَلَنْ يَحْصُلَ إِلَّا عَلَى الْأَلَمِ وَالْحَسْرَةِ وَالْعَذَابِ، وَلَنْ يَخْلُصَ مِنْ آلامِ الدُّنْيَا وَنَكَدِ عَيْشِهَا إِلَّا بِإِخْلَاصِ الْحُبِّ للهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ هُوَ غَايَةَ مُرَادِهِ وَنِهَايَةَ مَقْصُودِهِ، وَهُوَ الْمَحْبُوبُ لَهُ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ إِنَّمَا يُحِبُّهُ لِأَجْلِهِ لَا يُحِبُّ شَيْئًا لِذَاتِهِ إِلَّا اللهَ.

فَمَتَى لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هَذَا، لَمْ يَكُنْ قَدْ حَقَّقَ حَقِيقَةَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَلَا حَقَّقَ التَّوْحِيدَ، وَالْعُبُودِيَّةَ، وَالْمَحَبَّةَ للهِ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ نَقْصِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، بَلْ مِنَ الْأَلَمِ، وَالْحَسْرَةِ، وَالْعَذَابِ، بِحَسَبِ ذَلِكَ.

القلب لا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة الله تعالى وإلا بإعانة الله له على العبادة؛ يشهد

به كل من شرح تعالى صدره للإسلام بعد أن كان مشركًا، وكذلك يشهد به من هداه الله إلى الاستقامة بعد أن كان منحرفًا، خاصة من كان منهم في سعة من الدنيا والمال والمنصب، فتجدهم يحكون عن أحوالهم من ضيق واكتئاب وقلق نفسي، رغم ما كانوا فيه من أموال ونساء، وأنهم ما وجدوا الراحة والسكينة والطمأنينة إلا بعد الإيمان والاستقامة، ولذلك نجد بلادًا من أكثر البلاد غنًى ومالًا واستقرارًا يكثر فيها الانتحار، ويكثر فيها الأمراض النفسية والاكتئاب، مع أنهم تيسرت لهم أمور الدنيا، فليس عندهم ما ينقصهم من أمور الدنيا، لكن ينقصهم ما هو أعظم من ذلك، وهو سكينة القلب التي لا تكون إلا بعبادة الله ﷻ؛ لأن قلبه مفطور على ذلك.

فيقول ؒ: فلو حصَّل القلب كل ما يريد من متع الدنيا ونعيمها الزائل فإنه لا يحصل له السكينة بل بالعكس من هذا، فالسعادة في متع الدنيا دائما مزعومة، أو تكون لحظية، لأنه يكون في سكرة، وعقله غافل عمَّا ينفعه، لكن بمجرد انقضاء وطره من تلك الفاحشة أو الخمر أو المنكر يبدأ يعاني من أثر ذلك وألمه النفسي، فيصبح هذا الأمر مثل الداء، كأنه يتداوى بالداء، فيزداد اكتئابًا وضيقًا.

وكذا بخلاف طاعة الله ﷻ، قد يصاحب وقت تأدية الطاعة مشقة بدنية أو مجهود بدني، لكن يعقبها لذة وسعادة أبد الدهر في الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

وَلَوْ سَعَى فِي هَذَا الْـمَطْلُوبِ، وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ فِي حُصُولِهِ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ، فَإِنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

الْـمَطْلُوبِ: يعني إذا وُجد عنده النوع الأول، وهو افتقار القلب إلى الله من جهة العبادة، فهو يطلب أن يكون عبدًا لله ويريد أن يصل إلى المحبوب الذي هو الله ﷻ،

لكنه إذا كان لا يستعين بالله، ولا يتوكل عليه، ولا يعتمد على الله في إعانته على التوصيل إلى ذلك المطلوب فلن يصل إليه.

***

فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللَّهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ الْمَطْلُوبُ الْمَحْبُوبُ الْمُرَادُ الْمَعْبُودُ.

وَمِنْ حَيْثُ هُوَ الْمَسْئُولُ الْمُسْتَعَانُ بِهِ الْمُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، فَهُوَ إِلَهُهُ لَا إِلَهَ لَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ رَبُّهُ لَا رَبَّ لَهُ سِوَاهُ.

وَلَا تَتِمُّ عُبُودِيَّتُهُ لِلَّهِ إِلَّا بِهَذَيْنِ.

تكلم عن الافتقار إلى الله من جهة الألوهية ومن جهة الربوبية:

من جهة الربوبية: أن الله تعالى هو المالك والمتصرف.

ومن جهة الألوهية: أن الله تعالى هو المعبود ﷻ، الذي لا إله غيره.

***

فَمَتَى كَانَ يُحِبُّ غَيْرَ اللهِ لِذَاتِهِ، أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِ اللهِ أَنَّهُ يُعِينُهُ كَانَ عَبْدًا لَمَّا أَحَبَّهُ، وَعَبْدًا لَمَّا رَجَاهُ بِحَسَبِ حُبِّهِ لَهُ وَرَجَائِهِ إِيَّاهُ.

من أحب غير الله لذاته؛ فإما لخلل في ذات المحبوب أنه يحب غير الله، أو في المعين، فقد يكون المعين يحب الله لكن يلتفت إلى غير الله في أن يعينه على تحصيل مطلوبه.

***

وَإِذَا لَمْ يُحِبَّ لِذَاتِهِ إِلَّا اللَّهَ، وَكُلَّمَا أَحَبَّ سِوَاهُ فَإِنَّمَا أَحَبَّهُ لَهُ، وَلَمْ يَرْجُ قَطُّ شَيْئًا إِلَّا اللَّهَ وَإِذَا فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنْ الْأَسْبَابِ، أَوْ حَصَّلَ مَا حَصَّلَ مِنْهَا كَانَ مُشَاهِدًا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا وَقَدَّرَهَا وَأَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاللَّهُ رَبُّهُ، وَمَلِيكُهُ، وَخَالِقُهُ، وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، كَانَ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ تَمَامِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ بِحَسَبِ مَا قُسِمَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ.

وَإِذَا لَمْ يُحِبَّ أَحَدًا لِذَاتِهِ إِلَّا اللَّهَ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَحَبَّهُ سِوَاهُ فَإِنَّمَا أَحَبَّهُ لَهُ، وَلَمْ يَرْجُ قَطُّ شَيْئًا إِلَّا اللَّهَ.

هذا حال المؤمن، فالمؤمن لا يحب شيئًا لذاته إلا الله ﷻ، ويتعلق بالله تعالى من جهة طلب الإعانة منه.

❊ ❊ ❊

وَإِذَا فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنْ الْأَسْبَابِ أَوْ حَصَّلَ مَا حَصَّلَ مِنْهَا، كَانَ مُشَاهِدًا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا وَقَدَّرَهَا وَسَخَّرَهَا له، وَأَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاللَّهُ رَبُّهُ، وَمَلِيكُهُ، وَخَالِقُهُ، وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، كَانَ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ تَمَامِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ بِحَسَبِ مَا قُسِمَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ.

المؤمن يتوكل على الله ويستعين به، ولا ينفي ذلك الأخذ بالأسباب، لكن أثناء أخذ المسلم بالأسباب يشاهد أن الله هو الذي خلقها وقدرها وسخرها له، يعني إذا كان مريضا يتداوى، أو يذاكر حتى ينجح في الاختبار.

فقلبه لا يتعلق بهذه الأسباب، يعني هو لا يعتمد على أن المذاكرة هي التي ستنجحه، أو الدواء هو الذي سيشفيه، وإنما فقط هي أسباب سخرها الله ﷻ وقدرها وخلقها.

فإن حصل له مطلوبه لا يتعلق بالسبب، وإنما يتعلق بالله تعالى؛ فيحمد الله لأن الله هو الذي سخر له هذا السبب وهيأه وجعله متوفرًا له وجعل هذا السبب يحقق مقصوده.

❊ ❊ ❊

وَالنَّاسُ فِي هَذَا عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ لَا يُحْصِي طَرَفَيْهَا إِلَّا اللَّهُ.

الناس في أمر العبادة والاستعانة على درجات.

❊ ❊ ❊

فَأَكْمَلُ الْخَلْقِ، وَأَفْضَلُهُمْ، وَأَعْلَاهُمْ، وَأَقْرَبُهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَأَقْوَاهُمْ، وَأَهْدَاهُمْ: أَتَمُّهُمْ عُبُودِيَّةً لِلَّهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي أَرْسَلَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَهُوَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ، فَالْمُسْتَسْلِمُ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مُشْرِكٌ، وَالْمُمْتَنِعُ عَنْ الِاسْتِسْلَامِ لَهُ مُسْتَكْبِرٌ.

هنا يقول: الإسلام أن تستلم لله لا لغيره، وهذه هي حقيقة دين الإسلام، ثم يذكر نوعين من الناس:

النوع الأول: نوع يستسلم لله ولغيره؛ فهذا مشرك.

والنوع الثاني: يمتنع عن الاستسلام لله؛ فهذا مستكبر.

فهناك من الكفر ما هو بسبب الشرك بالله تعالى، وهناك كفر الاستكبار.

❊ ❊ ❊

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، كَمَا أَنَّ النَّارَ لَا يَخْلُدُ فِيهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»[١] .

فَجَعَلَ الْكِبْرَ مُقَابِلًا لِلْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْكِبْرَ يُنَافِي حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ.

يوم القيامة يقول المؤمنون لله تعالى: «رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا»[٢].

فإذًا؛ من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان سيخرج من النار، ومن كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخل الجنة.

فكأن الكبر أصبح مقابل الإيمان الذي هو العبودية،فالعبودية هي استسلام لله تعالى، والكبر يتنافى معها.

❊ ❊ ❊

كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ: الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبته».

فَالْعَظَمَةُ وَالْكِبْرِيَاءُ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْكِبْرِيَاءُ أَعْلَى مِنْ الْعَظَمَةِ؛

---

[١] أخرجه مسلم (٩١) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[٢] أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

وَلِهَذَا جَعَلَهَا بِمَنْزِلَةِ الرِّدَاءِ، كَمَا جَعَلَ الْعَظَمَةَ بِمَنْزِلَةِ الْإِزَارِ.

الإزار في حق المخلوق: ما يستر به الإنسان نصفه الأسفل، والرداء هو ما يلبسه على نصفه الأعلى.

يعني -ولله تعالى المثل الأعلى- العظمة في الحديث وصفت بأنها إزار الله تعالى، والكبرياء وصف بأنه رداء الله، فالكبرياء أعلى.

***

وَلِهَذَا كَانَ شِعَارُ الصَّلَوَاتِ، وَالْأَذَانِ، وَالْأَعْيَادِ هُوَ: التَّكْبِيرُ، وَكَانَ مُسْتَحَبًّا فِي الْأَمْكِنَةِ الْعَالِيَةِ كَالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَإِذَا عَلَا الْإِنْسَانُ شَرَفًا أَوْ رَكِبَ دَابَّةً وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَبِهِ يُطْفَأُ الْحَرِيقُ وَإِنْ عَظُمَ، وَعِنْدَ الْأَذَانِ يَهْرُبُ الشَّيْطَانُ.

شعار الصلاة: الله أكبر، تكبيرة الإحرام، فلا يدخل الإنسان في الصلاة إلا بالتكبير، وكذلك الأذان والأعياد.

وإذا علا الإنسان من الأرض وارتفع، أو إذا ركب دابة، كبر الله سبحانه.

وعند رؤية الحريق، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْحَرِيقَ فَكَبِّرُوا؛ فَإِنَّ التَّكْبِيرَ يُطْفِئُهُ**»[١]، فالنار مهما كانت كبيرة فالله أكبر من كل شيء.

وعند الأذان يهرب الشيطان، فعن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ**»[٢].

---

[١] أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٤)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٦٠٣).

[٢] أخرجه مسلم (٣٨٩).

يعني يصدر الشيطان هذا الصوت؛ فيشوش على نفسه حتى لا يسمع الصوت.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠].

هنا قسّم الله تعالى الخلق إلى قسمين:

الأول: عابد لله، وهو الذي يدعوه.

الثاني: مستكبر عن عبادة الله، والكبر يتنافى مع العبودية.

وَكُلُّ مَنْ اسْتَكْبَرَ عنْ عِبَادَةِ اللَّهِ لَا بُدَّ أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَهُ.

كما مر بنا دائما، أن الإنسان لا ينفك عن العبودية، إن لم يكن عبدا لله صار عبدا لغير الله ولابد.

وهذا بالطبع في عبادة الطوع، يعني إن لم يصرف عبادة الطوع لله صرفها لغير الله ولابد، هناك عبادة الكره هذه شاء أم أبى فهو عبد لله تنفذ فيه أوامر الله الكونية كما مر[١].

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ حَسَّاسٌ يَتَحَرَّكُ بِالْإِرَادَةِ.

حساس يعني له حس، وحواس الإنسان خمسة: السمع والبصر والشم والذوق

[١] انظر بيان ذلك ص .

والمس.

ويتحرك الإنسان بالإرادة، والإرادة إذا صاحبت القدرة تحصل الحركة، فالفعل هو الإرادة جازمة مع القدرة.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ»[١] .

من معاني الصدق: موافقة الواقع ومطابقة الشيء للواقع، فالكلام الذي يطابق الواقع فهو صدق، فهنا من هذا الباب هذه الأسماء أصدق الأسماء، يعني أكثرها انطباقًا على حال الإنسان ووصفًا لواقع الإنسان وحاله.

فَالْحَارِثُ الْكَاسِبُ الْفَاعِلُ، وَالْهَمَّامُ فَعَّالٌ مِنْ الْهَمِّ، وَالْهَمُّ أَوَّلُ الْإِرَادَةِ .

كلمة الحارث في اللغة ليست فقط مرتبطة بالزرع، وإنما الحرث معناه أعم من ذلك، فالحرث تشمل كل كسب وفعل.

الهمام هو ذو الهم، أي ذو الإرادة، فالمريد هو الذي يهِم بفعل الشيء.

[١] أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨١٤) عن أبي وهب رضي الله عنه، وصححه الألباني، وأما ما جاء في صحيح مسلم (٢١٣٢) فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ» .

فَالْإِنْسَانُ لَهُ إِرَادَةٌ دَائِمًا، وَكُلُّ إِرَادَةٍ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُرَادٍ تَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَلَا بُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ مِنْ مُرَادٍ مَحْبُوبٍ هُوَ مُنْتَهَى حُبِّهِ وَإِرَادَتِهِ.

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ مَعْبُودَهُ وَمُنْتَهَى حُبِّهِ وَإِرَادَتِهِ بَلْ اسْتَكْبَرَ عَنْ ذَلِكَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُرَادٌ مَحْبُوبٌ يَسْتَعْبِدُهُ غَيْرُ اللَّهِ، فَيَكُونُ عَبْدًا لِذَلِكَ الْمُرَادِ الْمَحْبُوبِ: إِمَّا الْمَالُ، وَإِمَّا الْجَاهُ، وَإِمَّا الصُّوَرُ، وَإِمَّا مَا يَتَّخِذُهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ: كَالشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالْكَوَاكِبِ، وَالْأَوْثَانِ، وَقُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالصَّالِحِينَ، أَوْ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ، الَّذِينَ يَتَّخِذُهُمْ أَرْبَابًا، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عَبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

كل إنسان همام، يعني لابد أن يريد شيئًا، فلا يمكن للإنسان أن يخلو من فعل أو هم من إرادة فعل، فلابد أن يكون عنده إرادة، وله أفعال يفعلها وإرادة تحركه لفعل هذه الأفعال.

فإن لم يكن مراده هو الله ﷻ، فلابد وأنه له مراد آخر، لأنه لا يوجد إنسان ليس له مراد، فإن لم يكن مريدًا لله لابد أن يكون له مرادٌ آخر، إما المال، وإما النساء إلى آخر ما ذكر رحمه الله.

❀❀❀ ❀❀❀ ❀❀❀

وَإِذَا كَانَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللَّهِ يَكُونُ مُشْرِكًا، وَكُلُّ مُسْتَكْبِرٍ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَلِهَذَا كَانَ فِرْعَوْنُ مِنْ أَعْظَمِ الْخَلْقِ اسْتِكْبَارًا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَكَانَ مُشْرِكًا.

رغم أن الاستكبار هو الإعراض عن عبادة الله، إلا أنه في نفس الوقت هو اتخاذ شريك لله ﷻ؛ لأن الإنسان لا يخلو من عبودية الكره لله، وهو اتخذ في عبادة الطوع معبودا آخر لما استكبر عن عبادة الله؛ فأصبح مشركا.

فالاستكبار حتى لو ظن أنه إعراض عن عبادة الله بالمرة لكن هو في الحقيقة قد اتخذ شريكا لله تعالى، كفرعون كان أعظم الخلق استكبارًا عن عبادة الله.

❁❁❁

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾، **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر: ٣٢- ٣٥] .

في قراءة أبي عمرو[١]: «على كل قلبٍ متكبر جبار»، فصارت «متكبر» صفة للقلب، وفي هذه القراءة الصفة لصاحب القلب.

فالقصد: أن الاستشهاد بهذه الآيات لأنها فيها وصف فرعون بالكبر والاستكبار.

❁❁❁

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾[العنكبوت: ٣٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾[القصص: ٤].

هنا وصفه سبحانه بالعلو في الأرض، وهذا من الاستكبار.

❁❁❁

[١] أبو عمرو زبان بن العلاء المازني البصري، تابعي جليل، انظر ترجمته في «أثر اختلاف القراءات الأربعة عشر في مباحث العقيدة والفقه» للمؤلف -حفظه الله- ص (٥٧- ٥٩)، ط/ دار الحجاز.

وَقَالَ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[النمل: ١٤]، **وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.**

هنا أيضا وصف فرعون بالعلو في الأرض وهو الاستكبار، وآيات كثيرة فيها وصف فرعون بالعلو والاستكبار في القرآن.

* * *

وَقَدْ وُصِفَ فِرْعَوْنُ بِالشِّرْكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف: ١٢٧].

العلو والاستكبار في فرعون لم ينفِ عنه الشرك، في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ يعني: الأصنام الأوثان التي تعبدها، إذ هو أعظم الناس استكبارًا عن عبادة الله، لكنه صرف العبادة لغير الله، فاتخذ آلهة فعبدهم وأشرك بهم مع الله ﷻ.

* * *

بَلِ الِاسْتِقْرَاءُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ أَعْظَمَ اسْتِكْبَارًا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ كَانَ أَعْظَمَ إِشْرَاكًا بِاللَّهِ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ازْدَادَ فَقْرُهُ وَحَاجَتُهُ إِلَى الْمُرَادِ الْمَحْبُوبِ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ: مَقْصُودُ الْقَلْبِ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ، فَيَكُونُ مُشْرِكًا بِمَا اسْتَعْبَدَهُ مِنْ ذَلِكَ.

الاستقراء: هو تتبع الجزئيات والوصول منها إلى حكم كلي.

فمن خلال تتبع أفراد المستكبرين عن عبادة الله، وُجِد أنهم أعظم الناس إشراكا بالله.

* * *

وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ الْقَلْبُ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللَّهُ هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يَفْرَحُ إِلَّا بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَلَا يَكْرَهُ إِلَّا مَا يَبْغَضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ، وَلَا يُوَالِي إِلَّا مَنْ وَالَاهُ اللَّهُ، وَلَا يُعَادِي إِلَّا مَنْ عَادَاهُ اللَّهُ، وَلَا يُحِبُّ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَبْغَضُ شَيْئًا إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُعْطِي إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا لِلَّهِ.

فَكُلَّمَا قَوِيَ إِخْلَاصُ دِينِهِ لِلَّهِ كَمُلَتْ عُبُودِيَّتُهُ وَاسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تكمل تبرئته مِنَ الْكِبْرِ وَالشِّرْكِ.

ما في هذا الموضع هو خلاصة ما مر ذكره، وهي النتيجة التي يريد أن يصل إليها المؤلف، وهي أن الكبر يتنافى مع العبودية، وأن الذي تكبر عن عبادة الله لابد وأن يقع في الإشراك بالله، فمن كملت عبوديته لله لابد وأن أن يكون مجانبا للكبر ومجانبا للشرك.

***

وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النَّصَارَى، وَالْكِبْرُ غَالِبٌ عَلَى الْيَهُودِ.

الشرك اتخاذ شريك لله تعالى إما في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته ﷻ.

فشرك الربوبية: كاعتقاد أنه يخلق مع الله، أو يرزق مع الله، أو يدبر أمر الكون مع الله.

وشرك الألوهية: هو أن يُعبد مع الله إلها آخر.

وشرك الأسماء والصفات: أن يُنعت هذا الشريك ويوصف بصفات لا تنبغي إلا لله.

***

قَالَ تَعَالَى فِي النَّصَارَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣١].

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ**»، فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**»[١].

فاتخاذ الأحبار الرهبان أربابا من دون الله معناه أطاعوهم، فجعلوهم شركاء لله في التحليل والتحريم، واتخذوا المسيح بن مريم ربًّا مع الله، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه هو عما يشركون.

***

وَقَالَ فِي الْيَهُودِ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[البقرة: ٨٧].

الآية السابقة وصف النصارى بالشرك؛ فقال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، وهذا الآية قال عن اليهود: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فوصفهم بالكبر.

***

[١] أخرجه الترمذي في «السنن» (٣٠٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢١٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٢٩٣).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾[الأعراف: ١٤٦] .

أخبر سبحانه أنه سيصرف عن آياته المتكبرين في الأرض أي عن الانتفاع بآياته؛ فلا يتعظون بها؛ ولا ينتفعون بها؛ ولا يؤمنون بها.

❧❧❧

وَلَمَّا كَانَ الْكِبْرُ مُسْتَلْزِمًا لِلشِّرْكِ، وَالشِّرْكُ ضِدُّ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ٤٨].

وَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء: ١١٦].

الكبر يستلزم الشرك كما مر، يعني ما من متكبر عن عبادة الله إلا وقد وقع في الإشراك بالله، والشرك ضد الإسلام؛ فلهذا لا يغفر الله تعالى الشرك كما في الآيتين.

❧❧❧

كَانَ الْأَنْبِيَاءُ جَمِيعُهُمْ مَبْعُوثِينَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، فَهُوَ الدِّينُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ، لَا مِنْ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنْ الْآخِرِينَ.

هنا في هذا الموضع سيذكر المؤلف ﷺ آيات من كتاب الله تعالى تبين أن الإسلام

العام هو دين جميع الأنبياء.

***

قَالَ نُوحٌ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٧٢] .

وَقَالَ فِي حَقِّ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٠ - ١٣٢] .

وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١] .

وَقَالَ مُوسَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٤-٨٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾[المائدة: ٤٤].

وَقَالَتْ بِلْقِيسُ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] ، **وَقَالَ:** ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[المائدة: ١١١].

وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران: ١٩] .

وَقَالَ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[آل عمران: ٨٣] .

فَذَكَرَ إِسْلَامَ الْكَائِنَاتِ طَوْعًا وَكَرْهًا، لِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ جَمِيعَهَا مُتَعَبِّدَةٌ لَهُ التَّعَبُّدَ الْعَامَّ، سَوَاءٌ أَقَرَّ الْمُقِرُّ بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ، وَهُمْ مَدِينُونَ مُدَبَّرُونَ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ لَهُ طَوْعًا وَكَرْهًا.

المخلوقات جميعا متعبدة لله التعبد العام، سواء أقر المخلوق بذلك أو أنكره.

وقوله: «**وَهُمْ مَدِينُونَ مُدَبَّرُونَ**»؛ أي: هم مجزيون ومحاسبون.

ومدبرون: يعني أن الله ﷻ يدبر أمرهم.

❊ ❊ ❊

لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ خُرُوجٌ عَمَّا شَاءَهُ وَقَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَمَلِيكُهُمْ يُصَرِّفُهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ، وَهُوَ خَالِقُهُمْ كُلِّهِمْ وَبَارِئُهُمْ وَمُصَوِّرُهُمْ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ مَرْبُوبٌ، مَصْنُوعٌ، مَفْطُورٌ، فَقِيرٌ، مُحْتَاجٌ، مُعَبَّدٌ، مَقْهُورٌ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ.

وَهُوَ وَإِنْ كَانَ قَدْ خَلَقَ مَا خَلَقَهُ بِأَسْبَابٍ، فَهُوَ خَالِقُ السَّبَبِ وَالْمُقَدِّرُ لَهُ، وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ كَافْتِقَارِ هَذَا.

قوله: «**وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ كَافْتِقَارِ هَذَا**» يعني السبب مفتقر إلى الله، والمسبَب مفتقر إلى الله، فالله تعالى هو المسبِب بالكسرة، أما المسبَب فهو النتيجة، كما نقول مثلا: الدواء سبب للشفاء، فالمسبَب هو الشفاء، والدواء هو سبب للشفاء، فالسبب والمسبَب مفتقران إلى الله تعالى.

❊ ❊ ❊

وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ بِفِعْلِ خَيْرٍ وَلَا دَفْعِ ضَرَرٍ، بَلْ كُلُّ مَا هُوَ سَبَبٌ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ يُعَاوِنُهُ وَإِلَى مَا يَدْفَعُ عَنْهُ الضِّدَّ الَّذِي يُعَارِضُهُ وَيُمَانِعُهُ.

ليس هناك سبب من هذه الأسباب المخلوقة يستقل بإيجاد المسبَب، بل كل سبب محتاج إلى سبب قبله وأسباب تعاونه واجتناب أسباب تعيقه عن أداء نتيجته التي قدرها الله ﷻ، فقد توجد الأسباب ومع ذلك لا يحصل المسبَب لوجود مانع، أو لكون هذا الأمر لا يستقل بسبب ويحتاج إلى أكثر من سبب، وهذه الأسباب لابد من انتفاء موانعها حتى يحصل المطلوب.

فكل ذلك مرده إلى الله تعالى، هو الذي يسبب هذه الأسباب، وهو الذي يقدر نتائجها، ويمنع ما يُعيق عمل هذه الأسباب بمشيئته ﷻ .

❊ ❊ ❊

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ يُعَاوِنُهُ وَلَا ضِدٌّ يُنَاوِئُهُ وَيُعَارِضُهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

الله تعالى ليس له ضد يناوئه ويعارضه، يعني إذا قضى الله أمرًا فلا يوجد من شيء يحول دون إمضاء أمر الله ونفاذ ما قدره الله ﷻ.

❊ ❊ ❊

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٧] .

وَقَالَ تَعَالَى عَنْ الْخَلِيلِ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٨٢] .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إيمَانَهُ بِظُلْمٍ، فَقَالَ: «إنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] » .

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ يعني: لم يخلطوا إيمانهم بشرك.

وَإِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ إمَامُ الْحُنَفَاءِ الْمُخْلَصِينَ حَيْثُ بُعِثَ وَقَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ دِينُ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] .

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ﴾ أي: امتحنه واختبره الله تعالى.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ يعني: امتثل لأمر الله وأدى ما أمر به على أكمل وجه.

﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن الله تعالى أعطاه العهد أنه سيجعله إماما للناس هو وذريته، لكن هذا العهد لا ينال الظالمين

منهم، وإنما هو عهد للمؤمنين الطائعين المصطفين.

فَبَيَّنَ أَنَّ عَهْدَهُ بِالْإِمَامَةِ لَا يَتَنَاوَلُ الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ الظَّالِمُ إِمَامًا، وَأَعْظَمُ الظُّلْمِ الشِّرْكُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل: ١٢٠] .

وَالْأُمَّةُ: هُوَ مُعَلِّمُ الْخَيْرِ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ، كَمَا أَنَّ «الْقُدْوَةَ» الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ.

أمة بمعنى إمام يُؤتم به في الخير، كما أن القدوة الذي يقتدى به.

وَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَإِنَّمَا بَعَثَ الْأَنْبِيَاءَ بَعْدَهُ بِمِلَّتِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ٦٨] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[آل عمران: ٦٧] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ [البقرة].

كل الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم ﷺ كانوا من ذريته، وبملته عليه السلام.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ إبْرَاهِيمَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»[١]، فَهُوَ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ النَّبِيِّ وَهُوَ خَلِيلُ اللَّهِ تَعَالَى.

قصة الحديث كما في صحيح مسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ** عليه السلام».

وهنا مسألة؛ وهي مسألة المفاضلة بين الأنبياء:

فهناك أحاديث عن نبينا ﷺ ينهى فيها عن تفضيله على غيره من النبيين، مثل هذا الحديث.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ جَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: يَا أَبَا القَاسِمِ ضَرَبَ وَجْهِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: «مَنْ»؟، قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: «ادْعُوهُ»، فَقَالَ: «أَضَرَبْتَهُ؟»، قَالَ: سَمِعْتُهُ بِالسُّوقِ يَحْلِفُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، قُلْتُ: أَيْ خَبِيثُ، عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَى**»[٢].

---

[١] أخرجه مسلم (٢٣٦٩).

[٢] أخرجه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤).

وكذلك قال ﷺ: « **مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى** »[١]، فنبينا ﷺ نهى عن تفضيله على هؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه.

وفي نفس الوقت ثبت أيضًا عنه ﷺ أنه قال: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ**»[٢]. ومعنى قوله ﷺ: «**وَلَا فَخْرَ**»؛ أي: لا أقول ذلك على سبيل التفاخر به، وإنما أقوله مبلغًا عن الله ﷻ لأن الأمة لا سبيل لها إلى معرفة أنه ﷺ سيد ولد آدم إلا عن طريق تبليغه ﷺ.

والعلماء في شرحهم لتلك الأحاديث وتوفيقهم بينها على قولين:

الأول: أن النبي ﷺ لم يكن أوحي إليه أنه سيد ولد آدم وأنه أفضل الأنبياء وقت أن نهى عن تفضيله، ثم أوحي إليه بذلك بعدها.

والثاني: أنه ﷺ كان يعلم أنه أفضل الأنبياء ولكن نهى عن تفضيله على غيره من النبيين على وجه يكون فيه تنقص لحق المفضل عليه، أي لا بأس أن يُفضَّل ﷺ لكن ليس على وجه فيه تنقص من المفضل عليه ، فإذا فُضل نبينا ﷺ على وجه فيه توقير واحترام لجميع الأنبياء من غير انتقاص لمقام أحد منهم أو فضله ؛ فإن ذلك لا بأس به ويكون ﷺ قال ذلك تواضعًا منه ﷺ.

فقول المؤلف ﵀: «**وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»** ...» يستشهد بهذا الحديث أن إبراهيم خير البرية لكن استثنينا من البرية نبينا محمدًا ﷺ بالدليل الخاص الذي ورد فيه، وهو قوله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ**» .

---

[١] أخرجه مسلم (٢٣٧٧) عن ابن عباس ﭭ.

[٢] أخرجه الترمذي (٣١٤٨)عن أبي سعيد ﭬ، وأخرجه مسلم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة ﭬ بدون قوله: «ولا فخر» .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»[١].

وَقَالَ: «لَوْ كُنْت مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»[٢] - يَعْنِي نَفْسَهُ - .

وَقَالَ: «لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»[٣].

الخوخة: هي الباب الذي يفصل بين بيتين، بحيث إذا فتحته يدخلك من بيت على بيت، فالخوخة هنا باب لبيت أبي بكر رضي الله عنه يفتح على بيت الله تعالى الذي هو المسجد.

فقوله ﷺ: «لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ» وذلك أنه حول مسجد النبي عليه الصلاة والسلام كانت بيوت لها أبواب مفتوحة على المسجد، فأمر النبي ﷺ بإغلاقها جميعًا إلا باب بيت أبي بكر رضي الله عنه.

***

وَقَالَ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»[٤].

وَكُلُّ هَذَا فِي الصَّحِيحِ، وَفِيهِ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَيَّامٍ، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ رِسَالَتِهِ.

---

[١] رواه مسلم (٥٣٢) عن جندب بن جنادة رضي الله عنه، وقد سبق ص .

[٢] أخرجه مسلم (٢٣٨٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقد سبق ص .

[٣] أخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

[٤] أخرجه مسلم (٥٣٢) عن جندب رضي الله عنه.

فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَمَامَ تَحْقِيقِ مُخَالَّتِهِ لِلَّهِ الَّتِي أَصْلُهَا مَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، وَمَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِلَّهِ، خِلَافًا لِلْجَهْمِيَّةِ .

قوله ﷺ: «**وَكُلُّ هَذَا فِي الصَّحِيحِ**» أي إما في الصحيحين، وإما في أحدهما .

وقوله ﷺ: «**خِلَافًا لِلْجَهْمِيَّةِ**» لأن الجهمية يعطلون الصفات وينفونها عن الله ﷻ فينفون عن الله صفة المحبة، ويجعلون الخُلة من جانب واحد فقط من جانب العبد، وينكرون أن تكون الخُلة من جانب الرب ﷻ على أنها صفة من صفات الله ﷻ .

لكن أهل السنة يثبتون المحبة صفة من صفات الله، من غير تأويل لها، لا بالإنعام ولا بالإثابة، وإنما هي صفة لله ﷻ نثبتها لله على ما يليق به عز وجل.

***

وَفِي ذَلِكَ تَحْقِيقُ تَوْحِيدِ اللهِ، وَأَنْ لَا يَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَرَدٌّ عَلَى أَشْبَاهِ الْمُشْرِكِينَ.

وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الرَّافِضَةِ الَّذِينَ يَبْخَسُونَ الصِّدِّيقَ حَقَّهُ، وَهُمْ أَعْظَمُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْقِبْلَةِ إِشْرَاكًا بِعِبَادَةِ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ.

هذه الأحاديث التي فيها أن أبا بكر هو أولى الناس بأن يُتخذ خليلًا للنبي، وقول النبي ﷺ: «**وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ**» فيها فضيلة لأبي بكر ﷺ، وهذا رد على الرافضة الذين أشركوا بالله ﷻ وجعلوا عليًّا ﷺ شريكًا لله، وصرفوا العبادة لعلي ولآل البيت.

***

وَالْخُلَّةُ: هِيَ كَمَالُ الْمَحَبَّةِ الْمُسْتَلْزِمَةِ مِنَ الْعَبْدِ كَمَالَ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ، وَمِنَ الرَّبِّ

سُبْحَانَهُ كَمَالَ الرُّبُوبِيَّةِ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.

الخُلة هي أعلى درجات المحبة، فالعبد الذي كملت محبته لله ﷻ واتخذ الله خليلا؛ فهذا كملت عبوديته، لأنه كما مر أن المحبة لها تعلق بالعبودية، وعلى قدر كمال محبة العبد لله تكمل عبوديته لله ﷻ؛ لأن العبادة هي غاية الحب مع غاية الذل، فكلما كمل الحب كان ذلك كمالًا في العبودية.

❀❀❀

وَلَفْظُ الْعُبُودِيَّةِ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ، وَكَمَالَ الْحُبِّ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: «قَلْبٌ مُتَيَّمٌ» إِذَا كَانَ مُتَعَبِّدًا لِلْمَحْبُوبِ.

وَالْمُتَيَّمُ: الْمُتَعَبِّدُ.

وَتَيَّمَ اللَّهُ: عَبَدَهُ.

وَهَذَا عَلَى الْكَمَالِ حَصَلَ لِإِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ -صلى الله عليهما وسلم- ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلٌ.

التتيم هي درجة من درجات المحبة كما مر .

ونبينا ﷺ قال: «**لَوْ كُنْت مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**» .

ولو: تفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط.

❀❀❀

إِذْ الْخُلَّةُ لَا تَحْتَمِلُ الشَّرِكَةَ، فَإِنَّهُ كَمَا قِيلَ فِي الْمَعْنَى:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا

بِخِلَافِ أَصْلِ الْحُبِّ.

إن الإنسان يكون له خليل واحد فقط، فالنبي ﷺ جعل خُلته لله تعالى، أي هذه المرتبة العالية في المحبة لا تحتمل أن يشترك فيها اثنان، فجعل هذه المرتبة الكاملة في محبته لله ﷻ وحده.

فهنا البيت فيه بيان معنى الخُلة، أي أصل مأخذها في اللغة من تخلل المحبة، أي تخللت شغاف القلب وتخللت أجزاء القلب وتخللت مسلك الروح.

والخلة بخلاف أصل الحب، فيمكن أن يكون للإنسان أحباب كثيرين، لكن الخليل واحد.

وهنا قد يأتي إشكال وهو: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسمون النبي ﷺ خليلًا، كما في قولهم: «أوصاني خليلي ﷺ»[١].

وهذا لا يمنع أن الصحابة أيضًا يجعلون أعلى مراتب المحبة لرب العالمين ﷻ ولكن هنا خُلة النبي ﷺ على ما يليق به، ويجعلون أيضًا مرتبة الخُلة لله ﷻ على ما يليق به ﷻ.

ثم إن اتخاذ الصحابة النبي ﷺ خليلا هو باعتباره رسول الله ﷺ وهو الذي جاءهم بالحق والهدى من عند الله ﷻ، فمحبتهم للنبي ﷺ هي من باب محبة ما يحبه الله، ومن باب المحبة في الله ﷻ .

وفي القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] فهنا معناه أن المتقين بينهم خُلة، وخُلتهم مستمرة في الآخرة كما هي في الدنيا، لا تنقلب عداوة في الآخرة، فكل خليل اتخذ خليلا ولم يكونوا من المتقين؛

[١] جاء ذلك عن أبي بكر، وعلي، وأبي هريرة، وأبي ذر، وأنس، وأبي الدرداء، وغيرهم ﷺ.

فهذه الخُلة تنقلب عداوة في الآخرة، إلا المتقين، فإن خُلتهم لا تنقلب عداوة، بل تكون مستمرة وباقية في الآخرة، وتدوم محبتهم في الجنة وتزاورهم فيها.

فإذًا، أثبت الله تعالى لهم اسم الخُلة، وهذا كله يحمل على الخُلة التي تليق بالبشر، وهذا لا ينافي أن المؤمن يجعل أعلى مراتب المحبة لله ﷻ .

لكن النبي ﷺ لم يتخذ خليلا من أهل الأرض، لكن كان له أحباب من المؤمنين يحبهم، لكن ليس إلى درجة الخُلة، فجعل النبي ﷺ هذه الدرجة لله وحده، ثم ساق ﷺ أدلة ذلك فقال:

فَإِنَّهُ ﷺ قَدْ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي الْحَسَنِ وَأُسَامَةَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا»[١].

الحديث في صحيح البخاري، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُهُ وَالحَسَنَ وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا**» .

فإذًا؛ المحبة هنا للمؤمنين عمومًا، والنبي ﷺ له أحباب كثيرون منهم أسامة ومنهم الحسن رضي الله عنهم وأرضاه.

وكان عمر رضي الله عنه يقسم في العطاء، أي يعطي رواتب سنوية من بيت المال، كان يفرقه على حسب المنزلة والسبق في الإسلام، فأهل بدر غير أصحاب بيعة الرضوان، ومن شهد المشاهد ليس كمن لم يشهدها، وهكذا، بخلاف أبي بكر كان يقسم العطاء في زمنه بالتساوي بين المسلمين، لكن عمر رضي الله عنه جعل الناس فئات بحسب سبقهم في الإسلام.

[١] أخرجه البخاري (٣٧٣٥).

ففرض عمر رضي الله عنه لابنه عبد الله بن عمر في ثلاثة آلاف، وفرض لأسامة في ثلاثة آلاف وخمس مائة، فقال عبد الله: «**لِمَ فَضَّلْتَ أُسَامَةَ عَلَيَّ؟ فَوَاللهِ مَا سَبَقَنِي إِلَى مَشْهَدٍ**»، فقال عمر: «**لأَنَّ زَيْدًا كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَبِيكَ، وَكَانَ أُسَامَةُ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ مِنْكَ، فَآثَرْتُ حُبَّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حُبِّي**»[١].

وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟**» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[٢].

وكان أسامة رضي الله عنه أسود البشر، وكان أبوه شديد البياض، وكان أسامة أشبه بأمه أم أيمن بركة الحبشية رضي الله عنها، وفي يوم رَأَى قَائِفٌ أُسَامَةَ وَزَيْدًا عَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ، وَقَدْ غَطَّيَا رُءُوسَهُمَا، وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**»؛ فَسُرَّ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَعْجَبَهُ[٣].

وكذلك أيضًا جاء في سنن الترمذي أن النبي ﷺ قال عن الحسن والحسين: «**هَذَانِ ابْنَايَ وَابْنَا ابْنَتِيَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا**»[٤].

---

[١] أخرجه الترمذي (٣١٨٣).

[٢] أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

[٣] أخرجه البخاري (٦٧٧٠)، ومسلم (١٤٥٩) عن عائشة.

[٤] أخرجه الترمذي (٣٧٦٩)، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، وحسنه الألباني.

وَسَأَلَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: «عَائِشَةُ» ، قَالَ: فَمِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا»[١] .

وَقَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»[٢] . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

تمام حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه كما في الصحيحين، أنه قال: «أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**»، فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «**أَبُوهَا**»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ**» فَعَدَّ رِجَالًا.

إذًا؛ فيما سبق أن النبي ﷺ كان يحب أسامة وزيدًا والحسن والحسين وعائشة وأبا بكر وعمر وعليًا وغيرهم كثير من الصحابة رضي الله عنهم.

❊ ❊ ❊

وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ.

وَقَالَ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المَائدة: ٥٤] .

فَقَدْ أَخْبَرَ بِمَحَبَّتِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَحَبَّةِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ، حَتَّى قَالَ: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ﴾[البقرة: ١٦٥] .

وَأَمَّا الْخُلَّةُ فَخَاصَّةٌ.

---

[١] أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) عن عمرو رضي الله عنه.

[٢] أخرجه البخاري (٢٩٧٥)، ومسلم (١٨٠٧) عن سلمة بن الأكوع.

وَقَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ: «إِنَّ مُحَمَّدًا حَبِيبُ اللَّهِ، وَإِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ»، وَظَنُّهُ أَنَّ الْمَحَبَّةَ فَوْقَ الْخُلَّةِ قَوْلٌ ضَعِيفٌ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا أَيْضًا خَلِيلُ اللَّهِ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَفِيضَةِ.

بعض الناس يقول: «إن محمدًا ﷺ حبيب الله، وإبراهيم خليل الله» ظانًّا أن المحبة أعلى من الخُلة؛ وهذا ليس بصحيح، لأن أحباء الله كثيرون، فالله تعالى يحب أبا بكرٍ وعمر وعثمان وعلي وكل الصحابة والمؤمنين والمتقين والمحسنين والمتطهرين.

فإذًا، من يحبهم الله تعالى هذا عام وشامل، لكن الَّذَيْن اتخذهم الله خليلين هما إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

فالخُلة هي أعلى مراتب المحبة، وقد خص الله بها هذين النبيين الكريمين.

***

وَمَا يُرْوَى «أَنَّ الْعَبَّاسَ يُحْشَرُ بَيْنَ حَبِيبٍ وَخَلِيلٍ» وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، فَأَحَادِيثُ مَوْضُوعَةٌ لَا تَصْلُحُ أَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهَا.

ورد في حديث في سنن ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَما اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، فَمَنْزِلِي وَمَنْزِلُ إِبْرَاهِيمَ فِي الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُجَاهَيْنِ، وَالْعَبَّاسُ بَيْنَنَا مُؤْمِنٌ بَيْنَ خَلِيلَيْنِ**»[١]، لكن الحديث شديد الضعف، والمؤلف جعله موضوعًا.

***

[١] أخرجه ابن ماجه (١٤١)، وقال الشيخ الألباني: «موضوع» (الضعيفة ٧/ ٢٣).

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى: هِيَ مَحَبَّتُهُ وَمَحَبَّةُ مَا أَحَبَّ.

محبة الله ﷻ تشمل محبتك لله ﷻ ومحبتك لما أحب الله، فمنه حبك لرسول الله ﷺ، وحبك للإيمان وللعمل الصالح، وهذا كله من محبتك لله.

❊ ❊ ❊

كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ» .

أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ كان فِيهِ هَذِهِ الثَّلَاثَ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ وَجْدَ الْحَلَاوَةِ بِالشَّيْءِ يَتْبَعُ الْمَحَبَّةَ لَهُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَوْ اشْتَهَاهُ إِذَا حَصَلَ لَهُ مُرَادُهُ، فَإِنَّهُ يَجِدُ الْحَلَاوَةَ وَاللَّذَّةَ وَالسُّرُورَ بِذَلِكَ، وَاللَّذَّةُ أَمْرٌ يَحْصُلُ عُقَيبَ إِدْرَاكِ الْمُلَائِمِ الَّذِي هُوَ الْمَحْبُوبُ أَوْ الْمُشْتَهِي.

مثل الطعام الشهي الذي يشتهيه الإنسان، هو في الأصل يشتهي هذا الطعام ويحبه، فإذا وجد هذا الطعام وذاقه وأكل منه؛ فإنه تحصل له تلك اللذة بإدراكه محبوبه.

لكن لو نفس هذا الطعام قُدم لشخص آخر لا يشتهيه أو لا يحبه، فإنه لا يجد لذة في أكله.

فهنا يقول: الترتيب أن تحصل المحبة، ثم الإدراك، ثم اللذة.

مثال ذلك أنك تحب الطعام، فإذا أدركته وهنا إدراك الشيء الذي يُذاق باللسان هوأن تجد طعمه في لسانك، ثم يأتي عُقيب ذلك لذة وحلاوة.

وكل شيء على حسب نوعية الحواس التي يدرك بها، فالشيء المحبوب إذا أدركته بالحواس التي تناسبه، يأتي عُقيب ذلك لذة وحلاوة أنك أدركت محبوبك.

❊❊❊

وَمَنْ قَالَ إِنَّ اللَّذَّةَ إِدْرَاكُ الْمُلَائِمِ -كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْأَطِبَّاءِ- فَقَدْ غَلِطَ فِي ذَلِكَ غَلَطًا بَيِّنًا، فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ وَاللَّذَّةِ.

هنا المؤلف يعترض على قول بعض الأطباء والفلاسفة الذين يقولون: «اللذة هي إدراك الملائم»!!

فيقول: لا، اللذة هذه تكون بعد إدراك الملائم، فالملائمة هي أن تكون محبًّا للشيء مشتهيًا له ثم تدركه، أي إذا كان هذا الشيء مسموعًا تسمعه، إذا كان مُبصرا تبصره، إذا كان طعامًا تتذوقه، فهذا الإدراك ثم عُقيب الإدراك تحصل اللذة في النفس.

إذًا، فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة، فالمحبة أولًا، ثم الإدراك، ثم اللذة.

❊❊❊

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَثَلًا يَشْتَهِي الطَّعَامَ، فَإِذَا أَكَلَهُ حَصَلَ لَهُ عُقَيبَ ذَلِكَ اللَّذَّةُ.

الإنسان مثلًا يشتهي الطعام، فهذه المحبة.

فإذا أكله؛ فهذا الإدراك؛ وتحصل له عُقيب ذلك اللذة.

❊❊❊

فَاللَّذَّةُ تَتْبَعُ النَّظَرَ إِلَى الشَّيْءِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الْتَذَّ بِهِ، فَاللَّذَّةُ تَتْبَعُ النَّظَرَ لَيْسَ نَفْسَ النَّظَرِ، وَلَيْسَتْ هِيَ رُؤْيَةَ الشَّيْءِ، بَلْ تَحْصُلُ عُقَيبَ رُؤْيَتِهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

إذا كان هذا الشيء المحبوب مما يُتمتع بالنظر إليه؛ فإذا أول شيء أن يكون محبوبًا لك، ثم تنظر إليه -وهو الإدراك- ثم تحصل اللذة عُقيب النظرة.

***

وَهَكَذَا جَمِيعُ مَا يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ مِنَ اللَّذَّاتِ، وَالْآلَامِ مِنْ فَرَحٍ وَحُزْنٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ يَحْصُلُ بِالشُّعُورِ بِالْمَحْبُوبِ، أَوْ الشُّعُورِ بِالْمَكْرُوهِ، وَلَيْسَ نَفْسُ الشُّعُورِ هُوَ الْفَرَحَ وَلَا الْحُزْنَ.

الفرح يحصل في النفس عقب الشعور بالمحبوب، والحزن عقب الشعور بالمكروه.

***

فَحَلَاوَةُ الْإِيمَانِ الْمُتَضَمَّنَةُ مِنْ اللَّذَّةِ بِهِ وَالْفَرَحِ مَا يَجِدُهُ الْمُؤْمِنُ الْوَاجِدُ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، تَتْبَعُ كَمَالَ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ.

إن ذوق حلاوة الإيمان بالقلب، كتذوق اللسان للطعام الحلو، فالقلب كذلك يجد حلاوة لطعم الإيمان.

وكل هذا يتطلب أولًا أن يكون الإيمان محبوبًا لك، حتى إذا أدركته وُجد فيك أعقب ذلك حصول لذة في القلب.

***

وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

تَكْمِيلِ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ.

وَتَفْرِيعِهَا.

وَدَفْعِ ضِدِّهَا.

فَتَكْمِيلُهَا: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يُكْتَفَى فِيهَا بِأَصْلِ الْحُبِّ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، كَمَا تَقَدَّمَ.

إن كمال المحبة يؤدي إلى حصول كمال حلاوة الإيمان في القلب، وكمال المحبة يكون بثلاثة أشياء:

الأول: تكميل المحبة:

وتكميلها أنه لا يكتفي الإنسان بأن يحب الله ورسوله، بل أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، فهذا تكميلها، أي لا يُكتفى بأصل المحبة بل تكون هذه المحبة مميَّزة وزائدة على محبتك لما سوى الله ﷻ ورسوله ﷺ.

الثاني: وتفريعها:

كأن الصواب «تفريقها» ففي بعض النسخ «تفريقها» وبعضها «تفريعها»، وكأن الصواب «تفريقها» بالقاف وذلك لأنهم في كتب السلوك يذكرون مقام التفريق بين الخالق والمخلوق.

والتفريق هنا هو تفريق المحبة، أي المقصود ألا تكون المحبة قسمًا واحدًا أو شيئًا واحدًا، أي أن يدرك الفرق بين أنواع المحاب؛ وذلك أن المحبة تنقسم إلى محبة طبعية ومحبة عقلية.

فالمحبة الطبعية: هي ما يميل إليه الطبع، كمحبة الولد والزوجة والوطن وما تميل

إليه النفس من الطعام.. إلخ.

والمحبة العقلية: هي ما يحبه الإنسان، وإن كانت نفسه تنفر عنه.

مثل التداوي بدواء مر، أو الجراحة، فالإنسان العاقل يحب أن يتداوى بهذا الدواء محبة عقلية ليست طبيعية، لأن نفسه لا تشتهي ذلك، ولكن بتفكيره بعقله يعلم أن هذا الشيء يترتب عليه منافع ومصالح عُلمت بالعادة والتجربة.

وهناك المحبة الشرعية، وهي مثل المحبة العقلية، الإنسان يميل إلى الشيء ليس لمجرد أن طبعه يميل إليه ولكن لإدراكه عاقبته الحميدة.

ولكن المحبة الشرعية هي كون هذه العاقبة الحميدة تدرك بالشرع.

فمرات العاقبة الحميدة تدرك بالعقل من خلال التجربة والعادة، ومرات العاقبة الحميدة تدرك بالشرع كعاقبة العمل الصالح واجتناب المعصية.

وحتى لو لم يدرك المسلم حكمتها بعقله، فهو يحب طاعة الله تعالى والعمل الصالح شرعًا؛ لايمانه بالعاقبة الحميدة أن هذه الأمور الحميدة يترتب عليها ثواب الله وجناته ورضوانه.

ثم المحبة الشرعية منها محبة الله تعالى، ومحبة ما يحبه الله، والمحبة في الله ولله.

فمحبة الله تعالى: أنك تحب الله عز وجل.

ومحبة ما يحبه الله: من الأقوال والأعمال والأزمان والأماكن.

فأنت -مثلًا -تحب البيت الحرام، وتحب مكة والمدينة لكونها بقاع محبوبة لدى الله ﷻ، وتحب رمضان، و العشر الأول من ذي الحجة لأنها أيام محبوبة من الله تعالى، وتحب الأنبياء والرسل...إلى آخره.

والمحبة في الله ولله: وهي محبة المؤمنين الصالحين الذين يطيعون الله ويعبدونه.

فهذه المحبة الشرعية.

وهناك المحبة الشركية وهي المحبة مع الله، وهي اتخاذ ندٍ لله يحبه كحبه لله، ويؤثر محبته على محبة الله، فهذا كله يدخل في تفريق المحبة.

فالمحبة لا تكمل إلا بإدراكك لهذه الفروق والتمييز بينها.

***

وَتَفْرِيعُهَا: أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ.

أن يميز هذا النوع من المحبة ويفرق بينه وبين من يحب شخصًا لميل طبعه إليه أو لإحسانه إليه.

***

وَدَفْعُ ضِدِّهَا: أَنْ يَكْرَهَ ضِدَّ الْإِيمَانِ أَعْظَمَ مِنْ كَرَاهَتِهِ الْإِلْقَاءَ فِي النَّارِ، فَإِذَا كَانَتْ مَحَبَّةُ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ، لِأَنَّهُ أَكْمَلُ النَّاسِ مَحَبَّةً لِلَّهِ، وَأَحَقُّهُمْ بِأَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَيَبْغُضَ مَا يَبْغُضُهُ اللَّهُ.

أي لا تكمل المحبة إلا أن تدفع ضدها، فكراهتك للكفر أعظم من كراهة الإلقاء في النار.

***

وَالْخُلَّةُ لَيْسَ لِغَيْرِ اللَّهِ فِيهَا نَصِيبٌ، بَلْ قَالَ: «لَوْ كُنْت مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ

خَلِيلًا لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا» عُلِمَ مَزِيدُ مَرْتَبَةِ الْخُلَّةِ عَلَى مُطْلَقِ الْمَحَبَّةِ.

المحبة عامة، والخُلة هي أعلى درجة ومرتبة من مراتب المحبة.

❀❀❀

وَالْمَقْصُودُ: هُوَ أَنَّ الْخُلَّةَ وَالْمَحَبَّةَ لِلَّهِ تَحْقِيقُ عُبُودِيَّتِهِ.

وَإِنَّمَا يَغْلِطُ مَنْ يَغْلِطُ فِي هَذِهِ مِنْ حَيْثُ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ مُجَرَّدُ ذُلٍّ وَخُضُوعٍ فَقَطْ، لَا مَحَبَّةَ مَعَهُ، أَوْ أَنَّ الْمَحَبَّةَ فِيهَا انْبِسَاطٌ فِي الْأَهْوَاءِ، أَوْ إِدلَالٌ لَا تَحْتَمِلُهُ الرُّبُوبِيَّةُ.

قوله رحمه الله: «**إِدلَالٌ**» بعض النسخ فيها إذلال بالذال، لكن كأن هذا خطأ، ولكن الصواب «إدلال» بالدال من الدلال، وليس إذلال من الذل.

يقول رحمه الله: إن بعض من غلط في أمر المحبة، يحسب أن العبودية هي ذل وخضوع فقط، وأن المحبة تتنافى مع العبودية؛ لأن المحبة -في زعمهم- فيها انبساط في الأهواء، فيفعل ما تهواه نفسه وتميل إليه نفسه، وينبسط في ذلك ولو بمعصية المحبوب.

وإدلال من الدلال، كالشخص المدلل فيُتغاضى عنه ويُسمح له بأشياء لا تُسمح بها لمن ليس مدللا، ذلك أنهم كأنهم لهم مكانة أو دلال عند الله تعالى، إذا صاروا من أهل المحبة، بحيث أنهم يصفون أنفسهم بصفات لا تنبغي إلا للرب سبحانه وتعالى، ويعترضون على أفعال الله تعالى وعلى قضاءه ظنًّا منهم أن المحبة تسمح لهم بهذا الأمر.

❀❀❀

وَلِهَذَا يُذْكَرُ عَنْ ذِي النُّونِ أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا عِنْدَهُ فِي مَسْأَلَةِ الْمَحَبَّةِ، فَقَالَ: «أَمْسِكُوا

عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا تَسْمَعُهَا النُّفُوسُ فَتَدَّعِيهَا».

وَكَرِهَ مَنْ كَرِهَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ مُجَالَسَةَ أَقْوَامٍ يُكْثِرُونَ الْكَلَامَ فِي الْمَحَبَّةِ بِلَا خَشْيَةٍ.

ذي النون المصري ﷺ، اسمه ثوبان بن إبراهيم، كان نوبيًّا من أهل مصر وكان من الزهاد العُباد، توفي سنة خمس وأربعين ومائتين من الهجرة وكان من العُباد الزهاد .

يقول ﷺ: هؤلاء الزهاد والعباد كانوا يكرهون أن يدعي الإنسان أنه ممن يحب الله ويحبه الله؛ حتى لا يؤدي به هذا إلى التهاون في العبادة، بزعم أنه له عذر عند الله طالما أن الله يحبه، فيدعي أنه ممن يحب الله وممن يحبه الله ويترتب على هذه الدعوة التقصير في العبادة والتهاون في المحرمات.

❊ ❊ ❊

وَقَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ: «مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ».

قوله: «**مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ**»

الزنديق هو المنافق، لكن من جهة الاستعمال فاستعماله أخص من المنافق كأنه صنف من المنافقين، فالمنافق هو من أبطن الكفر وأظهر الإسلام.

أما الزنديق: فأكثر ما بدءت عندما صار ناس يبطنون عقيدة المجوس ويظهرون الإسلام، أو يبطنون الإلحاد ويظهرون الإسلام، ثم هؤلاء الزنادقة صاروا يتكلمون بكلمات تدل على معتقداهم الباطن، ومع ذلك يزعمون أنهم مسلمون، وأن هذه

الكلمات التي يقولونها لا تتعارض مع الإسلام أو لا تخرجهم عن الإسلام، فيريد أن يبقي محتفظًا بانتسابه للإسلام ومع ذلك يجهر بكلمات وأفعال تدل على أنه يبطن المجوسية أو يبطن الإلحاد أو كذا، وصار يقال لهؤلاء: «الزنادقة»، فهم صنفٍ من المنافقين.

فكان من حيل الزنادقة أنهم يزعمون أنهم يحبون الله، وأنه من أحب الله وأحبه الله، ارتفعت عنه التكاليف!! أي مسموح للمحبوب أن يفعل ما يشاء، ويخالف الأمر ويقع في النهي، ويشفع له أنه ممن يحب الله ويحبه الله بزعمهم، فيجعلون إدعاء المحبة وسيلة للتخلف من الشرائع، فتجدهم يتركون الواجبات ويقعون في المحرمات.

قال رحمه الله: «وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ».

المرجئة الذين أخرجوا العمل من الإيمان، فبعضهم يقول: «الإيمان هو معرفة الله» أو «الإيمان هو التصديق» أو «الإيمان هو التصديق و التلفظ بالشهادتين» أو «التلفظ بالشهادتين فقط» المهم أنهم يخرجون العمل من الإيمان، فهؤلاء عبدوا الله بالرجاء وحده؛ لأنهم عندهم «لا يضر من الإيمان ذنب»، فالذنوب مهما عظمت لا تضر ولا تنقص الإيمان! فعندهم أن الإيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

قال رحمه الله: «وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ».

الحرورية هم الخوارج الذين يكفرون بالمعصية، فهنا الخوارج عبدوا الله بالخوف وحده، أي أخذوا بجانب الوعيد وأخذوا نصوص الوعيد على ظواهرها التي فيها «من فعل كذا فقد كفر» كقوله ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[1]، قوله ﷺ: «**لَيْسَ**

[١] أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ..»[١]، وقوله ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[٢]، وغيرها من النصوص.

فأخذوا هذه النصوص على ظاهرها، وأنها إخراج من الإيمان بالكلية، وكفروا الزاني وشارب الخمر... إلى آخره، فهؤلاء حرورية فهم الخوارج.

***

وَلِهَذَا وُجِدَ فِي الْمُسْتَأْخِرِينَ مَنْ انْبَسَطَ فِي دَعْوَى الْمَحَبَّةِ، حَتَّى أَخْرَجَهُ ذَلِكَ إِلَى نَوْعٍ مِنْ الرُّعُونَةِ، وَالدَّعْوَى الَّتِي تُنَافِي الْعُبُودِيَّةَ، وَتُدْخِلُ الْعَبْدَ فِي نَوْعٍ مِنْ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلَّهِ، وَيَدَّعِي أَحَدُهُمْ دَعَاوَى تَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، أَوْ يَطْلُبُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَصْلُحُ - بِكُلِّ وَجْهٍ - إِلَّا لِلَّهِ، ولَا يَصْلُحُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

وُجد في المتأخرين من انبثق في دعوى المحبة، أي توسع في هذه الدعوى وادعى أنه يحب الله وأن الله يحبه حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الربوبية لا تصلح إلا لله، فادعى لنفسه أشياء لا تليق إلا لله، وادعى بعضهم دعاوى تجاوزت حدود الأنبياء والمرسلين، أي ادعى لنفسه منزلة ليست للأنبياء والمرسلين فضلًا عن أن تكون له؛ كأنه جعل نفسه أفضل من الأنبياء أو طلب من الله تعالى ما لا يصلح إلا لله ولا يليق ببشر.

***

[١] أخرجه مسلم (٦١) عن أبي ذر رضي الله عنه.

[٢] أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَهَذَا بَابٌ وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوخِ، وَسَبَبُهُ ضَعْفُ تَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ الَّتِي بَيَّنَتْهَا الرُّسُلُ، وَحَرَّرَهَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي جَاءُوا بِهِ، بَلْ ضَعْفُ الْعَقْلِ الَّذِي بِهِ يَعْرِفُ الْعَبْدُ حَقِيقَتَهُ.

يقصد بالشيوخ بعض العباد الجهال الذين وقعوا في هذا الأمر، وسبب ذلك ضعف العبودية؛ فادعوا لأنفسهم أنهم وصلوا إلي مقامات من المحبة، فادعوا لأنفسهم أشياء لا تليق إلا بالله تعالى، وذلك بسبب ضعف العبودية.

وأيضًا بسبب ضعف العقل الذي به يَعرف العبد به حقيقته؛ لأن العبد عندما يدعي لنفسه أشياء لا تليق إلا بالرب ﷻ فهذا من ضعف عقله.

❊ ❊ ❊

وَإِذَا ضَعُفَ الْعَقْلُ وَقَلَّ الْعِلْمُ بِالدِّينِ وَفِي النَّفْسِ مَحَبَّةٌ طَائِشَةٌ جَاهِلَةٌ، انْبَسَطَتْ النَّفْسُ بِحُمْقِهَا فِي ذَلِكَ، كَمَا يَنْبَسِطُ الْإِنْسَانُ فِي مَحَبَّةِ الْإِنْسَانِ مَعَ حُمْقِهِ وَجَهْلِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا مُحِبٌّ فَلَا أُؤَاخَذُ بِمَا أَفْعَلُهُ مِنْ أَنْوَاعٍ يَكُونُ فِيهَا عُدْوَانٌ وَجَهْلٌ.

يقول -ولله المثل الأعلى-: مثل بعض الناس ربما أحب شخص وغلا في محبته؛ فصار يؤذي محبوبه ويتعدى على حقه ويتطاول عليه بكلمات وبأفعال لا تليق ولا تنبغي، وهذا من حمقه، ويدعي أن المحبة عذر له في ذلك.

❊ ❊ ❊

فَهَذَا عَيْنُ الضَّلَالِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِقَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾[المائدة: ١٨] .

فَإِنَّ تَعْذِيبَهُ لَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ غَيْرُ مَحْبُوبِينَ وَلَا مَنْسُوبِينَ إِلَيْهِ بِنِسْبَةِ الْبُنُوَّةِ، بَلْ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ مَرْبُوبُونَ مَخْلُوقُونَ.

ادعى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله، وأنهم أحباء الله، فالله ﷻ رد عليهم فقال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ .

فاليهود يعتقدون أنهم سيعذبون في النار أربعين يومًا، مدة عبادتهم للعجل، فالله تعالى يقول الله لهم: إذا كنتم أبناء الله وأحباؤه -كما تدعون- فلما يعذبكم أربعين يومًا على حسب اعتقادكم بسبب عبادتكم العجل.

وكان بعض المفسرين يقول في هذه الآية: فيها أن المحب لا يعذب حبيبه، فلو كنتم أحباب الله لما عذبكم، فكونه تعالى يعذبكم وأنت تقرون على أنفسكم أنكم ستعذبون -بحسب زعمهم- أربعين يومًا؛ فليسوا بأحباء لله، وهم في حقيقة الأمر لو ماتوا على كفرهم فهم مخلدون في نار جهنم، لكن من باب إقامة الحجة عليهم، أي حتى على حسب ادعائكم أنكم لا تخلدون في النار، فأنتم تدعون أنكم ستعذبون أربعين يومًا، فكل هذا يتعارض مع دعوى أنكم أحباب الله وأبناء الله.

***

فَمَنْ كَانَ اللَّهُ يُحِبُّهُ اسْتَعْمَلَهُ فِيمَا يُحِبُّهُ مَحْبُوبُهُ، لَا يَفْعَلُ مَا يَبْغُضُهُ الْحَقُّ، وَيَسْخَطُهُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ.

وَمَنْ فَعَلَ الْكَبَائِرَ، وَأَصَرَّ عَلَيْهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ مِنْهُ ذَلِكَ؛ كَمَا يُحِبُّ مِنْهُ مَا يَفْعَلُهُ مِنْ الْخَيْرِ؛ إِذْ حُبُّهُ لِلْعَبْدِ بِحَسَبِ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ.

كان بعض السلف يقولون: إذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله فانظر فيما استعملك، ولله المثل الأعلى، فالملك مثلًا الذين قربهم منه يستعملهم، فهذا يستعمله رسولًا بينه وبين رعيته، وهذا يستعمله في الخدمة، وفي الحراسة، ...إلخ، ويأذن لهم في زيارة بيته أو كذا.

فالقصد أنه من استعمله الله تعالى في تعليم كتابه وتعليم دينه وتعريف العباد به، وكذا في العلم والتعليم،فهذا استعمال فيما يحبه الله.

ومن استعمله الله مثلًا في مجاهدة أعدائه والدفاع عن دينه، ومن استعملهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، وكذلك في عبادته سبحانه وتعالى في جميع أنوع العبادة والعمل الصالح، فهذه علامة على أن الله تعالى أحبهم فاستعملهم في طاعته واستعملهم في عمل صالح.

أما من حُرم العمل الصالح؛ فهذا دليل على أن الله لا يحبه، ولهذا لم يستعمله الله تعالى في عمل فيه نصرة لدين الله وخدمة لدين الله تعالى، وجاء في الحديث عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ**» . قَالُوا: وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ: « **يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ مَوْتِهِ**»[١] أي يلازم هذا العمل الصالح ويستمر عليه إلى الموت، فهذا استعمال الله تعالى للعبد.

وفي حديثٍ آخر، قال ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا، عَسَلَهُ**»، قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ؟ قَالَ: « **يَفْتَحُ اللهُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**»[٢].

---

[١] أخرجه الترمذي (٢١٤٢) وصححه الشيخ الألباني.

[٢] أخرجه أحمد (١٧٧٨٤)، عن أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٧).

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الذُّنُوبَ لَا تَضُرُّهُ لِكَوْنِ اللهِ يُحِبُّهُ مَعَ إِصْرَارِهِ عَلَيْهَا، كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ تَنَاوُلَ السُّمِّ لَا يَضُرُّهُ مَعَ مُدَاوَمَتِهِ عَلَيْهِ، وَعَدَمِ تَدَاوِيهِ مِنْهُ بِصِحَّةِ مِزَاجِهِ.

لو أن شخصًا زعم أن مزاجه صحيح، بحيث لا يضره السم، أي طبيعته لا يضرها السم، ويداوم على تناوله لقلة عقله، فكذلك من زعم أنه يحبه الله، فبالتالي لا تضره الذنوب ويستمر على الذنوب ويداوم عليها .

***

وَلَوْ تَدَبَّرَ الْأَحْمَقُ مَا قَصَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ قَصَصِ أَنْبِيَائِهِ، وَمَا جَرَى لَهُمْ مِنَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَمَا أُصِيبُوا بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ الَّذِي فِيهِ تَمْحِيصٌ لَهُمْ وَتَطْهِيرٌ بِحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ، عَلِمَ بَعْضَ ضَرَرِ الذُّنُوبِ بِأَصْحَابِهَا وَلَوْ كَانَ أَرْفَعَ النَّاسِ مَقَامًا .

أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم أن آدم ﷺ، وهو نبي مكلَّم كما وصفه نبينا محمد ﷺ حين سأله أبو ذر رضي الله عنه: أَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ؟ قَالَ: «آدَمُ» . قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ: أَوَ نَبِيٌّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ»[١].

والله تعالى قال عن آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، وأنه بسبب أكله من الشجرة أهبط إلى الأرض.

وقال تعالى عن يونس ﷺ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأنبياء] .

---

[١] أخرجه أحمد (٢١٥٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٧١) عن أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦/ ٣٦٠).

يقول بعض المفسرين: «إن يونس عليه السلام غضب على قومه، وذهب لدعوة قوم لم يكلف بدعوتهم، ظن أنهم قد يكونون أحسن حالًا من قومه، وترك دعوة قومه الذين كلفه الله بدعوتهم، فخالف أمر الله تعالى في شيء أُمر به، فقدر الله تعالى عليه أن التقمه الحوت».

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود].

وقال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص٢٤].

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من كبائر الذنوب، وليسوا معصومين من صغائر الذنوب، ولكن هم معصومون من الإصرار عليها، أي ممكن أن يقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم شيء من صغائر الذنوب، لكن يبادرون بالتوبة منها ولا يصرون عليها.

فالقصد: أنه حتى الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- كانت الذنوب فيها ضرر عليهم.

***

فَإِنَّ الْمُحِبَّ لِلْمَخْلُوقِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَارِفًا بِمَصْلَحَتِهِ وَلَا مُرِيدًا لَهَا، بَلْ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَى الْحُبِّ - وَإِنْ كَانَ جَهْلًا وَظُلْمًا - كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِبُغْضِ الْمَحْبُوبِ لَهُ وَنُفُورِهِ عَنْهُ، بَلْ لِعُقُوبَتِهِ.

أي -ولله المثل الأعلى- أن الإنسان إذا أحب صديقًا له ، إذا كان لا يعرف مصلحة

المحبوب، والأشياء التي يحبها صديقه والأشياء التي يريدها، ولا يعمل بمقتضى الحب فيعمل أشياء يتضرر ويتضايق منها الصديق أو أشياء صديقه يبغضها ولا يريدها، وإن كان جهلًا وظلمًا فالمحبوب سيغضب منه وينفر عنه، بل يمكن أنه يعاقبه.

فإذا كان هذا في محبوبين في الدنيا، فلله المثل الأعلى، أن الإنسان إذا ادعى أنه يحب الله تعالى، ثم هو يفعل أشياء تغضب الله، ولا يراعي آداب هذه المحبة وما تلزم به المحب لله تعالى من اتباع دين الله واتباع الشرع، فإن هذا يجلب له البغض وقد يجلب له العقوبة.

***

وَكَثِيرٌ مِنْ السَّالِكِينَ سَلَكُوا فِي دَعْوَى حُبِّ اللَّهِ أَنْوَاعًا مِنْ أُمُورِ الْجَهْلِ بِالدِّينِ:

إمَّا مِنْ تَعَدِّي حُدُودِ اللَّهِ.

وَإِمَّا مِنْ تَضْيِيعِ حُقُوقِ اللَّهِ.

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: « **ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ لصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنِ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**» .

فالصراط المستقيم هو الإسلام، والسوران عن يمينه وشماله هما حدود الله، فهناك حد عن اليمين يفصل الإسلام عن غيره، وحد عن اليسار يفصل الإسلام عن غيره.

والمقصود بالسور الذي عن اليمين: هو ما يحد الذي أحله الله تعالى وشرعه عن البدع والغلو في الدين.

والسور الذي عن اليسار: هو الحد الذي يفصل الإسلام عن التفريط والتهاون الذي فيه الوقوع في الفسق والذنوب التي سببها شهوات النفوس.

وفي كتاب الله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[البقرة:٢٢٩]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾: أي لا تقترب من الحدود، وهذا معناه: لا تقربوها في المنهيات، ففي المنهيات يقول الله تعالى: لا تقرب، اترك بينك وبينها مسافة، أي هذا الحد الفاصل الذي ما بعده يكون الوقوع في الحرام، فأنت لا تقترب منه اترك مسافة بينك وبينه.

﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾هذا في الأوامر، أي لا تتعدى ولا تزد فيها وتتجاوز فيها حتى لا تقع في الابتداع والانحراف .

فيقول رحمه الله: **كَثِيرٌ مِنْ السَّالِكِينَ سَلَكُوا فِي دَعْوَى حُبِّ اللَّهِ أَنْوَاعًا مِنْ أُمُورِ الْجَهْلِ بِالدِّينِ: إِمَّا مِنْ تَعَدِّي حُدُودِ اللَّهِ، وَإِمَّا مِنْ تَضْيِيعِ حُقُوقِ اللَّهِ.**

أي أن الله تعالى أمرهم أن يحبوا الله تعالى فأحبوا الله، لكن غلوا في هذه المحبة حتى تعدوا الحدود المسموح بها.

وَإِمَّا مِنْ تَضْيِيعِ حُقُوقِ اللَّهِ: الأول كان جانب الإفراط وهذا جانب التفريط.

وَإِمَّا مِنْ ادِّعَاءِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ الَّتِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: «أَيُّ مُرِيدٍ لِي تَرَكَ فِي النَّارِ أَحَدًا فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ»!!.

فَقَالَ الْآخَرُ: «أَيُّ مُرِيدٍ لِي تَرَكَ أَحَدًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُ النَّارَ فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ»!!.

فَالْأَوَّلُ: جَعَلَ مُرِيدَهُ يُخْرِجُ كُلَّ مَنْ فِي النَّارِ.

وَالثَّانِي: جَعَلَ مُرِيدَهُ يَمْنَعُ أَهْلَ الْكَبَائِرِ مِنْ دُخُولِ النَّارِ.

وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَصَبْتُ خَيْمَتِي عَلَى جَهَنَّمَ حَتَّى لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ».

هنا يضرب أمثلة لبعض العباد الجهال الذين ادعوا المحبة، وادعى أنه له مقام ومكانة عند الله، فكأنه ضمن منزلة عند الله، وضمن لمريديه أن لهم الصلاحية في منع دخول أحد النار.

فالأول يقول: مريدوه سيخرجون كل من في النار لن يتركوا فيها أحدا، وأنه برئ من مريديه لو تركوا أحدًا في النار.

الثاني زاد عليه فقال له: بل أي مريد لي ترك أحدًا من المؤمنين يدخل النار أصلًا فأنا برئ منه، أي أتباعه سيمنعونهم من دخول النار أساسًا.

والآخر زعم أنه سيمنع الكل من دخول النار، حتى الكافرين والشياطين .

وهذا الأمثلة توضيح لما قصده المؤلف من أن بعض الناس انبسطوا في دعوى المحبة، حتى ادعوا أشياء هي من خصائص الربوبية، فالله ﷻ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، والأنبياء وهم يمرون على الصراط يقولون: «ربي سلم سلم».

فعن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلاَمُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»[١].

ويستشفع الناس بالأنبياء فيقول كل واحد منهم: «**نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي**»[٢]. وهم أكمل الناس عبادة صلوات الله وسلامه عليهم .

فالله ﷻ قضى أن النار سيدخلها من شاء أن يدخلها، فلا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه، ونبينا محمد ﵊ لن يشفع إلا بعد أن يأذن الله له، قال ﷺ: «**فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ**»[٣] .

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ الْأَقْوَالِ الَّتِي تُؤْثَرُ عَنْ بَعْضِ الْمَشَايِخِ الْمَشْهُورِينَ، وَهِيَ إِمَّا كَذِبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِمَّا غَلَطٌ مِنْهُمْ.

هناك أقوال كثيرة كالتي مر ذكرها تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين، وهذه الأقوال أحد أمرين:

الأول: إما أنها كذب عليهم، إذا كانوا من الصالحين ومن أهل الخير.

والثاني: إما غلط منهم، فلو ثبت صدورها عنهم ستكون غلطًا منهم.

---

[١] أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

[٢] أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) عن أبي هريرة ﵁.

[٣] السابق.

وَمِثْلُ هَذَا قَدْ يَصْدُرُ فِي حَالِ سُكْرٍ وَغَلَبَةٍ وَفَنَاءٍ يَسْقُطُ فِيهَا تَمْيِيزُ الْإِنْسَانِ، أَوْ يَضْعُفُ حَتَّى لَا يَدْرِي مَا قَالَ.

هنا المؤلف ﵀ سيتكلم عن موضوع الفناء ومراتبه، فهناك مرتبة الفناء عن شهود السوى -كما مر-[١] وهو أنه لا يشاهد سوى الله ﷻ، ومرات في هذا المقام يحصل لهم ما يشبه السكر.

❊ ❊ ❊

وَالسُّكْرُ: هُوَ لَذَّةٌ مَعَ عَدَمِ تَمْيِيزٍ.
وَلِهَذَا كَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ مَنْ إِذَا صَحَا اسْتَغْفَرَ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ.

بعض هؤلاء كان يحصل لهم ذلك السكر، الذي يخرجهم عن التمييز، ويتكلمون بكلمات مثل هذه الكلمات السابقة.

والسكر هو زوال العقل بسبب مؤثر، فالسكر قد يكون بسبب الألم، وقد يكون بسبب الشراب المسكر، وقد يكون سكرات الموت وهو الاحتضار والوفاة .

فهناك سكر غياب التمييز وله أسباب، فهؤلاء ربما حصل له هذا السكر فزال عنهم التمييز، فيتكلمون بكلام مثل السكران، فإذا أفاقوا وقيل لهم: قلتم هذا وقلتم هذا. استغفروا الله تعالى من هذا الكلام.

❊ ❊ ❊

وَالَّذِينَ تَوَسَّعُوا مِنْ الشُّيُوخِ فِي سَمَاعِ الْقَصَائِدِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْحُبِّ، وَالشَّوْقِ،

---

[١] سبق بيان أنواع الفناء ص ٩٦ .

وَاللَّوْمِ، وَالْعَذْلِ، وَالْغَرَامِ كَانَ هَذَا أَصْلَ مَقْصِدِهِمْ.

كما مر بنا أن بعض المتصوفة يتعبد لله بسماع قصائد الحب والغرام، حتى التي قالها شعراء الجاهلية والشعراء من الفساق يتغزلون بمن يحبونها من النساء، يحملها بعض المتصوفة على معاني حبهم لله ﷻ !!

وهذه القصائد فيها المحبة والاشتياق إلى المحبوب،وفيها اللوم للمحبوب والعذل - أي: العتاب له- فهذه أشياء يمكن أن تصلح في مخاطبة المحبوب من البشر، لكن لا تصلح في مخاطبة الله تعالى.

وهم ينشدون هذه القصائد ويستحضرون بها وكأنهم يخاطبون بها الله ﷻ من المحبوب المسمى في القصيدة، مثل ليلى وسُعدى، وأنها مجرد كناية عن الله تعالى، وأنهم يخاطبون بها الله، فيتكلمون بها بكلام لا يليق في مخاطبة الله ﷻ .

أما المؤمن فيعلم أنه عبد لله تعالى، وهناك أدب في مخاطبة الله .

❊ ❊ ❊

فَإِنَّ هَذَا الجِنْسَ يُحَرِّكُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحُبِّ كَائِنًا مَا كَانَ.

كل واحد يستمع إلى قصائد الحب يتذكر محبوبه، فالذي يحب الله يتذكر بها محبته لله، والذي يحب المال والذي يحب الرئاسة..، فكل إنسان يستعمل نفس الألفاظ ولكن ينوي بها المعاني التي يريدها هو.

❊ ❊ ❊

وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِحْنَةً يَمْتَحِنُ بِهَا الْمُحِبَّ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي

يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران: ٣١] فَلَا يَكُونُ مُحِبًا لِلَّهِ إِلَّا مَنْ يَتَّبِعُ رَسُولَهُ.

محنة: أي امتحان واختبار، فأنزل الله تعالى امتحانًا واختبارًا وهو ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي ﴾[آل عمران: ٣١] فإتباع الرسول ﷺ هو العلامة والدليل على صدق المحبة.

***

وَطَاعَةُ الرَّسُولِ وَمُتَابَعَتُهُ لَا تَكُونُ إِلا بِتَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ.

لا يمكن أن يكون العبد مطيعًا للرسول ﷺ إلا بتكميل العبودية؛ لأن الرسول ﷺ أمرنا بأوامر ونهانا عن نواهٍ، فعلى قدر امتثاله لهذه الأوامر واجتنابه لهذه النواهي يكون متبعًا للرسول ﷺ، وعلى قدر تمام الاتباع يكون كمال المحبة.

***

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَدَّعِي الْمَحَبَّةَ يَخْرُجُ عَنْ شَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ، وَيَدَّعِي مِنَ الْخَيَالَاتِ مَا لَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهِ، حَتَّى قَدْ يَظُنُّ أَحَدُهُمْ سُقُوطَ الْأَمْرِ وَتَحْلِيلَ الْحَرَامِ لَهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ مُخَالَفَةُ شَرِيعَةِ الرَّسُولِ وَسُنَّتِهِ، وَطَاعَتِهِ.

هذا تأكيد على ما سبق ذكره، من أن بعض هؤلاء يزعم أن محبته لله تسمح له بالخروج عن أوامر الله، وأن محبته للرسول ﷺ تسمح له بالخروج عن شريعة الرسول صلى الله لعيه وسلم، وأنه سقط عنه الأمر والنهي والتحليل والتحريم.

***

بَلْ قَدْ جَعَلَ اللهُ أَسَاسَ مَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ، وَالْجِهَادُ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ مَحَبَّةِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَكَمَالَ بُغْضِ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ فِي صِفَةِ مَنْ

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[المائدة: ٥٤] .

قال ﷻ : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[المائدة: ٥٤].

فإذًا؛ هذه صفة الذين يحبهم الله ويحبون الله، أنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

***

وَلِهَذَا كَانَتْ مَحَبَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِلَّهِ أَكْمَلَ مِنْ مَحَبَّةِ مَنْ قَبْلَهَا، وَعُبُودِيَّتُهُمْ لِلَّهِ أَكْمَل مِنْ عُبُودِيَّةِ مَنْ قَبْلَهُمْ.

وَأَكْمَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ هم أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَنْ كَانَ بِهِمْ أَشْبَهَ كَانَ ذَلِكَ فِيهِ أَكْمَلَ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَدَّعُونَ الْمَحَبَّةَ؟

أكمل الناس محبة بعد الأنبياء صحابة نبينا محمد ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل الناس جهادًا وامتثالًا للأمر واجتنابًا للنهي، فكل من كان أقرب لهدي الصحابة وأقرب للاقتداء بهم وسار على طريقتهم فهو أكمل محبة من غيره.

***

وَفِي كَلَامِ بَعْضِ الشُّيُوخِ: «الْمَحَبَّةُ نَارٌ تُحَرِّقُ فِي الْقَلْبِ مَا سِوَى مُرَادِ الْمَحْبُوبِ».

وَأَرَادُوا أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ قَدْ أَرَادَ اللَّهُ وُجودَهُ، فَظَنُّوا أَنَّ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ أَنْ يُحِبَّ

الْعَبْدُ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ.

المحبوب هو الله ﷻ، والمحبة تحرق ما سوى ما أراده الله.

وهنا يأتي إشكال، ماذا يقصدون بهذه العبارة، يقصدون ما أراده الله كونًا، أم ما أراده الله شرعًا؟[١]

الذين قالوا هذا الكلام يقصدون به الإرادة الكونية، يقولون المحبة تحرق ما سوى إرادة مراد المحبوب، فيقولون: إذن الله تعالى أراد أن يكفر الكافر ويفسق الفاسق ويضل الضال ويهتدي المهتدي ؛ فمحبتك لله -بزعمهم- تلزمك أن تحب الكفر والإيمان والطاعة والمعصية والطائع والعاصي والكافر والمؤمن، وأن الجميع هو مراد المحبوب، وأنت طالما تحب الله، فلابد أن تحب مراد المحبوب.

وَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُحِبَّ كُلَّ مَوْجُودٍ بَلْ يُحِبُّ مَا يُلَائِمُهُ وَيَنْفَعُهُ، وَيَبْغُضُ مَا يُنَافِيهِ وَيَضُرُّهُ.

إن الإنسان لا يمكن أن يحب كل شيء، فالإنسان يحب ما يلائمه وينفعه ويبغض ما ينافيه ويضره.

وَلَكِنْ اسْتَفَادُوا بِهَذَا الضَّلَالِ اتِّبَاعَ أَهْوَائِهِمْ، فَهُمْ يُحِبُّونَ مَا يَهْوَوْنَهُ كَالصُّوَرِ وَالرِّئَاسَةِ وَفُضُولِ الْمَالِ، وَالْبِدَعِ الْمُضِلَّةِ، زَاعِمِينَ أَنَّ هَذَا مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ.

---

[١] راجع الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية .

استعمل هؤلاء المنحرفين هذا الكلام وادعوا أنهم يحبون الله، وبناءً على محبتهم لله فهم يحبون كل ما أراده الله، ولكن هم في الحقيقة يخادعون أنفسهم، لأن نفوسهم تميل إلى أشياء تلائمهم وتلائم طباعهم، وتنفر عن أشياء أخرى.

لكن هم يستعملون هذه الذريعة لفعل ما تهواه نفوسهم من المحرمات، ثم يزعمون أنهم يحبونها لله لأن الله يحب هذه الأشياء.

وكلمة «الصور» استعملت في عشق الرجل امرأة، أو المرأة للرجل، ونحو ذلك مما يسمى: «عشق المحبة»، وكأن الإنسان تنطبع صورته في قلب المحب أو العاشق، إما الصورة الحقيقة إذا كان رآها، أو الصورة التي يتخيلها عنه، وتصبح هذه الصورة حاضرة في قلبه وفي ذهنه في كل وقت، ودائم الذكر لها والتعلق بها، وتشغله عن عبادة ربه .

***

وَمِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ بُغْضُ مَا يَبْغُضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَجِهَادُ أَهْلِهِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ.

المحب الصادق لله تعالى لابد وأن يبغض ما يبغضه الله ورسوله، ويجاهد بنفسه وماله في سبيله.

***

وَأَصْلُ ضَلَالِهِمْ أَنَّ هَذَا الْقَائِلَ الَّذِي قَالَ: «إِنَّ الْمَحَبَّةَ نَارٌ تُحَرِّقُ مَا سِوَى مُرَادِ الْمَحْبُوبِ» قَصَدَ بِمُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى الْإِرَادَةَ الكونية في كل الموجودات.

أَمَّا لَوْ قَالَ مُؤْمِنٌ بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، فَإِنَّهُ يَقْصِدُ الْإِرَادَةَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي هِيَ بِمَعْنَى مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: تُحَرِّقُ مِنَ الْقَلْبِ مَا سِوَى الْمَحْبُوبِ لِلَّهِ، وَهَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ.

نفس هذه العبارة المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب قد يقولها شخص مؤمن بالله وكتبه ورسله، لكن المؤمن يقصد بمراد المحبوب المراد الشرعي لله، أن الله تعالى أراد منا أن نصلي ونتصدق ونحج ونصدق الحديث ونؤدي الأمانة، وأراد منا أن نترك الكذب والخيانة والسرقة وشرب الخمر، فهذه الإرادة الشرعية، وأن الله تعالى يحب الإيمان ويكره الكفر والفسوق والعصيان، فالمؤمن محبته لله تجعله لا يحب إلا ما يريده الله شرعًا، وما يريده الله شرعا أي ما يحبه الله ويرضاه ﷻ.

***

فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ الْحُبِّ للهِ أَنْ لَا تُحِبَّ إِلَّا مَا يُحِبُّهُ اللهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتَ مَا لَا يُحِبُّ، كَانَتْ الْمَحَبَّةُ نَاقِصَةً.

ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾[الحجرات]

فالذين أنعم الله عليهم وتفضل، يحبون الإيمان، وزُيِّن الإيمان في قلوبهم فوجدوا حلاوة الإيمان، ويكرهون الكفر والفسوق والعصيان، مع أن الكفر والفسوق العصيان قد أراده الله كونًا، ولكن لأنه لم يرده شرعًا فهم لا يحبونه.

***

وَأَمَّا قَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ فَهُوَ يَبْغُضُهُ، وَيَكْرَهُهُ، وَيَسْخَطُهُ، وَيَنْهَى عَنْهُ.

أي هناك أشياء قدرها الله وقضاها، وهو مع ذلك يبغضها ويسخطها، كالكفر والفسوق والعصيان الذي هو من قضاء الله وقدره، ولكنه يبغضه ويكرهه لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾[الزمر: ٧].

عن المغيرة بن شعبة ﷺ، بلفظ: «**إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ**»[١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**...وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ**»[٢]. فهناك أشخاص وأعمال يبغضها الله تعالى، وهي من قضاءه وقدره، وينهى الله عنها.

❊ ❊ ❊

فَإِنْ لَمْ أُوَافِقْهُ فِي بُغْضِهِ وَكَرَاهَتِهِ وَسَخَطِهِ لَمْ أَكُنْ مُحِبًّا لَهُ، بَلْ مُحِبًّا لَمَّا يَبْغُضُهُ.

من أحب الأشياء التي يبغضها الله ويكرهها؛ فهذا خلل في المحبة ونقصان فيها.

وهذه المسألة مرتبطة بمسألة الإيمان بالقدر، وقد مر الإشكال الذي تثيره بعض الفرق في أول الرسالة، وهو كيف يبغض الله ﷻ ما شاء وجوده كالكفر والفسوق والعصيان؟

❊ ❊ ❊

فَاتِّبَاعُ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، وَالْقِيَامُ بِالْجِهَادِ بِهَا، مِنْ أَعْظَمِ الْفُرُوقِ بَيْنَ أَهْلِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، وَبَيْنَ مَنْ يَدَّعِي مَحَبَّةَ اللَّهِ نَاظِرًا إِلَى عُمُومِ رُبُوبِيَّتِهِ.

اتباع الشريعة يفرق بين من يحب ما يحب الله ويبغض ما يبغض الله، وبين ما يحب

---

[١] أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).

[٢] أخرجه مسلم (٢٦٣٧).

كل ما خلقه الله، أي أنه ينظر إلى عموم الربوبية، أن الله تعالى رب كل شيء، فهو يحب كل شيء، فيحب الأصنام والكفر والمعاصي... وهذا من جهلهم.

❊❊❊

أَوْ مُتَّبِعًا لِبَعْضِ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِشَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ دَعْوَى هَذِهِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ مِنْ جِنْسِ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْمَحَبَّةَ لِلَّهِ.

هذه الفرق الضالة التي ابتدعت في الدين، ويحبون الكفر والفسوق ويزعمون أنهم يحبونه لله؛ هؤلاء مثل اليهود والنصارى القائلين: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة: ١٨].

❊❊❊

بَلْ قَدْ تَكُونُ دَعْوَى هَؤُلَاءِ شَرًّا مِنْ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ لَمَّا فِيهِمْ مِنَ النِّفَاقِ الَّذِينَ هُمْ بِهِ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

المنافقون أشد شرًّا من الكافرين، فهؤلاء قد يكون منهم من صار من أهل الكفر الأكبر فهو منافق في الدرك الأسفل من النار، ويكون شرًا من اليهود والنصارى.

❊❊❊

كَمَا قَدْ تَكُونُ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى شَرٌّ مِنْ دَعْوَاهُمْ إِذَا لَمْ يَصِلُوا إِلَى مِثْلِ كُفْرِهِمْ.

أي من كان من الجهال ولم يصل إلى كفر مثل كفر اليهود والنصارى، فيكون اليهود والنصارى شرًا منهم.

وهذا من إنصاف المؤلف رحمه الله، كأنه بعد أن قال هم شرٌّ من اليهود والنصارى، ولكن

استدرك، فقد يكون بعضهم فيه شر، ولكن ليس كاليهود والنصارى.

وَفِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مِنْ التَّرْغِيبِ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ مَا هُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَيْهِ، حَتَّى إنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ وَصَايَا النَّامُوسِ.

الناموس هو جبريل عليه السلام، فالناموس والجاسوس يأتيان في لغة العرب بمعنى الرسول الذي ينقل الخبر في خفاء، ولكن يكثر عندهم استعمال جاسوس في من ينقل خبر الشر، واستعمال الناموس فيمن ينقل خبر الخير.

وقد جاء لفظ الناموس في حديث ورقة بن نوفل، لما حدثه النبيُّ ﷺ عن الملك الذي جاءه في غار حراء، فقال له ورقة بن نوفل رضي الله عنه: «**هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى**»[١]، أي إنه جبريل الملك الذي جاء إلى موسى وعيسى. فكانت من أعظم وصايا جبريل عند اليهود والنصارى هي محبة الله.

فَفِي الْإِنْجِيلِ أَنَّ الْمَسِيحَ قَالَ: «أَعْظَمُ وَصَايَا الْمَسِيحِ أَنْ تُحِبَّ اللهَ بِكُلِّ قَلْبِك وَعَقْلِك وَنَفْسِك» .

الإنجيل الذي بيد النصارى، ومثل هذه الأمور قال فيها النبي: «**لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾[البقرة: ١٣٦] **الآيَةَ**»[٢].

---

[١] أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة .

[٢] أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَالنَّصَارَى يَدَّعُونَ قِيَامَهُمْ بِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ، وَأَنَّ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ هُوَ مِنْ ذَلِكَ.

دائمًا النصارى شعارهم: «الدين محبة، والله محبة»، وبالذات النصارى العرب، تجد لوحات معلقة على محلاتهم وبيوتهم: «الله محبة» دائمًا يدعون أنهم أهل محبة الله، وأنهم صاروا في زهد عن النساء، وتركوا الزواج، وانقطعوا في الأديرة بسبب محبتهم لله.

❊ ❊ ❊

وَهُمْ بَرَاءٌ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ إِذْ لَمْ يَتَّبِعُوا مَا أَحَبَّهُ، بَلْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ، وَاللهُ يَبْغُضُ الْكَافِرِينَ وَيَمْقُتُهُمْ، وَيَلْعَنُهُمْ.

لأنهم لو كانوا يحبون الله حقًّا لاتبعوا ما أمر الله به، واتبعوا ما أحبه الله، لكن هم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه؛ فأحبط أعمالهم.

❊ ❊ ❊

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُحِبًا لِلَّهِ، وَاللهُ تَعَالَى غَيْرُ مُحِبٍّ لَهُ، بَلْ بِقَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ يَكُونُ حُبُّ اللهِ لَهُ.

لا يمكن أن يكون العبد محبًا لله، وهو غير محبوب من الله.

❊ ❊ ❊

وَإِنْ كَانَ جَزَاءُ اللهِ لِعَبْدِهِ أَعْظَمَ.

أي على قدر محبتك لله يحبك الله، ودائمًا جزاء الله تعالى للعبد أعظم من فعل

العبد، فمن أحب الله مهما عظمت محبته لله ؛ فمحبة الله له تكون أعظم لأن ثواب الله أعظم.

❧❧ ❧❧ ❧❧

كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْت إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْته هَرْوَلَةً»[١] .

حديث إلهي أي حديث قدسي .

وأهل السنة في شرحهم لهذا الحديث يقولون: إن التقرب إلى الله شبرًا وذراعًا وباعًا يكون أحيانًا تقربًا معنويًا، وأحيانًا حسيًّا، وذلك حسب العبادات، فهناك عبادات تتطلب تقربًا حسيًّا، وعبادات التقرب فيها معنوي.

فالتقرب الحسي: في العبادات التي تتطلب مشيًا، مثل المشي إلى المساجد، والحج، والجهاد، عبادات فيها مشي وقرب إلى المكان الذي يحبه الله تعالى منك أن تمشي إليه وتسعى إليه، كعيادة المريض، والتزاور في الله، وصلة الرحم ...إلخ.

والتقرب المعنوي: مثل ذكرك لله، وتلاوتك للقرآن، والصدقة، والصيام، وكذا .

وأما تقرب الله إلى العبد:

فالنسبة للعبادات التي يكون فيها التقرب معنويًا: فتقرب الله تعالى إلى العبد نفسره من جنس تقرب العبد من الله، فالله تعالى يتقرب إليه شبرًا وذراعًا وباعًا أي بالإثابة والإنعام والإكرام.

---

[١] أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة ﷺ، وروي كذلك عن أنس وأبي ذر .

والنسبة للعبادات التي يكون فيها التقرب حسيًّا: فالقرب من صفات الله ﷻ، فهو سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا ﷻ، ويجيء يوم القيامة لفصل القضاء، يجيء ويأتي ﷻ على ما يليق به، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]، فنؤمن بهذه الصفات على ما أراد الله تعالى.

فالشاهد هنا: أن ثواب الله تعالى للعبد أعظم من فعل العبد، فمن تقرب شبرًا تقرب الله إليه ذراعًا .

***

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَالْمُحْسِنِينَ وَالصَّابِرِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، بَلْ هُوَ يُحِبُّ مَنْ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» الْحَدِيثَ.

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ،...**» [١].

كل من تقرب إلى الله بأداء الفرائض وأداء النوافل يكون حب الله تعالى له أعظم من محبته لله.

---

[١] أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة ﵁.

فهنا يكون الله تعالى سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، بمعنى أنه لا يسمع إلا ما يحب الله تعالى منه سماعه، ولا يبصر إلا ما يحب الله له أن يبصره، ولا يمشي إلا لما يحب الله أن يمشي إليه، ولا يبطش بيده أي لا يمس بيده إلا ما يحب الله له.

وَكَثِيرٌ مِنْ الْمُخْطِئِينَ الَّذِينَ ابتَدَعُوا أَشْيَاءَ فِي الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ وَقَعُوا فِي بَعْضِ مَا وَقَعَ فِيهِ النَّصَارَى: مِنْ دَعْوَى الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ مَعَ مُخَالَفَةِ شَرِيعَتِهِ، وَتَرْكِ الْمُجَاهَدَةِ فِي سَبِيلِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَيَتَمَسَّكُونَ فِي الدِّينِ الَّذِي يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى اللَّهِ بِنَحْوِ مَا تَمَسَّكَ بِهِ النَّصَارَى مِنْ الْكَلَامِ الْمُتَشَابِهِ.

كثير من المخطئين يتقربون إلى الله ﷻ بأشياء ابتدعوها ويدعون أنهم يحبون الله، وهم يخالفون شريعته، مثل النصارى يستمسكون بالكلام المتشابه، فالدين الذي يتقربون به إلى الله متمسكهم فيه كلام متشابه، وهو ما يحتمل أكثر من معنى ويفسرونه بمعانٍ تصادم ما في كتاب الله وسنة رسوله.

وَالْحِكَايَاتِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ صِدْقُ قَائِلِهَا، وَلَوْ صَدَقَ لَمْ يَكُنْ قَائِلُهَا مَعْصُومًا.

حكايات يحكونها عن ناس يظنون فيهم أنهم من الأولياء، وأحيانا منامات لا يدرى صدق نسبتها إلى من رآها ولا صدق تعبيرها.

وهذه الحكايات أصلًا لا يُدرى صدقها، وحتى لو كانت روايتها صدقًا فقائلها ليس بمعصوم، أي ممكن أن يكون مخطئًا.

فَيَجْعَلُونَ مَتْبُوعِيهِمْ شَارِعِينَ لَهُمْ دِينًا، كَمَا جَعَلَ النَّصَارَى قِسِّيسِيهِمْ وَرُهْبَانَهُمْ شَارِعِينَ لَهُمْ دِينًا.

هنا المؤلف ﷺ ينكر على بعض المبتدعة ممن يترك العمل بشريعة الله تعالى -يترك الأوامر ويترك النواهي- ويزعم أن هناك مقام يصل إليه بعض الخواص وبعض الناس فيرتفع عنهم التكليف ولا يطالبون بالعبادة .

وإذا قلت له: ما الدليل على هذا؟

يحكي لك قصص وحكايات عن الولي الفلاني قال كذا، وفلان رأى منام فيه كذا، وكلمات مشتبهة تحتمل أكثر من تفسير، فيتمسكون بهذه الأشياء الواهية ويتركون النصوص الواضحة الصريحة في كتاب الله.

فيتركون الآيات المحكمات الواضحات، والأحاديث الصحاح البينات، ويتمسكون بقصص وحكايات لا نستطيع أن نجزم بصحة ثبوتها عن قائلها، ولو صح نسبتها إلى قائلها؛ فقائلها غير معصوم، فالولي فلان، والشيخ فلان، قد يكون أضل وأخطأ وانحرف بهذا الكلام لو صدر عنه.

فهؤلاء جعلوا المتبوعين - أي شيخ الطريقة والولي - مثل القساوس والرهبان يحلون لهم الحرام ويحرمون لهم الحلال ويتبعونهم ويطيعونهم.

***

ثُمَّ إِنَّهُمْ يَنْتَقِصُونَ الْعُبُودِيَّةَ، وَيَدَّعُونَ أَنَّ الْخَاصَّةَ يَتَعَدَّوْنَهَا كَمَا يَدَّعِي النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ.

بعض الغلاة والمتصوفة -كما مر- يزعم أن العبودية مقام ناقص للمبتدئين، فهم

الذين يلتزمون الأمر والنهي والحلال والحرام، لكن الخواص ارتفعت عنهم التكاليف ويكفيهم محبتهم لله ومكانتهم عند الله.

فهؤلاء كالنصارى الذين ادعوا أن المسيح لم يكن عبدًا لله، وادعوا أن له صفات من صفات الربوبية، ورفعوا القساوسة إلى مقام أعلى من مقام العبودية.

وَيُثْبِتُونَ لِلْخَاصَّةِ مِنْ الْمُشَارَكَةِ فِي اللَّهِ مِنْ جِنْسِ مَا تُثْبِتُهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ وَالْقِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانِ إلَى أَنْوَاعٍ أُخَرَ يَطُولُ شَرْحُهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

بعض من غلاة المتصوفة ادعوا في أوليائهم أو مشايخهم أنهم يعلمون الغيب وأنهم يدبرون الكون، ويسمونهم بـ «الأقطاب الأربعة»، وأن الله ترك تدبير الكون لهم، وأنهم هم الذين يخلقون ويرزقون ويحيون ويميتون، وجعلوهم شركاء لله في ربوبيته ﷻ، مثلما ادعى النصارى في المسيح ﷺ.

وَإِنَّمَا دِينُ الْحَقِّ هُوَ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ بِكُلِّ وَجْهٍ، وَهُوَ تَحْقِيقُ مَحَبَّةِ اللَّهِ بِكُلِّ دَرَجَةٍ، وَبِقَدْرِ تَكْمِيلِ الْعُبُودِيَّةِ تَكْمُلُ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَتَكْمُلُ مَحَبَّةُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ، وَبِقَدْرِ نَقْصِ هَذَا يَكُونُ نَقْصُ هَذَا .

كلما نقصت العبودية نقصت محبة العبد لربه، ونقصت محبة الرب لعبده، فنقصان العبودية دليل على نقصان المحبة، فلو كملت المحبة لكملت الطاعة والاتباع، والطاعة علامة المحبة، فكلما تنقص محبة العبد لربه سيكون هذا نقصان أيضًا في محبة الرب ﷻ له.

وَكُلَّمَا كَانَ فِي الْقَلْبِ حُبٌّ لِغَيْرِ اللَّهِ كَانَتْ فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَكُلَّمَا كَانَ فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِغَيْرِ اللَّهِ كَانَ فِيهِ حُبٌّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ.

أيضًا يؤكد على الارتباط والتلازم بين العبودية والمحبة، فعلى قدر محبة غير الله تكون العبودية، وعلى قدر العبودية لغير الله تكون المحبة.

***

وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لَا تَكُونُ لِلَّهِ فَهِيَ بَاطِلَةٌ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، فَالدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ.

هذا مقتبس من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَلاَ إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاَهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**»[١].

ذِكْرُ اللهِ وَمَا وَالاَهُ: ما والى ذكر الله أي كل ما أعان على ذكر الله، أي ما كان تبعًا على ذكر الله لا يدخل في اللعن، أي ما استعان به الإنسان على ذكر الله وطاعته وعبادته ليس داخلًا في اللعن.

***

وَلَا يَكُونُ لِلَّهِ إِلَّا مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ الْمَشْرُوعُ، فَكُلُّ عَمَلٍ أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُوَافِقُ شَرْعَ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ، بَلْ لَا يَكُونُ لِلَّهِ إِلَّا مَا جَمَعَ الْوَصْفَيْنِ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ.

---

[١] أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وحسنه الألباني.

هذان هما شرطا قبول العمل الصالح: الإخلاص والمتابعة.

فيقول: لا يمكن للإنسان أن يعمل عملًا نهى الله عنه كأن يسرق أو يزني ويزعم أنه عمله لله.

ولا يبتدع في الدين ويحدث فيه ما ليس منه، ويدعي أنه لله، فالعمل لا يكون لله إلا ما كان خالصًا وكان موافقًا للشريعة، موافقًا لمحبة الله ورسوله.

وقوله: «**وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ**» أي: هي الواجبات والمستحبات التي يحبها الله ورسوله.

❊ ❊ ❊

كَمَا قَالَ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠].

فَلَا بُدَّ مِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ١١٢].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ هذا هو الإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ هذا ما وافق الشريعة.

❊ ❊ ❊

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[١].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ

---

[١] أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) عن عائشة.

هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[١] .

حديث: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» الحديث في الصحيحين ولكن هذا اللفظ هو لفظ مسلم، ولفظ البخاري هو: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ**» فهذا الحديث هو اشتراط المتابعة، فالعمل إذا كان محدثا ومبتدعا في الدين فهو مردود على صاحبه.

وحديث: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...**» وهو في الصحيحين، فيه اشتراط الإخلاص.

❁ ❁ ❁

وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ، وَبِحَسَبِ تَحْقِيقِهِ يَكُونُ تَحْقِيقُ الدِّينِ وَبِهِ أَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَإِلَيْهِ دَعَا الرَّسُولُ، وَعَلَيْهِ جَاهَدَ،وَبِهِ أَمَرَ، وَفِيهِ رَغِبَ، وَهُوَ قُطْبُ الدِّينِ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ رَحَاهُ.

الرحا: حجرة مستديرة وفي وسطها عصا -القطب-، تدور حولها الرحا.

فقال: هذا قطب الدين الذي تدور عليه رحا الدين، كما أن الرحا لا تفارق قطبها، فكذلك الدين لا يفارق الإخلاص والمتابعة.

❁ ❁ ❁

وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النُّفُوسِ، وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ، «وَهُوَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»[٢].

---

[١] أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر ﷺ.

[٢] أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٦) عن أبي بكر ﷺ، وصححه الشيخ الألباني.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ نَنْجُو مِنْهُ، وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ g لِأَبِي بَكْرٍ: «أَلَا أُعَلِّمُك كَلِمَةً إِذَا قُلْتَهَا نَجَوْتَ مِنْ دِقِّهِ وَجِلِّهِ؟ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِك أَنْ أُشْرِكَ بِك وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُك لِمَا لَا أَعْلَمُ»[١] .

جاء في الحديث عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**» .

فهنا النبي عليه الصلاة ولاسلام علَّم أبا بكر رضي الله عنه أن يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِك أَنْ أُشْرِكَ بِك وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُك لِمَا لَا أَعْلَمُ**».

والشرك الذي هو أخفى من دبيب النمل هو مثل الرياء، مثل الإنسان يعمل العمل الصالح ويريد به مدح الناس أو ثناء الناس، والرياء قد يدخل في أصل العمل، وقد يدخل في صفته أي: تحسينه وتزيينه.

❊ ❊ ❊

وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا».

مر بنا هذا الأثر من قبل[٢].

❊ ❊ ❊

وَكَثِيرًا مَا يُخَالِطُ النُّفُوسَ مِنْ الشَّهَوَاتِ الْخَفِيَّةِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْهَا تَحْقِيقَ مَحَبَّتِهَا لِلَّهِ

---

[١] السابق نفسه.

[٢] انظر ص ١٦٩.

وَعُبُودِيَّتِهَا لَهُ، وَإِخْلَاصَ دِينِهَا لَهُ.

كثيرًا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية، وهذه الشهوات الخفية تفسد عليها تحقيق المحبة والعبودية لله تعالى، وتفسد عليها الإخلاص .

***

كَمَا قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ: «يَا نَعَايَا الْعَرَبِ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ».

قِيلَ لِأَبِي دَاوُد السِّجِسْتَانِيِّ: وَمَا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ؟ قَالَ: حُبُّ الرِّئَاسَةِ.

شداد بن أوس: هو صحابي كريم ﵁.

وبعض النسخ مكتوب فيها «بقايا» بالقاف، ولكن الصواب «نعايا»، والحديث رواه الطبراني في «المعجم الكبير» وأبو نعيم في «الحلية»، وأبو داود في «الزهد»، وصححه الشيخ الألباني ﵀ في «السلسلة الصحيحة»، وكذلك في «غريب الحديث» للهروي، وأبي عبيد، كله بلفظ «نعايا»، وأنا حاولت أبحث بحث صغير فما وجدت رواية عن «بقايا»، فإما أن تكون تصحيف في الكتاب، أو تكون رواية والله أعلم.

قوله ﵁: **«يَا نَعَايَا الْعَرَبِ»**؛ من النعي، وهو الإخبار بموت الشخص، فالناعي هو المخبر بموت الميت فكان يقول: « يا نعايا العرب» أي تعالوا انعوا العرب، أي أخبروا بموتهم .

وفي رواية أبي داود في «الزهد»[1] أن محمود بن الربيع ﵁ قال له: « **بَعْدَ الْإِسْلَامِ تَخَافُ عَلَيْنَا الشِّرْكَ؟**» فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مَحْمُودُ، أَوَمَا مِنْ شِرْكٍ إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ مَعَ**

[١] (٣٥٣)

اللهِ إِلَهًا آخَرَ؟».

ومحمود بن الربيع رضي الله عنه هو صحابي صغير، كان عمره خمس سنوات عندما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم، قال رضي الله عنه: «عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِي وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ»[١]، أي رش النبي صلى الله عليه وسلم الماء عليه يداعبه وهو طفل صغير، وكان يذكر هذا وهو ابن خمس سنين رضي الله عنه.

فشداد ابن أوس رضي الله عنه يقول له: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مَحْمُودُ، أَوَمَا مِنْ شِرْكٍ إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ؟**» يعني هل الشرك ينحصر في أن تجعل مع الله إلهًا آخر، فالشرك له أنوع، فهناك الشرك الأكبر والأصغر، والشرك الأصغر فيه قولي وفيه عملي وفيه قلبي، فالقلبي كالرياء، وفيه عملي كتعليق التميمة والودعة، والقولي مثل «ما شاء الله وشئت»، و الحلف بغير الله ونحوه.

فكأن شدادًا رضي الله عنه ينعي العرب، أنهم كثر فيهم الرياء وحب الرئاسة، ويحذرهم من هذا.

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»[٢].

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فَبَيَّنَ صلى الله عليه وسلم أَنَّ الْحِرْصَ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي إِفْسَادِ الدِّينِ لَا يَنْقُصُ عَنْ

---

[١] أخرجه البخاري (٧٧)، ومسلم(٣٣) (٢٦٥).

[٢] أخرجه الترمذي (٢٣٧٦) عن كعب بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني.

إِفَسَادِ الذِّئْبَيْنِ الْجَائِعَيْنِ لِزَرِيبَةِ الْغَنَمِ.

الشرف هو الرئاسة والزعامة.

والذئبان الجائعان إذا أرسلا في زريبة غنم؛ فمن طبيعة الذئاب الجائعة أنها لا تكتفي بأن تأخذ شاة واحدة وتأكلها، بل تظل تنهش قطعة من هذه و قطعة من هذه حتى تقتل أشياء كثيرة أكثر من حاجتها للأكل .

ومعنى الحديث: أن حرص المرء على المال وحرصه على الرئاسة يفسدان دينه أكثر من إفساد ذئبين جائعين لزريبة غنم.

❊❊❊

وَذَلِكَ بَيِّنٌ، فَإِنَّ الدِّينَ السَّلِيمَ لَا يَكُونُ فِيهِ هَذَا الْحِرْصُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ حَلَاوَةَ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يُقَدِّمَهُ عَلَيْهِ.

الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص على المال ولا على الرئاسة.

فعند تعارض المال مع ما أمر الله به من زكاة وصدقة، فصاحب الدين السليم يقدم حبه لله وعبوديته له سبحانه، على حبه للمال.

❊❊❊

وَبِذَلِكَ يَصْرِفُ عَنْ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤] .

كأن استشهاد المؤلف هنا بقراءة الكسر أي «المخلِصين»، خاصة أنها قراءة أبي

عمرو، وابن تيمية رحمه الله كان يقرأ بقراءة أبي عمرو.

فيقول رحمه الله: على قدر الإخلاص يصرف الله السوء والفحشاء عن المخلص.

***

فَإِنَّ الْمُخْلِصَ لِلَّهِ ذَاقَ مِنْ حَلَاوَةِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ مَا يَمْنَعُهُ عَنْ عُبُودِيَّتِهِ لِغَيْرِهِ، وَمِنْ حَلَاوَةِ مَحَبَّتِهِ لِلَّهِ مَا يَمْنَعُهُ عَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ، إِذْ لَيْسَ عِنْدَ الْقَلْبِ السَّلِيمِ لَا أَحْلَى وَلَا أَلَذُّ وَلَا أَطْيَبُ وَلَا أَلْيَنُ وَلَا أَنْعَمُ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ الْمُتَضَمِّنِ عُبُودِيَّتَهُ لِلَّهِ، وَمَحَبَّتَهُ لَهُ، وَإِخْلَاصَهُ الدِّينَ لَهُ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي انْجِذَابَ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ مُنِيبًا إِلَى اللَّهِ خَائِفًا مِنْهُ رَاغِبًا رَاهِبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[ق: ٣٣].

إِذْ الْمُحِبُّ يَخَافُ مِنْ زَوَالِ مَطْلُوبِهِ وَحُصُولِ مَرْغُوبِهِ.

المحبة تستلزم الخوف والرهبة من الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾؛ لأن المحب يخاف أن يزول عنه المحبوب، فعلى قدر كمال المحبة لله يكون معها كمال الخوف والرجاء.

***

فَلَا يَكُونُ عَبْدُ اللَّهِ وَمُحِبُّهُ إِلَّا بَيْنَ خَوْفٍ وَرَجَاءٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾[الإسراء: ٥٧] كان المشركون يعبدون الملائكة، ومنهم من كان يعبد الأنبياء، فالله تعالى يقول لهم: هؤلاء الملائكة والأنبياء الذين

تعبدونهم من دون الله هم يبتغون إلى الله الوسيلة، ويتقربون إلى الله بالعمل الصالح والإيمان ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾أي يتوسلون إليه بالعمل الصالح، فيجعلون العمل الصالح وسيلة تقربهم إلى الله تعالى، ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

***

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مُخْلِصًا للهِ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ، فَأَحْيَا قَلْبَهُ وَاجْتَذَبَهُ إِلَيْهِ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ مِنَ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، وَيَخَافُ مِنْ حُصُولِ ضِدِّ ذَلِكَ.

المؤمن الذي أخلص لله ﷻ ؛ فإن الله تعالى يجتبيه، فيصرف عنه السوء والفحشاء، ويكون في قلبه خوفٌ ورجاء، فيخاف من حصول ضد الإيمان والإخلاص ونحو ذلك.

***

بِخِلَافِ الْقَلْبِ الَّذِي لَمْ يُخْلِصْ لِلَّهِ، فَإِنَّهُ فِي طَلَبٍ وَإِرَادَةٍ وَحُبٍّ مُطْلَقٍ، فَيَهْوَى كُلَّ مَا يَسْنَحُ لَهُ وَيَتَشَبَّثُ بِمَا يَهْوَاهُ، كَالْغُصْنِ أَيُّ نَسِيمٍ مَرَّ بِعِطْفِهِ أَمَالَهُ.

كل قلب ليس فيه إخلاص لله ﷻ فإنه ليس له نور من الله ﷻ يوجهه إلى حب ما يحب الله تعالى، وبغض ما يبغضه الله.

فهذا القلب في طلب وارادة وحب مطلق، ليس مقيد بقيد الشرع، وإنما يميل مع كل ما يسنح له -أى تميل إليه نفسه- ويتشبث بهذا الذى يهواه.

فيصبح هذا القلب كالغصن فى مهب الريح، تأتى ريح توجه يمينًا، وريح أخرى توجه شمالًا، فلا تجد هذا القلب ثابتا على الحق مستقيمًا عليه.

***

فَتَارَةً تَجْتَذِبُهُ الصُّوَرُ الْمُحَرَّمَةُ وَغَيْرُ الْمُحَرَّمَةِ.

كما مر بنا، الصور هي تعلق القلب بعشق امرأة أو صبي، أو امرأة بعشق رجل أو نحو ذلك، وينطبع صورته هذا المحبوب فى القلب أو فى النفس، وينشغل بها عن طاعة الله، ويصل بها لدرجة العبادة.

فيقول ﷺ: سواء صور محرمة كعشق امرأة أجنبية لا تحل له، أو وأعوذ بالله كرجل يعشق رجلا، أو امرأة تعشق امرأة، أو من الغير محرمة كالذي يكون بين الزوجين، فأيضًا المحبة بين الزوجين لابد أن تتقيد بقيد الشرع، ولا تصل لدرجة الانشغال بها عن طاعة الله، وعن عبادة الله، حتى يصبح أحدهما عبدًا لصاحبه ويكون قلبه أسيرًا له يوجه إلى معصية الله.

***

فَيَبْقَى أَسِيرًا عَبْدًا لِمَنْ لَوْ اتَّخَذَهُ هُوَ عَبْدًا لَهُ لَكَانَ ذَلِكَ عَيْبًا وَنَقْصًا وَذَمًّا.

بعض الناس ربما تعلق قلبه بشخصٍ، لو أنه اتخذ هذا الشخص المحبوب عبدًا له عنده لكان عيبًا ونقصًا.

كما تجد ملكًا من الملوك، أو كبيرًا من الكبراء، ويتعلق قلبه بشخصٍ ربما لو اقتناه على أنه عبدٌ من عبيده لا يشرفه، أو قد يكون عيبًا، ومع ذلك يتحول إلى أن هذا الكبير يصبح عبدًا لذلك المحبوب.

***

وَتَارَةً يَجْتَذِبُهُ الشَّرَفُ وَالرِّئَاسَةُ، فَتُرْضِيهِ الْكَلِمَةُ وَتُغْضِبُهُ الْكَلِمَةُ وَيَسْتَعْبِدُهُ مَنْ يُثْنِي عَلَيْهِ وَلَوْ بِالْبَاطِلِ، وَيُعَادِي مَنْ يَذُمُّهُ وَلَوْ بِالْحَقِّ.

هناك فئة ممن استُعبد لغير الله، قد استعبد للرئاسة، فقلبه مجذوب بحب الشرف والرئاسة، بحيث أنه ترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، فكلمة المدح ترضيه وكلمة الذم تغضبه، ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل، فتجد قلبه متعلقًا بالذين يثنون عليه ويمدحونه، حتى ولو كان يعلم أنهم يمدحونه بالباطل.

وعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﵁، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الحجرات: ٤] قَالَ: قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ذَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**»[١].

والله ﷻ أخبر في كتابه الكريم عمن لا يحبون الناصحين فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف: ٧٩]، فالمؤمن الحق يحب الناصح بحق، الذي ذمه بنيه خالصه يقدم له النصيحة يريد له الخير، فالمؤمن لا يبغضه.

وكذلك أيضا تجد عن السلف الصالح آثار فى هذا الباب، باب مواقفهم من المادحين ومن الذامين.

قال حذيفة بن قتادة الْمَرْعِشِيُّ[٢] ﵀: «**لَوْ أَصَبْتُ مَنْ يَبْغَضُنِي عَلَى حَقِيقَةٍ فِي اللهِ لَأَوْجَبْتُ عَلَى نَفْسِي حُبَّهُ**»[٣].

مرات يحدث اختلاف في بعض المسائل الشرعية مع شخص ما، وأنت تعلم أنه

---

[١] أخرجه الترمذي (٣٢٦٧)، وصححه الألباني.

[٢] أحد العباد الزهاد، قال عنه الذهبي ﵀: «صاحب سُفْيَان الثَّوْرِيّ...وكان موته سنة سبْع ومائتين، لَهُ قدم في العبادة وكلام نافع، وهو القائل: «إنْ لم تخْشَ أنّ يعذّبك الله عَلَى أفضل عملك فأنت هالك». قلت: يعني لِمَا يَعتوره من الآفات» . [تاريخ الإسلام ٥/ ٤٧].

[٣] سير السلف الصالحين، ص ٩٧٧، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق/ كرم بن حلمي، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

مخلص ويريد الخير، وأنه لم يتخذ منك موقفًا شخصيًّا، فليس بينك وبينه مسألة شخصية، ولكنه يشعر أنك مبتدع، أو أنك على طريقة باطلة، فحتى لو كان هو المخطئ، وقد أبغضك وأخذ منك موقفًا لله لا لشخصك، وفي ظنه أنه بهذا يدافع عن الدين وأنك تحرف في الدين؛ فكان من كلام السلف: «**لَوْ أَصَبْتُ مَنْ يَبْغَضُنِي عَلَى حَقِيقَةٍ فِي اللهِ لَأَوْجَبْتُ عَلَى نَفْسِي حُبَّهُ**».

وجاء في «سير أعلام النبلاء» للذهبي رحمه الله، أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سأل طلابه يومًا، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقبَلتُم؟

قالوا: مِنْ مَجْلِسِ أَبِي كُرَيْبٍ[١].

فَقَالَ: «اكتُبُوا عَنْهُ، فَإِنَّه شَيْخٌ صَالِحٌ».

قالوا: إِنَّه يَطْعُنُ عَلَيْكَ.

فَقَالَ: «**فَأَيُّ شَيْءٍ حِيلَتِي، شَيْخٌ صَالِحٌ قَدْ بُلِيَ بِي**»[٢].

فالسلف لا يجتذبهم مسألة الشرف والرئاسة وحب المدح، بحيث أنهم يُوالون من يمدحهم ولو بالباطل، ويُعادون من يذمهم ولو بالحق، وإنما كان معيارهم ومقياسهم في الموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد؛ هو الله سبحانه تعالى.

لكن القلب الذي ليس مخلصًا لله، فلا يكون عنده توجيه من الله ﷻ لأنه كما ذكرنا من قبل أن للقلب بصيرة كمثل البصر للعين تحتاج إلى نور، فالعين إذا كانت سليمة لا

---

[١] أبو كريب محمد بن العلاء بن كريب الحافظ الثقة الإمام شيخ المحدثين، ولد سنة إحدى وستين ومائة، روى عنه الجماعة الستة وأبو زرعة، وأبو حاتم وعدة، مات في جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين ومائتين. [السير ١١/ ٣٩٤ - ٣٩٨].

[٢] السير (١١/ ٣١٧).

يستطيع أن يبصر الإنسان بها في الظلام، وكذلك فالقلب أيضا له بصيرة.

فالعين تبصر المحسوسات، والقلب يبصر المعنويات وحقائق الأمور ويميز الحق من الباطل، ولكن رؤية القلب أو بصيرة القلب هذه تحتاج إلى نور من الله، فإذا كان في ظلمة؛ فلن يستطيع قلبه أن يميز الحق من الباطل، وهذا النور هو هداية من الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور: ٤٠].

فالمخلص هو الذي يجعل الله تعالى في قلبه النور، الذي يميز بين ما ينفعه وما يضره، ويميز بين الحق والباطل، أما القلب الغير مخلص؛ فيجتذبه إما الصور، أو الشرف والرئاسة.

❊ ❊ ❊

وَتَارَةً يَسْتَعْبِدُهُمْ الدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي تَسْتَعْبِدُ الْقُلُوبَ، وَالْقُلُوبُ تَهْوَاهَا، فَيَتَّخِذَ إلَهَهُ هَوَاهُ، وَيَتَّبِعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ.

مرات حب المال يستعبد القلب،وقد مر بنا قول الله النبي ﷺ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار...» .

❊ ❊ ❊

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ خَالِصًا لِلَّهِ عَبْدًا لَهُ قَدْ صَارَ قَلْبُهُ مُعَبَّدًا لِرَبِّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بِحَيْثُ يَكُونُ اللَّهُ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَيَكُونُ ذَلِيلًا لَهُ خَاضِعًا، وَإِلَّا اسْتَعْبَدَتْهُ الْكَائِنَاتُ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَى قَلْبِهِ الشَّيَاطِينُ، وَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ إخْوَانِ الشَّيَاطِينِ، وَصَارَ فِيهِ مِنْ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ. وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لَا حِيلَةَ فِيهِ.

كما مر بنا من قبل أن القلب إن لم يكن معبَّدًا لله؛ كان عبدًا لِما سوى الله ولا بد؛ فالعبودية لله هي التحرر من عبودية ما سوى الله ﷻ، وأن من استكبر عن عبادة الله تعالى فإنه في الحقيقة يُذل نفسه بأن يصبح عبدًا للمال أو عبدًا للرئاسة أو لغير ذلك من شهوات النفوس، وتستولي على قلبه الشياطين.

❀❀❀

فَالْقَلْبُ إنْ لَمْ يَكُنْ حَنِيفًا مُقْبِلًا عَلَى اللهِ مُعْرِضًا عَمَّا سِوَاهُ، كَانَ مُشْرِكًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾[الروم] .

الحنف: هو الميل، وهو أيضًا: اعوجاج في الرجل إلى داخل، ولذلك سمي الأحنف بن قيس رحمه الله بذلك؛ لاعوجاج في قدمه.

والحنيف: المائل إلى الدين المستقيم[١].

فالقلب الحنيف هو الذى مال عما سوى الله، أي: أعرض عما سوى الله، وأقبل على الله سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾أي: جَبَلَ القلوب عليها، وهي أن يكون الإنسان حنيفًا معرضا عن الشرك، ومعرضا عن سوى الله مقبلا على الله، وهذا هو الدين القيم الذي فطر الله ﷻ الناس عليه.

---

[١] مقاييس اللغة (٢/ ٢١٠)، ولسان العرب (٩/ ٥٧).

وقال سبحانه بعدها: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الروم: ٣١] ومعناها أن من لم يكن حنيفًا على فطرة التوحيد الذي فطر الله الناس عليها؛ كان من المشركين.

***

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ أَئِمَّةً لِهَؤُلَاءِ الْحُنَفَاءِ الْمُخْلَصِينَ، أَهْلِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ.

كَمَا جَعَلَ فِرْعَوْنَ وَآلَ فِرْعَوْنَ أَئِمَّةَ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ.

قَالَ تَعَالَى فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[الأنبياء].

وَقَالَ فِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾[القصص: ٤١-٤٢] .

هنا يذكر الدليل على أن إبراهيم وآله هم أئمة الهدى، وفرعون وآله هم أئمة الضلال.

وآل: أصلها أهل، والفرق بينهما:

أن «آل» خصّت بالإضافة إلى الأعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة، فيقال: آل فلان، ولا يقال: آل رجل ولا آل زمان كذا، أو موضع كذا، ولا يقال: آل الخياط، بل يضاف إلى الأشرف الأفضل، يقال: آل الله وآل السلطان.

أما «الأهل» فيضاف إلى الكل، يقال: أهل الله وأهل الخياط، كما يقال: أهل زمن كذا وبلد كذا.

والآل: تأتي بمعنى قرابة النسب، وتأتي بمعنى الأتباع، وتحدد من السياق، فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾[غافر: ٢٨]، هنا بمعنى قرابة النسب.

وأما ما سبق من الآيات عن آل إبراهيم وآل فرعون، فالمقصود هم الأتباع.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ يعنى زيادة، فإبراهيم عليه السلام طلب من الله الولد، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠]

فرزقه الله بإبراهيم، ورزقه بإسحاق ومن إسحاق يعقوب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**النَّافِلَةُ وَلَدُ الْوَلَدِ**، أي: **أَنَّ يَعْقُوبَ وَلَدَ إِسْحَاقَ، كَما قَالَ**: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١]»[١].

***

وَلِهَذَا يَصِيرُ أَتْبَاعُ فِرْعَوْنَ أَوَّلًا إِلَى أَنْ لَا يُمَيِّزُوا بَيْنَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَبَيْنَ مَا قَدَّرَ اللهُ وَقَضَاهُ، بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْـمَشِيئَةِ الْـمُطْلَقَةِ الشَّامِلَةِ.

ثُمَّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْـمَخْلُوقِ، بَلْ يَجْعَلُونَ وُجُودَ هَذَا وُجُودَ هَذَا.

هذا مما مر بنا في مسألة التفريق بين إرادة الله الشرعية، وإرادة الله الكونية.

فالله سبحانه تعالى أراد كونًا كل ما في هذا الكون من خيرٍ وشرٍّ، وإيمانٍ وكفرٍ، وطاعةٍ ومعصيةٍ، فكل ذلك بمشيئة الله .

---

[١] انظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٤٥٧)، «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٥٣).

فاتباع فرعون ينظرون أولًا للمشيئة المطلقة الشاملة لكل شيء، فيقولون: «كل ما في الكون من كفر ومعصية وكذا فهو بمشيئة الله».

فيحبون هذه الأشياء، ويزعمون أنهم يحبونها لأنها قد شاءها الله!!

ولا يميزون بين ما يحبه الله ويرضاه، وهي الإرادة الشرعية، وبين ما قدر الله وقضاه، وهي الإرادة الكونية.

ثم ينتهي بهم الأمر إلى مسألة وحدة الوجود، وهي ادعاء أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق.

وقد سبق الحديث عن مسألة وحدة الوجود.

***

وَيَقُولُ مُحَقِّقُوهُمْ: «الشَّرِيعَةُ فِيهَا طَاعَةٌ وَمَعْصِيَةٌ، وَالْحَقِيقَةُ فِيهَا مَعْصِيَةٌ بِلَا طَاعَةٍ، وَالتَّحْقِيقُ لَيْسَ فِيهِ طَاعَةٌ وَلَا مَعْصِيَةٌ».

بعض المحقيقين من الذين وصفهم بأنهم اتباع فرعون، يزعمون أن الناس في الدين على مراتب ثلاثة: عامة وخاصة وخاصة الخاصة.

فالعامة هم أهل الشريعة، وهؤلاء عندهم طاعة ومعصية، فهم مكلفون بالتكاليف الشرعية.

ثم بعد ذلك الحقيقة[١]، يجعلونهم أهل معصية بلا طاعة.

ثم التحقيق وهم خاصة الخاصة، يجعلون مرتبة فوق الحقيقة، ليس فيها طاعة ولا

---

[١] سبق بيان معنى مصطلح الحقيقة.

معصية، يعني أن هؤلاء أدركوا بزعمهم أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق.

وحقيقة هذا هو إنكار وجود الله ﷻ، فيصبح وجود الله ﷻ عندهم هو وجود الشمس والقمر والسماوات والإنسان والحيوان، فإن هذه الموجودات هي الله بزعمهم، فبالتالي ارتفعت عنهم التكاليف!!

❊ ❊ ❊

وَهَذَا تَحْقِيقُ مَذْهَبِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْخَالِقَ وَأَنْكَرُوا تَكْلِيمَهُ لِعَبْدِهِ مُوسَى وَمَا أَرْسَلَهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

لذلك وصف الله فرعون وقومه بأنهم ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[القصص: ٤١] .

والذي ادعى وحدة الوجود، قد صار متبعًا لفرعون؛ لأن فرعون كان يدعى لنفسه الألوهية، فهؤلاء أشبه بفرعون وقومه، ولذلك بعض القائلين بالحلول والاتحاد يقولون: أنا الله، وأنه لا فرق بين أن يصلى إلى الله، أو يصلى الله له، وقد سبق ذكر بعض كلامهم.

فصار مثلهم مثل فرعون وقومه، الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص: ٣٨]، فأنكروا الخالق سبحانه، وأنكروا تكريمه لعبده موسى ﷺ، وأنكروا ما جاء به موسى عليه السلام من الأمر والنهى.

❊ ❊ ❊

وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ وَآلُ إِبْرَاهِيمَ الْحُنَفَاءُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، وَلَا بُدَّ مِنْ الْفَرْقِ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ.

وَأَنَّ الْعَبْدَ كُلَّمَا ازْدَادَ تَحْقِيقًا لِهَذَا الْفَرْقِ، ازْدَادَتْ مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ وَعُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَطَاعَتُهُ لَهُ، وَإِعْرَاضُهُ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَمَحَبَّةِ غَيْرِهِ وَطَاعَةِ غَيْرِهِ.

وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الضَّالُّونَ يُسَوُّونَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ.

وَالْخَلِيلُ يَقُولُ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾[الشعراء] .

إبراهيم عليه السلام جاء بتميز هذا الفرق بين الخالق والمخلوق، والله تعالى أمرنا أن نقتدي به في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة: ٤].

فكان إبراهيم عليه السلام يقول للمشركين من قومه عن آلهتهم الباطلة: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾[الشعراء].

وَيَتَمَسَّكُونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ كَلَامِ الْمَشَايِخِ كَمَا فَعَلَتْ النَّصَارَى.

هؤلاء الذين يدعون إلى وحدة الوجود، وإلى عدم الفرق بين الخالق والمخلوق، يتركون الكلام الواضح البيِّن في كتاب الله ﷻ، ويتمسكون بكلمات متشابه صدرت عن بعض المشايخ.

والكلام المتشابه: هو الذي يحتمل معنيين، معنى حقًّا، ومعنى باطلًا.

وكما مر، أن بعض هؤلاء المشايخ قد يكونون لم يقصدوا المعنى الذي ذهب هؤلاء إليه، وحتى لو قصدوا المعنى الباطل فإنهم غير معصومين، وهذا كله على فرض ثبوت

هذه المقولات عنهم.

***

مِثَالُ ذَلِكَ اسْمُ «الْفَنَاءِ».

اسم الفناء من الكلمات المتشابه.

وهو مصطلح لم يرد في كتاب الله ﷻ ولا في سنة النبي ﷺ بهذه المعاني الذي يستعملونها، وإنما ورد بالمعنى اللغوي في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾[الرحمن: ٢٦-٢٧]، أي: كلّ من على ظهر الأرض من جنّ وإنس فإنه هالك[١].

لكن تقسيم الفناء بهذه المعاني التذي اصطلح عليها المتصوفة؛ فليس واردًا في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولا في كلام الصحابة، وإنما تكلم به بعض المشايخ.

والأصل أنه لا مُشَاحَّة[٢] في الاصطلاح؛ فليس الإشكال الأساسي أن المصطلح لم يرد في الكتاب ولا في السنة، فإن كل العلوم الشرعية فيها مصطلحات ليست واردة في الكتاب والسنة، لكن المهم هو مضمون هذا المصطلح.

فنحن ننظر إلى كلمة الفناء، وما الذي أريد به، وبناء على ذلك نحكم على الفناء، هل هو مقام محمود أم لا؟

---

[١] «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨).

[٢] تشتهر بـ «مَشاحَة» بفتح الميم والحاء، ولم ترد بهذا الضبط في المعاجم العربية، وإنما ورد «مُشَاحَّة» بضم الميم وتشديد الحاء، لأنها مأخوذة من شاحَّ فلانًا؛ ولذا وجب ضم الميم وتشديد الحاء، لأن المفاعلة هي أحد مصدري فَاعَل مثل: «شاحّ».ومعنى: «لَا مشاحة فِي الِاصْطِلَاح» أي: لَا مجادلة فِيمَا تعارفوا عَلَيْهِ. انظر: «معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي» (١/ ٦٩٩)، المعجم الوسيط (١/ ٤٧٤).

والمؤلف سيذكر أن كلمة الفناء استعملت استعمالات متعددة، فهناك استعمالات محمودة مقبولة، واستعمالات باطلة مردودة على قائلها.

ثم الاستعمالات المحمودة لها اصطلاحات شرعية ممكن أن نستعملها، وتكون أفضل من الاصطلاحات الغير شرعية.

وهذه قاعدة دائمة في مسألة المصطلحات، فالمعنى إن كان يوجد له ما يدل عليه في القرآن أو في السنة؛ فاستعماله أفضل من أن نأخذ هذا المعنى الصحيح ونُوجد له اصطلاحًا أو اسما غير مستعمل في الكتاب والسنة؛ لأن الاسم الجديد هذا -غالبا- سيكون له استعمالات أخرى، فقد يُفهم منها معنى الحق، وقد يفهم غير ذلك.

مثلا مسألة: «الجهاد والكفاح والنضال»أو «الصدقة والتبرع».

فإذا كنا نقصد المعنى الذي يحث على الجهاد، فالأولى أن نستعمل المصطلح الشرعي؛ لأن المصطلح الشرعي -أولًا- فيه بركة لأنه وارد في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، ثم فى نفس الوقت يربط الناس بنالصوص التى وردت في فضله.

فإذا حُثّ الناس على الكفاح والنضال، فالنفوس تستحضر لماذا نكافح ولماذا نناضل؟

لكن إذا قيل مباشرة: «جاهدوا في سبيل الله» فذهن المسلم يستحضر الآيات والأحاديث التي فيها فضل الجهاد والمجاهدين، فيرتبط بالمعنى الشرعي.

ثم إن الأسماء الحادثة كالكفاح والنضال، لها استعمالات حقّة واستعمالات باطلة، فالكفاح والنضال قد يراد به القتال بدوافع وطنية أو قومية، ويشترك معهم الشيوعي والنصراني .. إلخ.

وكذلك مسألة التبرع والصدقة، لا نقول إن استعمال كلمة التبرع ممنوع، لكن استعمال كلمة «الصدقة» أولى وأفضل؛ لأنها هي الاسم القرآني للإنفاق في سبيل الله، فهذه الكلمات القرآنية تربط المستمع مباشرةً بثواب الله وإكرامه لمن فعلها.

وهنا نفس الشئ في مسألة الفناء، فمصطلح الفناء ليس من المصطلحات القرآنية، ولا من المصطلحات النبوية.

فالذين يستعملونه نقول لهم: أنتم تريدون بها معان متنوعة، بعض هذه المعاني حق لكن لها أسماء أخرى، وبعضها باطل.

***

فَإِنَّ الْفَنَاءَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

نَوْعٌ لِلْكَامِلِينَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَنَوْعٌ لِلْقَاصِدِينَ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَنَوْعٌ لِلْمُنَافِقِينَ الْمُلْحِدِينَ الْمُشَبِّهِينَ.

كأنه يقصد التقسيم الذي قسمه الله لعباده في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾[فاطر: ٣٢].

ودائما الله عز وجل يقسم المؤمنين إلى سابقين وأبرار، أو إلى مقربين وأبرار، أو سابقين وأصحاب يمين.

وفي سورة الواقعة قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾[الواقعة]، ثم ذكر أصحاب اليمين: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾[الواقعة] .

فشيخ الإسلام رحمه الله جعل أقسام الفناء على التقسيم الذي قسمه الله للعباد.

فالدرجة الأول، وهي درجة الكاملين، يقال عنهم: المقتصدون، والمقربون.

والدرجة الثانية يقال عنهم: أصحاب اليمين، والأبرار، والمقتصدون.

وقد ذكرنا من قبل شيئًا عن أقسام الفناء الثلاثة [١].

ومشايخ الصوفية أيضًا يستعملون نفس الأقسام الثلاثة، لكن الترتيب عند ابن تيمية ﵀ يختلف عنهم، إذ جعل أعلى المراتب هي الفناء عن عبادة ما سوى الله.

بخلاف أنهم جعلوها مرتبة العوام والمبتدئين، وجعلوا مرتبة الفناء عن وجود ما سوى الله، وهي عقيدة وحدة الوجود، جعلوها أعلى المراتب، وهي في الحقيقة مرتبة المنافقين والملحدين.

❊ ❊ ❊

فَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَهُوَ «الْفَنَاءُ عَنْ إِرَادَةِ مَا سِوَى اللَّهِ» .

بِحَيْثُ لَا يُحِبُّ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يَطْلُبُ مِنْ غَيْرِهِ.

هذا النوع جعله المؤلف أعلى مراتب الفناء وأكملها؛ لأنه مقام العبودية، ومر بنا أن مقام العبودية هو أكمل المقامات، وأن الله تعالى مدح رسوله ﷺ بالعبودية في أعلى المقامات، كمقام المعراج ومقام الدعوة ومقام التحدي وإنزال القرآن، فهو أشرف لقب وأكمله.

❊ ❊ ❊

[١] انظر ص ٩٦.

وَهُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُقْصَدَ بِقَوْلِ الشَّيْخِ أَبِي يَزِيدَ حَيْثُ قَالَ: «أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ إِلَّا مَا يُرِيدُ».

أَيْ: الْمُرَادُ الْمَحْبُوبُ الْمَرْضِيُّ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْإِرَادَةِ الدِّينِيَّةِ.

الشيخ أبو يزيد، هو أبو طيفور بن عيسى البسطامي، متوفى سنة ٢٦١هـ[١].

وشيخ الإسلام رحمه الله - من باب إحسان الظن بالقائل- يقول: يجب أن نفسر هذه الكلمة بالتفسير المحمود الحسن.

فالشيخ أبو يزيد يقول: «أنا أريد ألا أريد إلا ما يريده الله»، فالتفسير الحسن المحمود هو أن نفسرها بالإرادة الشرعية، أي أنه يريد أن يصبح قلبه يريد ما يريده الله، و ينصرف قلبه عما لا يريده الله، فيحب الإيمان والطاعة، ويكره الكفر والفسوق والعصيان.

***

وَكَمَالُ الْعَبْدِ أَنْ لَا يُرِيدَ وَلَا يُحِبَّ وَلَا يَرْضَى إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ وَأَحَبَّهُ، وَهُوَ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ، وَلَا يُحِبُّ إِلَّا مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٩]، قَالُوا: هُوَ السَّلِيمُ مِمَّا سِوَى اللَّهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى عِبَادَةِ اللَّهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى إِرَادَةِ اللَّهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى مَحَبَّةِ اللَّهِ، فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

وَهَذَا الْمَعْنَى إِنْ سُمِّيَ فَنَاءً أَوْ لَمْ يُسَمَّ هُوَ أَوَّلُ الْإِسْلَامِ وَآخِرُهُ. وَبَاطِنُ الدِّينِ وَظَاهِرُهُ.

---

[١] انظر: «لسان الميزان للذهبي» (٤/ ٣٦١).

أي هذا المعنى هو معنى محمود، بغض النظر عن الاصطلاح، فالاصطلاحات لا مُشَاحَّة فيها، فسواء سميناه فناء أو لم نسميه فناء، فلو أن الفناء يقصد به هذا المعنى، فهذا المعنى حق؛ نقر به ونوافق عليه، وهذا هو أصل الدين وظاهر الدين، أن الإنسان لا يعبد إلا الله ولا يتوكل إلا على الله.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَهُوَ «الْفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ السِّوَى».

كما ذكرنا مثل من يرى الشمس فلا يشاهد النجوم، وهو يعلم أن النجوم موجودة لكنه لا يشاهدها، الإنسان يشاهد الله تعالى، ويعلم أن هناك موجودات غير الله، ولكنه لا يشاهدها.

وَهَذَا يَحْصُلُ لِكَثِيرٍ مِنْ السَّالِكِينَ، فَإِنَّهُمْ لِفَرْطِ انْجِذَابِ قُلُوبِهِمْ إلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَضَعْفِ قُلُوبِهِمْ عَنْ أَنْ تَشْهَدَ غَيْرَ مَا تَعْبُدُ، وَتَرَى غَيْرَ مَا تَقْصِدُ؛ لَا يَخْطِرُ بِقُلُوبِهِمْ غَيْرُ اللَّهِ؛ بَلْ وَلَا يَشْعُرُونَ بِهِ؛ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾[القصص: ١٠] **قَالُوا: فَارِغًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى.**

السالكين أي السائرين على الطريق، وذلك أن النبي ﷺ وصف الإسلام بالصراط المستقيم، وفسر به قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٦] فالسالك هو السائر على الطريق.

وأيضا «السلوك» مصطلح يستعمله المتصوفة وغيرهم، ويقصدون به السلوك

على هذا الطريق، وذلك أن عبادة الله تعالى ودين الإسلام له مراتب وله مقامات، مثل السائر في الطريق يمر بمنازل، فكذلك كل الأعمال القلبية والعبادات القلبية فهي منازل للسائر والسالك في الطريق.

وقوله: «**فَارِغًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى**»، أي لشدة انشغالها بموسى -بابنها ﷺ- أصبح قلبها فارغًا، كأنها لا تفكر في أي شيء إلا في ابنها .

❊ ❊ ❊

وَهَذَا كَثِيرًا يَعْرِضُ لِمَنْ دَهَمَهُ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ إِمَّا حُبٌّ، وَإِمَّا خَوْفٌ، وَإِمَّا رَجَاءٌ؛ يَبْقَى قَلْبُهُ مُنْصَرِفًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا عَمَّا قَدْ أَحَبَّهُ أَوْ خَافَهُ أَوْ طَلَبَهُ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ عِنْدَ اسْتِغْرَاقِهِ فِي ذَلِكَ لَا يَشْعُرُ بِغَيْرِهِ.

أي أن كل إنسان في لحظات شدة حب أو شدة خوف أو شدة رجاء، يصبح قلبه فارغًا من كل شيء، إلا من هذا الشاغل الذي طرأ عليه.

❊ ❊ ❊

فَإِذَا قَوِيَ عَلَى صَاحِبِ الْفَنَاءِ هَذَا، فَإِنَّهُ يَغِيبُ بِمَوْجُودِهِ عَنْ وُجُودِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ، وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، حَتَّى يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ -وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْمُعَبَّدَةُ مِمَّنْ سِوَاهُ-، وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ وَهُوَ الرَّبُّ تَعَالَى، وَالْمُرَادُ فَنَاؤُهَا فِي شُهُودِ الْعَبْدِ وَذِكْرِهِ، وَفَنَاؤُهُ عَنْ أَنْ يُدْرِكَهَا أَوْ يَشْهَدَهَا.

أي يغيب بالله ﷻ عن كل شيء، حتى عن نفس الشاهد وعن الشهود وعن كل شيء إلا الله ﷻ.

وهذه المرتبة -كما ذكرنا- في كتب المتصوفة يجعلونها أعلى من مرتبة الفناء عن

إرادة ما سوى الله، لكن المؤلف يجعلها مرتبة أقل منها، وسيوضح سبب هذا.

❊❊❊

وَإِذَا قَوِيَ هَذَا ضَعُفَ الْمُحِبُّ حَتَّى يضْطَرِبَ فِي تَمْيِيزِهِ، فَقَدْ يَظُنُّ أَنَّهُ هُوَ مَحْبُوبُهُ، كَمَا يُذْكَرُ: أَنَّ رَجُلًا أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْيَمِّ فَأَلْقَى مُحِبُّهُ نَفْسَهُ خَلْفَهُ، فَقَالَ: أَنَا وَقَعْتُ فَمَا أَوْقَعَكَ خَلْفِي؟

قَالَ: غِبْتُ بِكَ عَنِّي، فَظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي.

إذا قوي الفناء عن شهود السوى؛ ضعف المحب؛ فيضعف التمييز، فلا يشاهد سوى الله، حتى يفنى عن نفسه، فيظن أنه هو محبوبه، أي يظن أنه الله .

كحال ذلك الرجل الذي ألق نفسه في اليم بعد حبيبه، فقد غاب عن نفسه وانشغل بالمحبوب حتى ظن أنه هو نفس المحبوب.

❊❊❊

وَهَذَا الْمَوْضِعُ زَلَّتْ فِيهِ أَقْوَامٌ، وَظَنُّوا أَنَّهُ اتِّحَادٌ، وَأَنَّ الْمُحِبَّ يَتَّحِدُ بِالْمَحْبُوبِ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ فِي نَفْسِ وُجُودِهِمَا.

وَهَذَا غَلَطٌ، فَإِنَّ الْخَالِقَ لَا يَتَّحِدُ بِهِ شَيْءٌ أَصْلًا، بَلْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّحِدَ شَيْءٌ بِشَيْءٍ إِلَّا إِذَا اسْتَحَالَا وَفَسَدَتْ حَقِيقَةُ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَحَصَلَ مِنَ اتِّحَادِهِمَا أَمْرٌ ثَالِثٌ لَا هُوَ هَذَا وَلَا هَذَا، كَمَا إِذَا اتَّحَدَ الْمَاءُ وَاللَّبَنُ، وَالْمَاءُ وَالْخَمْرُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

بعض الناس ظنوا أن هذا المقام هو نفسه مقام وحدة الوجود، وهذا غلط، فمقام الاتحاد هو الدرجة الثالثة من الفناء.

وسبب الغلط: أنه لا يمكن اتحاد الخالق بالمخلوق، وكذلك لا يمكن اتحاد مخلوق بمخلوق، إلا إذا استحالا أي تحول إلى شيء ثالث غير الأول وغير الثاني، كما إذا اتحد الماء واللبن، تحول إلى شيء آخر لا هو ماء ولا هو لبن يصبح هذا المزيج شيئا آخر.

***

وَلَكِنْ يَتَّحِدُ الْمُرَادُ وَالْمَحْبُوبُ، وَالْمُرَادُ وَالْمَكْرُوهُ وَيَتَّفِقَانِ فِي نَوْعِ الْإِرَادَةِ وَالْكَرَاهَةِ، فَيُحِبُّ هَذَا مَا يُحِبُّ هَذَا، وَيُبْغِضُ هَذَا مَا يُبْغِضُ هَذَا، وَيَرْضَى مَا يَرْضَى، وَيَسْخَطُ مَا يَسْخَطُ، وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِي وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِي.

يمكن اتحاد المراد والمحبوب، والمراد والمكروه، بمعنى أن المحب يحب ما يحبه محبوبه ويكره ما يكرهه محبوبه... كما ذكر ﵀، وهذا هو القدر الممكن، أما زيادة عن هذا أنه اتحاد الخالق بالمخلوق -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فهذا كفر وزندقة، وغير ممكن أصلًا.

***

وَهَذَا الْفَنَاءُ كُلُّهُ فِيهِ نَقْصٌ، وَأَكَابِرُ الْأَوْلِيَاءِ كَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَالسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَمْ يَقَعُوا فِي هَذَا الْفَنَاءِ، فَضْلًا عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُمْ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا بَعْدَ الصَّحَابَةِ.

أي الفناء عن شهود السوى فيه نقص، بخلاف الفناء عن إرادة ما سوى الله، فهذا محمود.

وسبب نقص هذا وكمال الأول: هو أن الكُمّل من الصالحين، فأكمل الناس هم الأنبياء ثم بعدهم الصحابة، لم يحصل منهم هذا النوع من الفناء، فلو كان هذا أكمل لكانوا متصفين به، لكن حصل منهم النوع الأول، فقد كانوا لا يعبدون إلا الله ولا يتوكلون إلا على الله.

فإذًا؛ النوع الأول أكمل لأنه صفة الأنبياء والصالحين، لكن هذا النوع درجة جائزة - وهو جعلها في مرتبة المقتصدين- أي ممكن تقع من عموم المؤمنين لكن ليست هي الدرجة الأكمل، لأنها وقعت من بعض التابعين وبعض الصالحين، بعد جيل الصحابة.

وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا النَّمَطِ مِمَّا فِيهِ غَيْبَةُ الْعَقْلِ وَعَدَمُ التَّمْيِيزِ لَمّا يَرِدُ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ أَحْوَالِ الْإِيمَانِ.

أي من أسباب نقص هذا النمط أيضًا - وهو الفناء عن شهود ما سوى الله- ما يحصل من غيبة في العقل وعدم التمييز من الإنسان عندما يذكر الله تعالى يُغشى عليه أو يُصعق أو يموت، لكون عقله وقلبه لم يتحمل ذلك.

فَإِنَّ الصَّحَابَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كَانُوا أَكْمَلَ وَأَقْوَى وَأَثْبَتَ فِي الْأَحْوَالِ الْإِيمَانِيَّةِ مِنْ أَنْ تَغِيبَ عُقُولُهُمْ، أَوْ يَحْصُلَ لَهُمْ غَشْيٌ أَوْ صَعْقٌ أَوْ سُكْرٌ أَوْ فَنَاءٌ أَوْ وَلَهٌ أَوْ جُنُونٌ.

سبب أن هذه المرتبة أنقص من المرتبة الأولى؛ أن الصحابة - رضي الله عنهم- كانوا أكمل وأقوى عقولًا، وأثبت في الأحوال الإيمانية، أي كانت تحصل لهم الأحوال

الإيمانية، والعبادات القلبية، من أعلى مراتب الخوف من الله، وأعلى مراتب الرجاء، وأعلى مراتب المحبة، ولكن لا توصلهم إلى أن تغيب عقولهم.

فهذا المتأخر لن يكون أكثر حبًّا لله من الرسول ﷺ ولا أكثر خوفًا من الله من الرسول ﷺ، ومع ذلك الرسول ﷺ ما أصابه السكر، ولا تكلم بكلمات مثل هذه الكلمات التي يَتكلم بها بعضُ الصوفية، وهم يظنون أن هذا لكمال محبتهم لله، فوصلوا إلى درجة ذهبت عقولهم، وصاروا يتكلمون بكلام المجانين والسكارى !!

وقوله: «**غَشْيٌ أَوْ صَعْقٌ أَوْ سُكْرٌ أَوْ فَنَاءٌ أَوْ وَلَهٌ أَوْ جُنُونٌ**» هذه كلها مصطلحات متقاربة بمعنى زوال الإدراك وزوال التمييز.

***

وَإِنَّمَا كَانَ مَبَادِئُ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي التَّابِعِينَ مِنْ عُبَّادِ الْبَصْرَةِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُغْشَى عَلَيْهِ إِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ، كَأَبِي جُهَيْرٍ الضَّرِيرِ، وَزُرَارَةَ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَاضِي الْبَصْرَةِ.

مبادئ هذه الأمور -الغشي والصعق وهكذا-، بدأت في بعض العباد من التابعين في البصرة، فبعضهم كان إذا سمع القرآن يغمى عليه ويحمل مغشيًا عليه، وبعضهم مات من سماع آيات القرآن، لم يحتملها قلبه لما فيها من تخويف ووعيد.

كأبي جهير الضرير ﵀، فقد قرأ عليه صالح المري قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾[الفرقان] فخر ميتًا من سماع القرآن أي من تأثره[١].

وزرارة ابن أبي أوفى قاضي البصرة، وهو من علماء التابعين ﵀، أمّ الناس في صلاة

---

[١] أورد قصة وفاته الخطيب البغدادي ﵀ في «الزهد والرقائق»، ص ١٣٦.

الفجر، فقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٖ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾[المدثر: ٨-١٠]، فخر ميتًا[١].

فهنا ابن تيمية رحمه الله يقول: هؤلاء من الصالحين ومن العباد، وحصل لهم هذا من شدة تدبرهم للقرآن ومن شدة خوفهم من الله، لكن عندما نقارن هل هم أكمل أم النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم؟

نقول إن النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم أكمل، فالنبي ﷺ قال: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ**»[٢]. ﷺ.

وأما ما يُروى أن عمر رضي الله عنه قرأ آيات ومرض بسببها وعاده الناس، فإن هذا غير الغشي - أي أن الإدراك أو التمييز لم يذهب عنه رضي الله عنه.

فالصحابة كانوا يبكون وتضطرب قلوبهم، ويُسمع لهم أزيز كأزيز المرجل، ولكن ما كان يحصل لهم زوال الإدراك وزوال التمييز، أو أن يتكلم أحدهم بكلام السكارى.

وهذه الأمور ما حصلت في زمن الصحابة رضي الله عنهم؛ مما يدل على أنه ليس هو الكمال.

❊ ❊ ❊

وَكَذَلِكَ صَارَ فِي شُيُوخِ الصُّوفِيَّةِ مَنْ يَعْرِضُ لَهُ مِنْ الْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ مَا يَضْعُفُ مَعَهُ تَمْيِيزُهُ، حَتَّى يَقُولَ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنْ الْأَقْوَالِ مَا إذَا صَحَا عَرَفَ أَنَّهُ غَالِطٌ فِيهِ.

صار في شيوخ الصوفية من شدة المحبة لله والخوف من الله يعرض له ما يضعف عنه

---

[١] أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٣٨٢).

[٢] أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) عن أنس رضي الله عنه.

التمييز؛ حتى يتكلم بكلام إذا صحا وأفاق عرف أنه غالط، أي يتكلم كلام بغير وعي ولا إدراك مثل السكران يتكلم بكلام لا يدري معناه.

❀❀❀

كَمَا يُحْكَى نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ مِثْلِ أَبِي يَزِيدَ، وَأَبِي الْحُسَيْنِ النُّورِيِّ[١]، وَأَبِي بَكْرٍ الشِّبْلِيِّ[٢]، وَأَمْثَالِهِمْ.

بِخِلَافِ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ، وَمَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ، وَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ بَلْ وَبِخِلَافِ الْجُنَيْدِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ كَانَتْ عُقُولُهُمْ وَتَمْيِيزُهُمْ يَصْحَبُهُمْ فِي أَحْوَالِهِمْ فَلَا يَقَعُونَ فِي مِثْلِ هَذَا الْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ وَنَحْوِهِ.

أبو يزيد البسطامي توفي سنة ٢٦١ هـ، وأبو الحسن النوري توفي سنة ٢٩٥ هـ، وأبو بكر الشبلي توفي سنة ٣٣٤هـ، فكانوا في القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع.

وأبو سليمان الداراني رحمه الله هذا توفي بدمشق سنة ٢١٥هـ، ومعروف الكرخي رحمه الله توفي سنة ٢٠٠ هـ والفضيل بن عياض رحمه الله توفي سنة ١٨٧ هـ، والجنيد بن محمد أبو القاسم توفي سنة ٢٩٨ هـ.

وهنا شيخ الإسلام رحمه الله يمدح هؤلاء الأئمة «أبا سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والفضيل بن عياض، والجنيد»، فيقول: طريقتهم كانت أكمل وأحسن من طريقة «أبي يزيد البسطامي، والنوري، والشبلي» . فأبو يزيد البسطامي والنوري والشبلي كان

---

[١] أحمد بن محمد الخراساني، له عبارات دقيقة يتعلق بها من انحرف من الصوفية، توفي سنة ٢٩٥ هـ، وانظر ترجمته في «السير» (١٤/ ٧٠).

[٢] اختلف في اسمه فقيل: دلف بن جحدر ويقال: اسمه جعفر بن يونس، كان فقيها عارفا بمذهب مالك، وكتب الحديث عن طائفة.وقال الشعر، وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن، لكنه كان يحصل له جفاف دماغ وسكر، توفي سنة ٣٣٤هـ.انظر ترجمته في السير (١٥/ ٣٦٧).

يحصل لهم ما يسمونه السكر وذهاب التميز، ويتكلمون بكلمات لا يدرون معناها.

لكن أبو سليمان الداراني ومعروف الكرخي والفضيل بن عياض والجنيد لم يكن يحصل منهم هذا، وهم أكمل.

***

بَلْ الْكُمّلُ تَكُونُ قُلُوبُهُمْ لَيْسَ فِيهَا سِوَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَعِنْدَهُمْ مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ وَالتَّمْيِيزِ مَا يَشْهَدُونَ بِهِ الْأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، بَلْ يَشْهَدُونَ الْمَخْلُوقَاتِ قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ مُدَبَّرَةً بِمَشِيئَتِهِ بَلْ مُسْتَجِيبَةً لَهُ قَانِتَةً لَهُ، فَيَكُونُ لَهُمْ فِيهَا تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى، وَيَكُونُ مَا يَشْهَدُونَهُ مِنْ ذَلِكَ مُؤَيِّدًا وَمُمِدًّا لَمّا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ إخْلَاصِ الدِّينِ، وَتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ لَهُ، وَالْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

الكمل من المؤمنين هم في الحقيقة ليس في قلوبهم سوى محبة الله وإرادة الله، ولكن في نفس الوقت يشهدون -أي يعلمون- أن هذا الكون فيه مخلوقات، لكن يشهدونها مدَّبرة بأمر الله معبدة لله ﷻ، أي لا ينشغلون بها عن طاعة الله، ولكن عندهم من العلم ومن التمييز ما يجعلهم يعن لا تتعلق قلوبهم إلا بالله لكن في نفس الوقت يشهدون بهذه المخلوقات والموجودات، لكن يشهدونها مسخرة مدبرة لله لا يشهدونها شاغلة لهم عن الله وصارفة لهم عن عبادته.

***

وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي دَعَا إلَيْهَا الْقُرْآنُ، وَقَامَ بِهَا أَهْلُ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ، وَالْكُمّلُ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ.

وَنَبِيُّنَا ﷺ إمَامُ هَؤُلَاءِ وَأَكْمَلُهُمْ؛ وَلِهَذَا لَمّا عُرِجَ بِهِ إلَى السَّمَوَاتِ، وَعَايَنَ مَا

هُنَالِكَ مِنْ الْآيَاتِ، وَأُوحِي إِلَيْهِ مَا أُوحِي مِنْ أَنْوَاعِ الْمُنَاجَاةِ، أَصْبَحَ فِيهِمْ وَهُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ حَالُهُ، وَلَا ظَهَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

نبينا ﷺ لم يعاين فقط بقلبه، بل رأى بعينه ﷺ من آيات الله الكبرى، وكلمه الله ﷻ وناجاه وخاطبه، ورأى من آيات ربه الكبرى، ومع ذلك أصبح النبي ﷺ يوم المعراج صحيح البدن، فما أصابه الغشي ولا السكر، وما أذهبت مناجاتُه لله عقلَه، ولا أذهبت تمييزَه ﷺ، فهذا من كمال حاله ﷺ.

***

بِخِلَافِ مَا كَانَ يَظْهَرُ عَلَى مُوسَى مِنْ التَّغَشِّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أَجْمَعِينَ.

أي مقام النبي ﷺ أكمل من مقام نبينا موسى، وليس الغرض انتقاص من مقام من نبي الله موسى عليه السلام، ولكن الغرض هنا بيان أن مقام سيدنا نبينا ﷺ أكمل لأنه لم يصعق، بينما موسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[الأعراف: ١٤٣].

ويمكن أن يقال أيضًا: إن صعق موسى ليس بالصعق الناشئ عن شدة العبادة القلبية وزيادة الحال بحيث أن يغلب على القلب، إنما هذا الصعق مثل الصعق الحسي، فبدن الإنسان لا يقوى على شيء مثل دك الجبل، فخر موسى عليه السلام صعقا.

وبعض العلماء يذكر أن الصعقة كانت من قوة صوت اندكاك الجبل، فهو إنسان واقف بجوار جبل قد اندك، فهذا مثل التأثيرات العادية، كالمرض الذي يصيب الإنسان، ليس بسبب أحوال قلبية أدت إلى ذلك.

لكن على كل حال فمقام نبينا ﷺ هو أكمل وأفضل.

***

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّالِثُ: مِـمَّا قَدْ يُسَمَّى فَنَاءً:

فَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ أَنْ لَا مَوْجُودَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ وُجُودَ الْخَالِقِ هُوَ وُجُودُ الْمَخْلُوقِ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ، فَهَذَا فَنَاءُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْإِلْحَادِ الْوَاقِعِينَ فِي الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ.

النوع الثالث نوع مرفوض، وهو فناء المنافقين والملحدين، وهو الفناء عن عن وجود ما سوى الله، فيصل صاحبه في النهاية إلى أنه لا موجود إلا الله -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-، فيصبح يعتقد أن الصليب هو الله، وأن الوثن هو الله، وأن الإنسان هو الله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

والحلول: هو اعتقاد أن الله ﷻ حل في مخلوق من مخلوقاته، وهو نوعان:

حلول خاص: وهو اعتقاد أن الله حل في مخلوق معين كالمسيح عند النصارى، أو كما يدعي الشيعة الباطنية أن الله تعالى حل في الحاكم بأمر الله الفاطمي.

وحلول عام: وهو اعتقاد أن الله حل جميع المخلوقات، لكن أصحابه هذا الاتحاد يعتبرون أن الله تعالى له وجود والمخلوقات لها وجود، لكن حل الله في المخلوقات -تعالى الله عما يقولون-.

وأما وحدة الوجود: فيعتقدون أنه لا فرق أصلا بين الخالق والمخلوق!! فالخالق هو نفسه المخلوق، ويجعلون الإنسان خالقًا، ويجعلون كل الموجودات هي الله تعالى الله عما يقولون.

وَالْمَشَايِخُ الْمُسْتَقِيمُونَ إذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: «مَا أَرَى غَيْرَ اللَّهِ»، أَوْ «لَا أَنْظُرُ إلَى غَيْرِ اللَّهِ»، وَنَحْوَ ذَلِكَ فَمُرَادُهُمْ بِذَلِكَ مَا أَرَى رَبًّا غَيْرَهُ، وَلَا خَالِقًا غَيْرَهُ وَلَا مُدَبِّرًا غَيْرَهُ، وَلَا إلَهًا غَيْرَهُ، وَلَا أَنْظُرُ إلَى غَيْرِهِ مَحَبَّةً لَهُ أَوْ خَوْفًا مِنْهُ أَوْ رَجَاءً لَهُ.

هذا من باب التماس العذر، فيقول: ربما تجد بعض المشايخ المستقيمين من المتصوفة، ربما صدر عنه هذه العبارات: «لا أرى غير الله» أو «لا أنظر إلى غير الله»...، فيقول: نوجهها توجيهًا بأنه قصد معنى مجازيا ولم يقصد هذا المعنى الباطل، وهو وحدة الوجود.

أي إحسان الظن بالقائل أن نقول: إنه قصد أنه لا يرى غير الله ربا، لا يقصد أن كل ما يراه هو الله؛ وإنما هو يرى كل مخلوق مربوبًا لله، وأن الله هو رب كل شيء، ولا يرى غير الله ربًّا.

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله، أن بعض الناس يأتي لعبارات متشابهة صدرت من بعض المشايخ، كشيخ مثلا قال: «لا أرى غير الله» أو «لا أنظر إلى غير الله» فيفسرها ويفهم منها المعنى الباطل .

وهذا خطأ؛ لأن الأصل عندنا المحكمات من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وحال النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته، ثم إذا صدر عن شيخ مستقيم عبارة مثل هذه العبارات؛ فإحسان الظن به أن نوجهها توجيها يتفق مع الكتاب والسنة، لا أن نفهم الفهم الباطل الذي نعارض به النصوص.

❊ ❊ ❊

فَإِنَّ الْعَيْنَ تَنْظُرُ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْقَلْبُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَوْ رَجَاهُ أَوْ خَافَهُ الْتَفَتَ إِلَيْهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْقَلْبِ مَحَبَّةٌ لَهُ وَلَا رَجَاءٌ لَهُ وَلَا خَوْفٌ مِنْهُ وَلَا بُغْضٌ لَهُ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ لَهُ لَمْ يَقْصِدْ الْقَلْبُ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ، وَلَا أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَلَا أَنْ يَرَاهُ .

وَإِنْ رَآهُ اتِّفَاقًا رُؤْيَةً مُجَرَّدَةً، كَانَ كَمَا لَوْ رَأَى حَائِطًا وَنَحْوَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ تَعَلُّقٌ بِهِ.

اتِّفَاقًا: أي عن غير قصد الشيء .

والمقصود: أن القلب إذا انصرف عن المخلوقات فهو لا يرجو المخلوق ولا يخاف المخلوق، وإنما صرف العبادة كلها لله محبة ورجاء وخوفًا، ويصبح رؤيته للمخلوقات مثل إنسان مشى في الطريق فرأى جدارًا لا يعنيه في شيء، فقلبه لن ينشغل به، ولن توجد في القلب تجاه الجدار محبة له ولا بغض له ولا رجاء منه ولا خوف منه، فكذلك تصبح كل المخلوقات عنده بهذه المثابة، فقلبه متعلق بالله رجاءً وخوفًا ومحبةً واستعانةً وتوكلًا، والمخلوقات كلها ينظر إليها من غير تعلق بها ولا التفاتًا إليها.

❊ ❊ ❊

وَالْمَشَايِخُ الصَّالِحُونَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - يَذْكُرُونَ شَيْئًا مِنْ تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ وَتَحْقِيقِ إِخْلَاصِ الدِّينِ كُلِّهِ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُلْتَفِتًا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَلَا نَاظِرًا إِلَى مَا سِوَاهُ: لَا حُبًّا لَهُ، وَلَا خَوْفًا مِنْهُ، وَلَا رَجَاءً لَهُ، بَلْ يَكُونُ الْقَلْبُ فَارِغًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، خَالِيًا مِنْهَا، لَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا إِلَّا بِنُورِ اللَّهِ.

فَبِالْحَقِّ يَسْمَعُ وَبِالْحَقِّ يُبْصِرُ وَبِالْحَقِّ يَبْطِشُ وَبِالْحَقِّ يَمْشِي، فَيُحِبُّ مِنْهَا مَا

يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَيَبْغَضُ مِنْهَا مَا يَبْغَضُهُ اللَّهُ، وَيُوَالِي مِنْهَا مَا وَالَاهُ اللَّهُ، وَيُعَادِي مِنْهَا مَا عَادَاهُ اللَّهُ، وَيَخَافُ اللَّهَ فِيهَا وَلَا يَخَافُهَا فِي اللَّهِ، وَيَرْجُو اللَّهَ فِيهَا وَلَا يَرْجُوهَا فِي اللَّهِ، فَهَذَا هُوَ الْقَلْبُ السَّلِيمُ الْحَنِيفُ الْمُوَحِّدُ الْمُسْلِمُ الْمُؤْمِنُ الْمُحَقِّقُ الْعَارِفُ بِمَعْرِفَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَبِحَقِيقَتِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ.

تجريد التوحيد: هو تخليصه من الشوائب، فالشيء المجرد أي الخالص الذي نُقي وصفي من الشوائب.

وما ذكره من صفات هي صفات من جرد التوحيد لله سبحانه وتعالى، فالموحد لا يسمع إلا ما يحبه الله له أن يسمعه، ولا يبصر إلا ما يحب الله أن يبصره، ولا يبطش أي لا يمس بيده إلا ما يحب الله تعالى منه أن يمسه، ولا يمشي إلا إلى ما يحب الله أن يمشي إليه.

ويخاف الله تعالى في المخلوقين، أي هو تعامله مع المخلوقين أنه لا يؤذيهم ليس خوفًا منهم، وإنما خوفًا من الله أن يعاقبه بتعديه على حق غيره.

ولا يرجوهم وإنما يرجو الله ﷻ، فعندما يحسن إلى أحدهم فهو يحسن إليه ليس رجاء للمخلوق حتى يعطيه المخلوق، وإنما كما الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾[الانسان]، فهو عندما يحسن إلى المخلوقين فهو يرجو الله فيهم ولا يرجوهم في الله وكذا.

والمؤلف رحمه الله في هذا الموضع يبين أنه لو صدرت عبارات من بعض المشايخ المستقيمين ظاهرها أنهم يقصدون بها وحدة الوجود، وكان الشيخ مستقيمًا، فالواجب أن نفسرها بأنه يريد ألا يعبد إلا الله، ولا يتوكل إلا على الله، فنفسرها بما يوافق نوع الفناء الأول، ولا نفسرها أنها بمعنى وحدة الوجود.

وهذا من إنصاف المؤلف ﷺ وإحسان ظنه بالخلق.

وأما إن كان القائل من المشايخ غير المستقيمين، ممن عرفنا أنهم يقصدون حقيقة ما يقولون وظاهره، كابن عربي والحلاج وغيرهما، فلا يصح أن نحمل الكلام على نوع الفناء الأول ولا الثاني.

لأننا إن حملنا الكلام على المجاز؛ فالمجاز يحتاج إلى قرينة، فمرات نجد الشخص غير مستقيم، ومستقيم هو المتمكن بالأمر والنهي، أي نجد الشيخ المستقيم محافظًا على العبادة مجتنبًا للمحرمات، فعندما يقول هذه الكلمات فنفسرها تفسيرا يعود بها إلى النوع الأول.

لكن إذا كان الشيخ غير مستقيم، فنجد من حاله أنه يقترف الفواحش والمنكرات وتاركا للصلاة، ثم يقول: «ما أرى إلا الله..» فمن خلال سلوكه وحاله وكلماته الأخرى؛ سنفهم أنه يقصد بذلك وحدة الوجود ولا يقصد المعنى السليم.

❊ ❊ ❊

فَهَذَا النَّوْعُ الثَّالِثُ - الَّذِي هُوَ الْفَنَاءُ فِي الْوُجُودِ- فَهُوَ تَحْقِيقُ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَعْرِفَتُهُمْ وَتَوْحِيدُهُمْ؛ كَالْقَرَامِطَةِ وَأَمْثَالِهِمْ.

الفناء في الوجود هو دين فرعون؛ لأن فرعون قال: «أنا ربكم الأعلى»، «وما علمت لكم من إله غيري» فهذا هو توحيدهم، لأنهم يقولون: «التوحيد هو أنه لا موجود إلا الله»، فهل وحدة الوجود يزعمون أنك إذا اعتقدت أن هناك خالقا ومخلوقًا فأنت الآن مشرك لأنك جعلت موجودين خالق ومخلوق، فالتوحيد عندهم أنه موجود واحد فقط، فكل موجود هو الله، فالإنسان موجود، إذًا الإنسان هو الخالق، والسموات

هي الخالق، والأرض هي الخالق، والصنم، والصليب، ومن عبد العجل، ومن عبد فرعون، قد عبد الله!!

أي كأن كل موجود بزعمهم صور شتى للخالق، وكل معبود فهو معبود الحق، تعالى الله عما يقولون.

والقرامطة هم أتباع رجل اسمه حَمْدان قُرمط، وهؤلاء القرامطة هم فرقة من الشيعة الباطنية الإسماعيلية، كانت لهم دولة في البحرين، وهاجموا الحجاج في البيت الحرام، وقلعوا الحجر الأسود من الكعبة وحطموه، وهدموا الكعبة، وقتلوا الحجاج وأخذوا الحجر الأسود معهم إلى البحرين، والبحرين في ذلك الوقت كانت تشمل منطقة هَجر، فهم تحديدًا كانوا في منطقة هجر، وهي الأحساء حاليًا في السعودية.

والحجر الأسود الموجود الآن هو الذي استنقذه المسلمون منهم، لكن ظل عندهم الحجر الأسود من سنة ثلاثمائة وسبعة عشرة، هجريا إلى سنة ثلاثمائة تسعة وثلاثين، مدة اثنتين وعشرين سنة .

فهؤلاء كانوا إباحين، يبيحون كل المحرمات، ولا يفعلون شيئا من الواجبات، ويعتقدون أن القرآن له ظاهر وباطن، فالصلاة ليست الصلاة بمعنى الصلاة، وإنما الصلاة هي الصلة بالإيمان.

ولهم أئمة يعظمونهم يدعون أن الله حل فيهم، ويدعون وحدة الوجود وكل العبادات كالصلاة والزكاة والحج ... يفسرونها تفسيرات باطنية، ليس التفسير الذي يعرفه المسلمون، فهم لا يؤدون هذه العبادات، والمحرمات عندهم كلها بمعنى مخالفة إمامهم.

فالقرامطة كانوا ممن يقول بوحدة الوجود، يعنون أن الخالق هو المخلوق، وبناءً

عليه أنكروا الشرع، فهؤلاء عندما يتكلمون بهذه الكلمات يقول أحدهم لا أرى إلا الله، فيقصدون هذا المعنى الباطل أنه لا يرى إلا الله، مع أنه يرى الشمس والجدار والصنم، فيقول: إن هذا هو الله وهذا هو الله!! -تعالى الله عما يقولون - وكل المخلوقات عندهم هي الله -تعالى الله عما يقولون-.

❀❀❀

وَأَمَّا النَّوْعُ الَّذِي عَلَيْهِ أتبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ فهُوَ «الْفَنَاءُ الْمَحْمُودُ» الَّذِي يَكُونُ صَاحِبُهُ بِهِ مِمَّنْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ، وَجُنْدِهِ الْغَالِبِينَ.

وَلَيْسَ مُرَادُ الْمَشَايِخِ وَالصَّالِحِينَ بِهَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الَّذِي أَرَاهُ بِعَيْنِي مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ هُوَ رَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ فِي غَايَةِ الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ، إمَّا فَسَادُ الْعَقْلِ، وَإِمَّا فَسَادُ الِاعْتِقَادِ، فَهُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الْجُنُونِ وَالْإِلْحَادِ.

أهل وحدة الوجود أحد أمرين إما عقله فاسد فهو مجنون وإما معتقده فاسد وهو من الملاحدة.

❀❀❀

وَكُلُّ الْمَشَايِخِ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الدِّينِ مُتَّفِقُونَ عَلَى مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مِنْ أَنَّ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقَاتِ.

المباينة هي الانفصال، فالله سبحانه منفصل عن خلقه ليس حالًا في شيء من خلقه سبحانه.

❀❀❀

وَلَيْسَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ، وَلَا فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ إِفْرَادُ الْقَدِيمِ عَنْ الْحَادِثِ، وَتَمْيِيزُ الْخَالِقِ عَنْ الْمَخْلُوقِ.

وَهَذَا فِي كَلَامِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُمْكِنَ ذِكْرُهُ هُنَا.

وَهُمْ قَدْ تَكَلَّمُوا عَلَى مَا يَعْرِضُ لِلْقُلُوبِ مِنْ الْأَمْرَاضِ وَالشُّبُهَاتِ، وَأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَشْهَدُ وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ فَيَظُنُّهُ خَالِقَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ لِعَدَمِ التَّمْيِيزِ وَالْفُرْقَانِ فِي قَلْبِهِ، بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَأَى شُعَاعَ الشَّمْسِ فَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الشَّمْسُ الَّتِي فِي السَّمَاءِ.

المشايخ المستقيمون -حتى من مشايخ المتصوفة المستقيمين- يقولون: إن الذي يقول عن مخلوق إنه هو الله فهذا يكون بمرض في قلبه وشبهة عرضت له؛ فحصل فساد في عقله، بحيث أنه ظن الشيء على خلاف ما هو عليه.

وضرب مثالا بمن يرى شعاع الشمس فيقول: «هذا الشعاع هو الشمس»!! لخلل عنده،، فالمخلوقات هي من صنع الله ﷻ وأشياء أوجدها الله ﷻ فمرات يحصل مرض وشبهة في قلب بعضهم فيظن شيء على خلاف ما هو عليه.

***

وَهُمْ قَدْ يَتَكَلَّمُونَ فِي «الْفَرْقِ وَالْجَمْعِ» وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مِنْ الْعِبَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ نَظِيرُ مَا دَخَلَ فِي الْفَنَاءِ.

الفرق والجمع من المقامات والأحوال القلبية، ونفس ما قلناه في مسألة الفناء: إنه لا مُشَاحَّة في الاصطلاح، لكن المهم ما هو المقصود بهذا المصطلح، فكلمة «الفرق» لها معنى حق ومعنى باطل، فإذا قُصد المعنى الحق فنحن نوافقهم على هذا المعنى

الحق، ولكن نقول كان الأولى أن يعبر عنه بالتعبير القرآني.

وأما إذا قصدوا المعنى الباطل فلا نوافقهم، وكذلك «الجمع» إذا قصدوا المعنى الحق نوافقهم عليه، لكن نقول هناك تعبيرات قرآنية ونبوية أولى من تعبير الجمع هذا، وإذا قصدوا به معنى باطلا فنحن لا نوافقهم.

وخلاصة الكلام في الفرق والجمع عند المتصوفة أو من سار على تقسيمهم ومصطلحهم من أهل السلوك:

أن هناك الفرق الأول، ثم الجمع، ثم الفرق الثاني.

فالفرق الأول: وهو أن الإنسان يدرك الفرق بين الخالق والمخلوق، ولكن قلب الإنسان منشغل بهذه المخلوقات، فهي تشتت عليه جمعية قلبه على الله.

ثم ينتقل إلى مقام الجمع: فيجتمع قلبه على الله، فيصبح الجمع هنا بمعنى الفناء، واجتماع القلب على الله يحتمل الفناء بأنواعه الثلاثة، فإما الفناء عن إرادة ما سوى الله، أو الفناء عن شهود ما سوى الله، أو وحدة الوجود، فكل واحد على حسب ما يقصد به.

ثم الفرق الثاني، أو يسمونه «فرق الجمع»: فبعد أن اجتمع قلبه على الله، يرجع يرى المخلوقات مرة أخرى بعد أنه غاب عن المخلوقات وأصبح لا يرى إلا الله، يرجع يرى المخلوقات مرة أخرى لكن يراها مربوبة لله مسخرة لأمر الله، كحال الماشي في طريق ورأى جدارًا ليس في قلبه أي التفات إليه لا محبة ولا رجاء ولا خوفا وهكذا إلى آخره، وهذا الفرق الثاني محمود.

ويسمونه أيضًا: «صحو الجمع» لأن الجمع يصبحه سكر، أو ذهاب إدراك بحيث أنه لا يرى المخلوقات، ثم يحصل صحو من هذا السكر، الذي هو الفرق الثاني.

فالمؤلف ﵀ يحسن الظن بالشيوخ المستقيمين إذا ما دخل في كلامهم -أثناء حديثهم عن الفرق والجمع- عبارات تحمل معان متشابهة.

❊ ❊ ❊

فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا شَهِدَ التَّفْرِقَةَ وَالْكَثْرَةَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، يَبْقَى قَلْبُهُ مُتَعَلِّقًا بِهَا، مُشَتَّتًا نَاظِرًا إِلَيْهَا مُتَعَلِّقًا بِهَا، إِمَّا مَحَبَّةً وَإِمَّا خَوْفًا وَإِمَّا رَجَاءً.

هذا هو «الفرق الأول» أي الذي يشهد كثرة المخلوقات، ويكون قلبه متعلقا بها مشتتا ناظرا إليها...

❊ ❊ ❊

فَإِذَا انْتَقَلَ إِلَى الْجَمْعِ اجْتَمَعَ قَلْبُهُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَالْتَفَتَ قَلْبُهُ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ الْتِفَاتِهِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ، فَصَارَتْ مَحَبَّتُهُ لِرَبِّهِ وَخَوْفُهُ مِنْ رَبِّهِ وَرَجَاؤُهُ لِرَبِّهِ وَاسْتِعَانَتُهُ بِرَبِّهِ، وَهُوَ فِي هَذَا الْحَالِ قَدْ لَا يَسَعُ قَلْبُهُ النَّظَرَ إِلَى الْمَخْلُوقِ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ.

فَقَدْ يَكُونُ مُجْتَمِعًا عَلَى الْحَقِّ مُعْرِضًا عَنْ الْخَلْقِ نَظَرًا وَقَصْدًا وَهُوَ نَظِيرُ النَّوْعِ الثَّانِي مِنْ الْفَنَاءِ.

إذًا؛ الجمع مرات يحصل فيه سكر وذهاب إدراك وتمييز، بحيث يغيب عن المخلوقات ويصبح لا يشاهدها.

❊ ❊ ❊

وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ، «الْفَرْقُ الثَّانِي» وَهُوَ: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ قَائِمَةٌ بِاللَّهِ،

وَمُدَبَّرَةٌ بِأَمْرِهِ، وَيَشْهَدَ كَثْرَتَهَا مَعْدُومَةً بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْمَصْنُوعَاتِ وَإِلَهُهَا وَخَالِقُهَا وَمَالِكُهَا فَيَكُونُ مَعَ اجْتِمَاعِ قَلْبِهِ عَلَى اللهِ - إِخْلَاصًا لَهُ وَمَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً وَاسْتِعَانَةً وَتَوَكُّلًا عَلَى اللهِ وَمُوَالَاةً فِيهِ وَمُعَادَاةً فِيهِ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ - نَاظِرًا إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، مُمَيِّزًا بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، يَشْهَدُ تَفَرُّقَ الْمَخْلُوقَاتِ وَكَثْرَتَهَا مَعَ شَهَادَتِهِ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ، وَأَنَّهُ هُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

بعد مقام الجمع يجئ مقام الفرق الثاني، وهو الفرق الجمع أو الصحو الجمعي، فيصحو بعدما حصل له الجمع.

فيشهد أن هذه المخلوقات على كثرتها كلها خالقها خالق واحد، فلا يصبح مشتتا بكثرة المخلوقات، وإنما يرى كل هذه المخلوقات معبدة لله ومسخرة لله ولها خالق واحد، وموجد واحد، وأنه سبحانه رب المصنوعات وإلهها وخالقها...

***

وَهَذَا هُوَ الشُّهُودُ الصَّحِيحُ الْمُسْتَقِيمُ، وَذَلِكَ وَاجِبٌ فِي عِلْمِ الْقَلْبِ وَشَهَادَتِهِ وَذِكْرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَفِي حَالِ الْقَلْبِ وَعِبَادَتِهِ وَقَصْدِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمُوَالَاتِهِ وَطَاعَتِهِ.

أيضًا مصطلح الشهود إذا فسر هذا التفسير الصحيح يكون مقبولًا.

***

وَذَلِكَ تَحْقِيقُ «شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فَإِنَّهَا تَنْفِي عَنْ قَلْبِهِ أُلُوهِيَّةَ مَا سِوَى الْحَقِّ، وَتُثْبِتُ فِي قَلْبِهِ أُلُوهِيَّةَ الْحَقِّ؛ فَيَكُونُ نَافِيًا لِأُلُوهِيَّةِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ

الْمَخْلُوقَاتِ، مُثْبِتًا لِأُلُوهِيَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ اجْتِمَاعَ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى مُفَارَقَةِ مَا سِوَاهُ، فَيَكُونُ مُفَرِّقًا فِي عِلْمِهِ وَقَصْدِهِ، فِي شَهَادَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، فِي مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، بِحَيْثُ يَكُونُ عَالِمًا بِاللَّهِ تَعَالَى، ذَاكِرًا لَهُ، عَارِفًا بِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ عَالِمٌ بِمُبَايَنَتِهِ لِخَلْقِهِ، وَانْفِرَادِهِ عَنْهُمْ، وَتَوَحُّدِهِ دُونَهُمْ.

وَيَكُونُ مُحِبًّا لِلَّهِ، مُعَظِّمًا لَهُ، عَابِدًا لَهُ، رَاجِيًا لَهُ، خَائِفًا مِنْهُ، مُوَالِيًا فِيهِ مُعَادِيًا فِيهِ، مُسْتَعِينًا بِهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مُمْتَنِعًا عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالرَّجَاءِ لَهُ، وَالْمُوَالَاةِ فِيهِ، وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ، وَالطَّاعَةِ لِأَمْرِهِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ إِلَهِيَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَإِقْرَارُهُ بِأُلُوهِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ مَا سِوَاهُ يَتَضَمَّنُ إِقْرَارَهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ وَمُدَبِّرُهُ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُوَحِّدًا لِلَّهِ.

الخلاصة أنه يفرد الله تعالى بالعبادة، وهو توحيد الألوهية، ويفرده بالربوبية وهو توحيد الله بأفعاله، وقد سبق الفرق بينهما[١].

* * *

وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ أَفْضَلَ الذِّكْرِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» كَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَغَيْرُهُمَا مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ»[٢].

---

[١] انظر ص ٥٩.

[٢] أخرجه الترمذي (٣٣٨٣) عن جابر رضي الله عنه، وحسنه الألباني.

وَفِي الْمُوَطَّإِ وَغَيْرِهِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَفْضَلُ مَا قُلْت أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[١].

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ هَذَا ذِكْرُ الْعَامَّةِ، وَأَنَّ ذِكْرَ الْخَاصَّةِ هُوَ الاسْمُ الْمُفْرَدُ، وَذِكْرَ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ هُوَ الاسْمُ الْمُضْمَرُ، فَهُمْ ضَالُّونَ غَالِطُونَ.

بيَّن النبي ﷺ أن أفضل الذكر «لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، ...» فهذا ذكر نبينا ﷺ، وحال الأنبياء هو أكمل الأحول.

فهذه الجمل التامة التي فيها ثناء على الله ﷻ، هي ذكر النبيين، وهو أكمل الذكر.

لكن بعض الضالين من الصوفية، يزعمون أن تلك الأذكار المأثورة في الكتاب والسنة أنها أذكار العوام، وأن الخاصة يذكرون الله بالاسم المفرد،يقولون: «الله الله الله»، وأن خاصة الخاصة هم الذين يذكرون الله بالضمير «هو هو هو»، ويكررون ذلك.

❀ ❀ ❀

وَاحْتِجَاجُ بَعْضِهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام: ٩١] مِنْ أَبْيَنِ غَلَطِ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّ الِاسْمَ هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْأَمْرِ بِجَوَابِ الِاسْتِفْهَامِ.

وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾[الأنعام: ٩١] إلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أَيْ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، فَالِاسْمُ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَامُ.

كَمَا فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ تَقُولُ: مَنْ جَارُهُ؟ فَيَقُولُ: زَيْدٌ.

---

[١] أخرجه الترمذي (٣٥٨٥) وحسنه الألباني.

هنا يجيب على شبهة، هي إذا سألتهم: لماذا تذكرون بالاسم المفرد مع أنه ما نقل عن النبي ﷺ فعل ذلك؟

فيقولون: الله تعالى قال في كتابه الكريم: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾.

فقال رحمه الله: هذا غلط بيِّن واضح، لأن في جواب الاستفهام ممكن نذكر المبتدأ، والخبر يقدر بناء على السؤال، أي عندما تقول مثلا: من صديقك؟ فتقول: «زيد».

فزيد ليست جملة تامة، وإنما المقصود هنا لما قلت: «زيد» أي: «زيد صديقي»، فزيد هنا مبتدأ، وخبره نقدره من خلال السياق.

وكذلك في الآية، فالسؤال ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية، ثم يقول الله تعالى للنبي ﷺ قل لهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾أي: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى.

فالاسم «الله» مبتدأ، وخبره دل عليه الاستفهام.

وهذا من ترك المحكم، واللجوء إلى المتشابه، فأذكار الأنبياء واضحة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، فما وجدنا أن الأنبياء يقولون: «الله الله الله» لا في القرآن ولا في السنة.

ولو كان هذا مأمورًا به؛ لكان النبي ﷺ وأصحابه أولى الناس بأن يذكروا الله به، ولم نجد قط حديثًا ثابتًا عن النبي ﷺ يكرر فيه الذكر بهذه الطريقة في مقام الذكر، وليس في جواب سؤال، فهناك فرق بين مقام جواب السؤال، وفي مقام الذكر.

وَأَمَّا الِاسْمُ الْمُفْرَدُ مُظْهَرًا أَوْ مُضْمَرًا فَلَيْسَ بِكَلَامٍ تَامٍّ، وَلَا جُمْلَةٍ مُفِيدَةٍ وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ إِيمَانٌ وَلَا كُفْرٌ وَلَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ.

الاسم المفرد الظاهر هو الله، والمضمر يعني به الضمير(هو).

وكلاهما كلام غير تام لا يتعلق بهما إيمان ولا كفر، فالمشركون الذين يسبون الله ﷻ يقول أحدهم مبتدأً: «الله» وقد يضمر خبراً يكفر به، والمؤمن يقول: «الله» ويضمر خبرًا حقًّا، فلابد من كلام كامل حتى نحكم على قائله هل هذا كلام محمود، أو مذموم، أو إيمان أو كفر، فالحكم على الكلام لا يكون على الكلمة المفردة، أو على الاسم المفرد أو على الضمير، وإنما يكون على الجملة التامة، وهي ما حوت المبتدأ والخبر، أو الفعل والفاعل .

❊ ❊ ❊

وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَلَا شَرَعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ، وَلَا يُعْطِي الْقَلْبَ بِنَفْسِهِ مَعْرِفَةً مُفِيدَةً وَلَا حَالًا نَافِعًا.

النبي ﷺ، قال في الصحيح: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[١].

والأذكار المشروعة نجد ثوابها واضحا في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ مثلا النبي ﷺ يقول: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ**»[٢].

---

[١] سبق تخريجه .

[٢] أخرجه مسلم (٢٦٩٨) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ.

ونبينا ﷺ قال: «**رَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِأْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَغِرَاسُهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[١].

فكل جملة من هذه الجمل لها فضائلها ولها ثوابها ولها أجرها في الكتاب والسنة، وغير ذلك من فضائل الأذكار، لكن كلمة «الله» لو قالها العبد مليون مرة، ما هو ثوابها؟ ما هو فضلها؟ لن تجد في آية ولا في حديث فضل لتكرار تلك الكلمة، وكذلك «هو» لن تجد لها فضلًا موعودًا به .

فلماذا تترك المحكم وثوابه واضح وبيِّن وموعود به، وتقضي الوقت في كلمة أو ذكر لا تعلم هل تثاب عليه أو تأثم، ولا ورد له ثواب؟!!

* * *

وَإِنَّمَا يُعْطِيهِ تَصَوُّرًا مُطْلَقًا لَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ.

كلمة الله، أو كلمة هو، تكون مجرد تصور لوجود الله ﷻ، لكن ليس فيه معرفة مفيدة كما نقول: «سبحان الله» أي أنزه الله تعالى، فتستحضر بقلبك هذا المعنى، أو نقول: «الحمد لله» أي أثني على الله، فأنت تستحضر معان قلبية، تقول: «الله أكبر» تستحضر هذا المعنى أن الله تعالى أكبر من كل شيء وهكذا .

فكل ذكر مشروع تجده يثمر معان في القلب، لكن مجرد تكرار الاسم المفرد يعطي تصورًا مطلقًا لا يُحكم عليه بنفي ولا إثبات.

* * *

[١] أخرجه الترمذي (٣٤٦٢)، وحسنه الألباني .

فَإِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقَلْبِ وَحَالِهِ مَا يُفِيدُ بِنَفْسِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَائِدَةٌ.

قد يقول قائل: «إن الذي يقول الله يقصد معان معينة، كالله هو المعبود».

إذًا كلمة الله لم تُفد هذا المعنى بذاته، وإنما أفادته بما كان في القلب من إيمان، فبدأ يستحضر معاني بقلبه، لكن الذكر بنفسه يفيد معنى صحيح.

❧ ❧ ❧

وَالشَّرِيعَةُ إِنَّمَا تَشْرَعُ مِنَ الْأَذْكَارِ مَا يُفِيدُ بِنَفْسِهِ لَا مَا تَكُونُ الْفَائِدَةُ حَاصِلَةً بِغَيْرِهِ.

وَقَدْ وَقَعَ بَعْضُ مَنْ وَاظَبَ عَلَى هَذَا الذِّكْرِ فِي فُنُونٍ مِنَ الْإِلْحَادِ، وَأَنْوَاعٍ مِنَ الِاتِّحَادِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

دائما البدعة تجر إلى ما هو أسوأ منه، فيقول بعض من واظب على هذه الأذكار كـ «الله الله الله»، أو «هو هو هو» وصل به الأمر إلى الإلحاد أو الاتحاد.

والإلحاد: هو إنكار وجود الله.

والاتحاد: هو اعتقاد أن المخلوق هو الله.

❧ ❧ ❧

وَمَا يُذْكَرُ عَنْ بَعْضِ الشُّيُوخِ مِنْ أَنَّهُ قَالَ: «أَخَافُ أَنْ أَمُوتَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ».

حَالٌ لَا يُقْتَدَى فِيهَا بِصَاحِبِهَا، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْغَلَطِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ؛ إِذْ لَوْ

مَاتَ الْعَبْدُ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَمْ يَمُتْ إِلَّا عَلَى مَا قَصَدَهُ وَنَوَاهُ، إِذْ الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِتَلْقِينِ الْمَيِّتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ[١].

وَقَالَ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»[٢] .

وَلَوْ كَانَ مَا ذَكَرَهُ مَحْذُورًا لَمْ يُلَقَّنْ الْمَيِّتُ كَلِمَةً يُخَافُ أَنْ يَمُوتَ فِي أَثْنَائِهَا مَوْتًا غَيْرَ مَحْمُودٍ، بَلْ كَانَ يُلَقَّنُ مَا اخْتَارَهُ مِنْ ذِكْرِ الِاسْمِ الْمُفْرَدِ.

هذا يروى عن أبي بكر الشبلي[٣] كما ذكر ذلك المؤلف رحمه الله في «المجموع»[٤]، فكان الشبلي هذا ربما غلب عليه الحال فكان ربما يذهب عقله وتمييزه، وينطق بالعجائب، وكان من حاله أنه ترك الذكر بـ «لا إله إلا الله» وكان يذكر بالاسم المفرد «الله الله» أو مضمرًا «هو، هو»، ويعلل ذلك بخوفه أن يموت بين النفي والإثبات، أي يخاف أن يموت عند «لا إله» .

فالمؤلف رحمه الله يقول: هذا غلط، وحال لا يقتدى بصاحبه، لأن النبي ﷺ أمر بتلقين الميت لا إله إلا الله.

---

[١] أخرجه مسلم (٩١٧) عن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ».

[٢] أخرجه أبو داود (٣١١٦) عن معاذ رضي الله عنه، وصححه الألباني .

[٣] تقدمت ترجمته .

[٤] قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فأما الاسم المفرد مظهرا مثل: « الله، الله» أو مضمرا مثل «هو، هو». فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثور أيضا عن أحد من سلف الأمة ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين، وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب فيه مثلما يروى عن الشبلي أنه كان يقول: «الله الله». فقيل له: لم لا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات. وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه وقوة وجده وغلبة الحال عليه فإنه كان ربما يجن ويذهب به إلى المارستان ويحلق لحيته، وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها» مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٥٧).

والميت قد يموت بين النفي والإثبات، والله سبحانه يعلم نيته، وأن التكملة حاضرة في قلبه، فلن يضره ذلك في شيء، سينال أجر الكلمة إذ الأعمال بالنيات، والله تعالى يعلم أنه ما قال «لا إله» النفي، إلا وهو ينوي أن يتم الإثبات إلا الله، فلو كان حال الشيخ صحيحا، لنهي النبي ﷺ أن يُلقن الميت «لا إله إلا الله».

ومعنى تلقين الميت: أن يجلس بجواره أحدٌ يذكره بلا إله إلا الله، بحيث تكون آخر كلامه، أي لا يظل يقول: لا إله إلا الله فيزعجه أو يلح عليه بها، وإنما يراقبه بحيث إذا تكلم في أمر من أمور الدنيا، كأن قال -بعد أن قال لا إله إلا الله-: أحضر كذا، أو نادوا فلانًا، أو اسقني... بأي شيء من أمر الدنيا، فيذكره الملقن الذي بجواره بكلمة التوحيد ثانية، أو يقولها أمامه حتى تكون آخر كلامه، فإذا لم يتكلم بعدها بشيء من أمر الدنيا، فليتركه ولا يلح عليه، وإذا تكلم بشيء من أمر الدنيا يرجع يذكره بها بحيث تكون آخر كلمة قالها.

***

وَالذِّكْرُ بِالِاسْمِ الْمُضْمَرِ الْمُفْرَدِ أَبْعَدُ عَنْ السُّنَّةِ، وَأَدْخَلُ فِي الْبِدْعَةِ وَأَقْرَبُ إلَى ضَلَالِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: يَا هُو يَا هُو، أَوْ: هُو هُو، وَنَحْوَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ الضَّمِيرُ عَائِدًا إلَّا إلَى مَا يُصَوِّرُهُ قَلْبُهُ، وَالْقَلْبُ قَدْ يَهْتَدِي وَقَدْ يَضِلُّ.

الذكر بالاسم المضمر المفرد «هو، هو» أبعد عن السنة، لإن الضمير «هو» يعود على شيء في القلب، فهو قد يقصد الله ﷻ وقد يقصد غيره.

***

وَقَدْ صَنَّفَ صَاحِبُ الْفُصُوصِ كِتَابًا سَمَّاهُ «كِتَابَ الْهُوَ».

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٧]، مَعْنَاهُ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ هَذَا الِاسْمِ الَّذِي هُوَ «الْهُوَ» .

صاحب الفصوص هو محي الدين بن عربي، وكان من القائلين بوحدة الوجود ، صنف كتابًا سماه «الهو».

وكلمة ﴿تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ هي كلمة واحدة، فهؤلاء جعلوها كأنها منفصلة رسمًا، فكأن المعنى: « وما يعلم تأويل هو إلا الله» أي لا يعلم تفسير كلمة هو إلا الله!! وهذا من تحريف القرآن عن موضعه.

***

وَإِنْ كَانَ هَذَا مِمَّا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ -بَلْ الْعُقَلَاءُ- عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَبْيَنِ الْبَاطِلِ، فَقَدْ يَظُنُّ ذَلِكَ مَنْ يَظُنُّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ.

إن هذا الكلام كلام بين البطلان عند العقلاء، إلا أنه يوجد بعض الصوفية يعتقد صحة هذا، وأن الذكر بـ «هو» أفضل الذكر .

***

حَتَّى قُلْتُ مَرَّةً لِبَعْضِ مَنْ قَالَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَوْ كَانَ هَذَا كَمَا قُلْتَهُ لَكُتِبَتْ: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ هُوَ) مُنْفَصِلَةً.

ثُمَّ كَثِيرًا مَا يَذْكُرُ بَعْضُ الشُّيُوخِ أَنَّهُ يَحْتَجُّ عَلَى قَوْلِ الْقَائِلِ: « اللَّهُ» بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾[الأنعام: ٩١]، وَيَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ بِأَنْ يَقُولَ الاسْمَ الْمُفْرَدَ، وَهَذَا

غَلَطٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ مَعْنَاهُ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى.

وَهُوَ جَوَابٌ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ﴾[الأنعام: ٩١] أَيْ: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى»، رَدَّ بِذَلِكَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٩١]، فَقَالَ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١] أَنْزَلَهُ ثُمَّ ذَرْ هَؤُلَاءِ الْـمُكَذِّبِينَ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ .

الكلام على الاستدلال بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ على جواز الذكر بالاسم المفرد سبق قبل صفحات.

***

وَمِمَّا يُبَيِّنُ مَا تَقَدَّمَ: مَا ذَكَرَهُ سِيبَوَيْهِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ النَّحْوِ أَنَّ الْعَرَبَ يَحْكُونَ بِالْقَوْلِ مَا كَانَ كَلَامًا، لَا يَحْكُونَ بِهِ مَا كَانَ قَوْلًا، فَالْقَوْلُ لَا يُحْكَى بِهِ إِلَّا كَلَامٌ تَامٌّ، أَوْ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ، أَوْ جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ، وَلِهَذَا يَكْسِرُونَ «إِنَّ» إِذَا جَاءَتْ بَعْدَ الْقَوْلِ، فَالْقَوْلُ لَا يُحْكَى بِهِ اسْمٌ.

قال سيبويه رحمه الله: «واعلم أن «قلت» إنما وقعت في كلام العرب على أن يُحْكى بها، وإنما تَحْكِي بعد القول ما كان كلامـًا لا قولاً، نحو قلتُ: زيدٌ منطلقٌ لأنه يَحسن أن تقول: زيدٌ منطلقٌ، ولا تدخل «قلت» .

وما لم يكن هكذا أسقط القول عنه، العرب لا تحكي بالقول إلا ما كان كلامًا»[١].

---

[١] الكتاب (١/ ١٢٢).

مثال يوضح ذلك:

قال زيد: «الرجل منطلق».

فكلمة «الرجل» لا تعرب مفعولا به،وإنما تعرب مبتدأ؛ لأنها عبارة محكية، والعبارة المحكية لا بد أن تكون جملة تامة .

ولكن لا يمكن أن تقول: «قال: الرجل»، وتعرب (الرجل) فاعلا لقال، فهذا خطأ، لأن «الرجل» وقعت عبارة محكية، وليس هو قائل القول، وإنما هو حكاية للمقول، والعبارة المحكية لا تكون عند العرب إلا كلاما تامًّا، إما جملة اسمية من مبتدأ وخبر، وإما فعلية من فعل وفاعل و مفعول.

فكان سياق الكلام عن استدلال أهل البدع بقوله تعالى (قل الله) على مشروعية ذكر الله بالاسم المفرد أي بتكرار لفظ الجلالة الله الله الله مائة مرة أو ألف مرة أو أي عدد يختارونه بدون أن يكون لفظ الجلالة جزءا من جملة مفيدة

فشيخ الإسلام يرد عليهم في ذلك ويقول الذكر المشروع مثل سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وأستغفر الله ونحوه كله جمل مفيدة

فما ذكره سيبويه وغيره من أئمة النحو هو: «**أَنَّ الْعَرَبَ يَحْكُونَ بِالْقَوْلِ**» أي: يستعملون الفعل قال ومضارعه يقول وأمره قل.

«**مَا كَانَ كَلَامًا**» أي: يستعملون الفعل قال عندما يكون المقول كلامًا والكلام هو اللفظ المفيد أي الجملة التامة مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل.

«**لَا يَحْكُونَ بِهِ مَا كَانَ قَوْلًا**» أي: لا يأتي بعد الفعل قال كلمة مفردة ليست جملة مفيدة والكلمة المفردة هي «قول» وليست «كلاما».

«فَالْقَوْلُ لَا يُحْكَى بِهِ إِلَّا كَلَامٌ تَامٌّ، أَوْ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ، أَوْ جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ، وَلِهَذَا يَكْسِرُونَ «إِنَّ» إِذَا جَاءَتْ بَعْدَ الْقَوْلِ» أي: والدليل على ذلك أن همزة إن يجب كسرها بعد الفعل قال أو يقول أو قل وكسر همزة إن علامة على أن ما بعدها جملة تامة مكونة من اسمها وخبرها ويصح ابتداء الحديث بها)

«فَالْقَوْلُ لَا يُحْكَى بِهِ اسْمٌ» أي: لا يأتي بعد الفعل قال أو يقول أو قل اسم مفرد ليس مركبا مع ما بعده في جملة مفيدة.

❀ ❀ ❀

وَاللهُ تَعَالَى لَا يَأْمُرُ أَحَدًا بِذِكْرِ اسْمٍ مُفْرَدٍ، وَلَا شَرَعَ لِلْمُسْلِمِينَ اسْمًا مُفْرَدًا مُجَرَّدًا، وَالِاسْمُ الْمُجَرَّدُ لَا يُفِيدُ الْإِيمَانَ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَلَا يُؤْمَرُ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْمُخَاطَبَاتِ.

لو أن كافرًا أراد الدخول في الإسلام فقال: «الله»؛ لا يكفيه هذا للدخول في الإسلام، لابد أن يقول كلامًا تامًّا، فماذا يقصد بكلمة الله؟ فقد يُقدِّر خبرًا فيه كفر، وقد يقدر خبرا فيه إيمان، لابد يقول كلامًا تامًا.

وقوله: «وَلَا يُؤْمَرُ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ الْعِبَادَاتِ» أي: لو كان هذا الذكر المفرد مشروعًا وهو أكمل الذكر -كما يزعم الزاعمون- لكان في شيئ من العبادات، كافتتاح الصلاة -مثلا- أو التسليم منها، أو تكبيرات العيد...إلخ.

لكن دائما نجد أذكار العبادات كلها جمل تامة تحمل معان، ففي الشروع في الصلاة نقول: «الله أكبر» وفي الرفع من الركوع نقول: «سمع الله لمن حمده»، وفي الركوع: «سبحان ربي العظيم»، وفي السجود: «سبحان ربي الأعلى»، ما شرع قط في العبادة أنك

تقول: «الله» وفقط، فلو كان هذا أكمل الذكر؛ لوجدناه مأمورًا به في العبادات.

وقوله: «وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ الْمُخَاطَبَاتِ» أي: أن النبي ﷺ شرع عند التخاطب أن نقول: «السلام عليكم» وهي جملة تامة، فالسلام اسم من أسماء الله، ولا يكفي أن تقول: «السلام»، بل تقول: «السلام عليكم».

فما شرع لنا نقول: «الله الله» في عبادة من العبادات ولا في مخاطبة من المخاطبات.

***

وَنَظِيرُ مَنْ اقْتَصَرَ عَلَى الِاسْمِ الْمُفْرَدِ: مَا يُذْكَرُ أَنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ مَرَّ بِمُؤَذِّنٍ يَقُولُ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ» بِالنَّصْبِ، فَقَالَ: مَاذَا يَقُولُ هَذَا؟ هَذَا الِاسْمُ فَأَيْنَ الْخَبَرُ عَنْهُ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ الْكَلَامُ؟

أي أن أعرابيا سمع رجلا يقول: «أشهد أن محمدًا رسولَ الله»، فصارت «رسول» نعتا لـ «محمد»، فالكلام هكذا غير تام، يحتاج أن تقول بعده أشهد أن محمدا رسول الله فعل كذا أو قال كذا، لابد أن يجيء خبر حتى يتم المعنى.

والنطق الصحيح للأذان أن نقول: «أشهد أن محمدا رسولُ الله»، لأن «رسول» خبر.

فما شُرع في الأذان كلمات مفردة، بل الأذان كلماته كلها جمل تامة لها معنى.

***

وَمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾[المزمل]، **وَقَوْلِهِ:** ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾[الأعلى: ١]، **وَقَوْلِهِ:** ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾[الأعلى]، **وَقَوْلِهِ:** ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[الواقعة: ٧٤] **وَنَحْوُ ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي ذِكْرَهُ مُفْرَدًا.**

بَلْ فِي السُّنَنِ أَنَّهُ لَـمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ».

وَلَـمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»[١].

فَشَرَعَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا فِي الرُّكُوعِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، وَفِي السُّجُودِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى».

وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ».

وَفِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»[٢] .

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ وَسُجُودِكُمْ» بِاتِّفَاقِ الْـمُسْلِمِينَ.

ليس معنى ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أنك تقول: «الله»، وإنما القرآن يفسر بعضه بعضا، والسنة تفسر القرآن، والنبي ﷺ ما فهم من الآيات أن المقصود أن يقول: «الله»، وأنما فهم منها ما بيَّنه المؤلف رحمه الله.

❊ ❊ ❊

فَتَسْبِيحُ اسْمِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَذِكْرُ اسْمِ رَبِّهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ هُوَ بِالْكَلَامِ التَّامِّ الْـمُفِيدِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ - وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنِ - سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ»[٣] .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي

---

[١] أخرجه أبو داود (٨٦٩) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

[٢] أخرجه مسلم (٧٧٢) عن حذيفة رضي الله عنه.

[٣] أخرجه البخاري معلقًا، ومسلم موصولا (٢١٣٧) عن سمرة بن جندب رضي الله عنه.

الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»[١] .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي يَوْمِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا رَجُلٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ» .

«وَمَنْ قَالَ فِي يَوْمِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[٢] .

وَفِي الْمُوَطَّإِ وَغَيْرِهِ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [٣].

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجه وَغَيْرِهِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ»[٤] .

وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ كَثِيرَةٌ فِي أَنْوَاعِ مَا يُقَالُ مِنْ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ.

نلاحظ هنا أن الأذكار النبوية كلها جمل تامة، فيها ثناء على الله تعالى، وطلب من الله، وموعود عليها بأجور معينة وُعِد بها من قال هذه الأذكار، لكن لا نجد من فعل النبي ﷺ ولا من قوله، إنه كان يقول: «الله الله الله»، ولا يقول: «هو هو هو»،ولا نجد

---

[١] أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٢] أخرجه البخاري(٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١، ٢٦٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٣] سبق تخريجه .

[٤] أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٠)، والترمذي (٣٣٨٣) وحسنه الألباني.

أنه رتب فضلا معينا لقول ذلك، ولا حث الأمة عليه.

***

وَكَذَلِكَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٤]، إِنَّمَا هُوَ قَوْلُهُ: بِسْمِ اللَّهِ.

بعض المخطئين يفسر قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾فيقول: قل: (الله) !

فنرد عليه بأن الله ﷺ لما قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ هل قال أحد من فقهاء المسلمين أن ذكر اسم الله على الذبيحة أن نقول «الله»؟

الجواب: لا، كلهم قالوا: ذكر اسم الله أن نقول «بسم الله».

***

وَهَذَا جُمْلَةٌ تَامَّةٌ، إِمَّا اسْمِيَّةٌ عَلَى أَظْهَرِ قَوْلَيْ النُّحَاةِ .
أَوْ فِعْلِيَّةٌ، وَالتَّقْدِيرُ ذَبْحِي بِاسْمِ اللَّهِ، أَوْ أَذْبَحُ بِاسْمِ اللَّهِ.
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْقَارِئِ فَتَقْدِيرُهُ: قِرَاءَتِي بِسْمِ اللَّهِ، أَوْ اقْرَأُ بِسْمِ اللَّهِ.

بسم الله: جار ومجرور، والاسم المجرور إما نعلقه أي نجعله خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره ذبحي باسم الله، أو نجعله متعلقًا بمفعول للفعل أذبح باسم الله.

***

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُضْمِرُ فِي مِثْلِ هَذَا ابْتِدَائِي بِسْمِ اللَّهِ، أَوْ ابْتَدَأْتُ بِسْمِ اللَّهِ، وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ كُلَّهُ مَفْعُولُ بِسْمِ اللَّهِ، لَيْسَ مُجَرَّدُ ابْتِدَائِهِ .

رأي ابن تيمية أن تقدير هنا حين نقول: «قراءتي باسم الله»، أحسن من قول: «ابتدائي باسم الله»، لأن لما تقول: «قراءتي باسم الله» فمعناها كل القراءة من أولها إلى آخرها كلها باسم الله، لكن لو أضمرت هذا المعنى، فمعناه الابتداء فقط باسم الله، فكأن بقية القراءة ليست باسمه.

كَمَا أَظْهَرَ الْمُضْمَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[العلق: ١] **وَفِي قَوْلِهِ:** ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾[هود: ٤١] .

كما سبق أن «بسم الله» تقدر إما فعلا أو مبتدأ، فمرات التقدير جاء مصرحا به ظاهرا في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ فلم يقل: «باسم ربك» وأنت تقدر: «اقرأ»، لكن أظهرت.

وكذلك قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ أي جريها بسم الله، فهنا لا تحتاج إلى تقدير؛ لأنه ذكر في الآية، فأنت تقيس على هذا، فهناك مواضع ظهر فيها المقدر في القرآن، تقيس عليها المواضع التي لم يظهر فيها المقدر.

فإذا جئت تقرأ القرآن تقول: «باسم الله الرحمن الرحيم»، فأنت تقدر: «أقرأ باسم الله الرحمن الرحيم»، أو «قراءتي باسم الله الرحمن الرحيم»، فأنت تقدر هذا، ومن أين تأخذ هذا التقدير؟ تأخذه من قوله سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[العلق: ١] .

وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ فَلْيَذْبَحْ بِسْمِ اللَّهِ»[١] .

معناه أن الذي يذبح الذبيحة يقول: «باسم الله» ولا يقول: «أذبح باسم الله»، وكلمة «أذبح» يقدرها في النفس يأخذه من حديث النبي ﷺ لما قال: «فَلْيَذْبَحْ بِسْمِ اللهِ»، أي التقدير باسم الله أذبح، أو باسم الله ذبحي.

❊ ❊ ❊

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِرَبِيبِهِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: «سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِك، وَكُلْ مِمَّا يَلِيك»[٢] فَالْمُرَادُ أَنْ يَقُولَ بِسْمِ اللَّهِ. لَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَذْكُرَ الِاسْمَ مُجَرَّدًا.

الربيب: ابنُ امْرأَةِ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِهِ.

والشاهد: أن يقول: «بسم الله» لا أن يذكر الاسم مجردًا.

❊ ❊ ❊

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «إِذَا أَرْسَلْت كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ»[٣].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ مَنْزِلَهُ فَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ دُخُولِهِ، وَعِنْدَ

[١] أخرجه البخاري (٥٥٠٠) ، ومسلم (١٩٦٠) عن جندب رضي الله عنه.

[٢] أخرجه البخاري (٥٣٧٦) ، ومسلم (٢٠٢٢) .

[٣] أخرجه البخارى (١٧٥)، ومسلم (١٩٢٩).

خُرُوجِهِ، وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ»[١] وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

الكلب المعلم: هو المدرب على الصيد.

وَكَذَلِكَ مَا شُرِعَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي صَلَاتِهِمْ وَآذَانِهِمْ وَحَجِّهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّمَا هُوَ بِالْجُمْلَةِ التَّامَّةِ، كَقَوْلِ الْمُؤَذِّنِ: «اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ».

وَقَوْلِ الْمُصَلِّي: «اللَّهُ أَكْبَرُ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْ، سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ».

وَقَوْلِ الْمُلَبِّي: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ».

وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

كل الأذكار التي شرعت في العبادات كلها جمل تامة، ليس فيها شيء من العبادات أن يقول: «الله الله» أو يقول: «هو هو».

فَجَمِيعُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ مِنَ الذِّكْرِ إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ تَامٌّ لَا اسْمٌ مُفْرَدٌ لَا مُظْهَرٌ وَلَا مُضْمَرٌ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمَّى فِي اللُّغَةِ كَلِمَةً.

كَقَوْلِهِ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى

[١] أخرجه مسلم (٢٠١٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»[١].

الاسم المظهر: هو الله.

و المضمر: هو «هُو».

والعرب يقصدون بالكلمة الجملة التامة، فالعرب ما كانوا يقصدون الكلمة بمصطلح النحاة.

ولذلك لا نحاكم الأحاديث النبوية ولا الآيات القرآنية بالمصطلحات الحادثة بعد النبي ﷺ، وإنما الكلمة نفهما في ضوء ما هو معروف عند العرب الذين تكلم الرسول ﷺ بلغتهم، ونزل بها القرآن.

قال تعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا**﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

فسمى سبحانه قول ذلك المشرك: ﴿**رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾ سماها كلمة.

وفي قول النبي ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ...**» فالكلمتان لا تعني اسمين مفردين، وإنما الكلمتان أي جملتان، الأولى: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**» والثانية: «**سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**» .

❊ ❊ ❊

---

[١] سبق تخريجه ص .

وَقَوْلِهِ: «أَفْضَلُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»[١] .

لبيد: هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة رضي الله عنه، كان شاعرا من فحول الشعراء في الجاهلية، وله معلقة، وفد على النبي ﷺ فأسلم وحسن إسلامه[٢] رضي الله عنه.

فقول لبيد رضي الله عنه:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

لو تعدها تجدها كلمات كثيرة، لكن النبي ﷺ سماها كلمة.

❊ ❊ ❊

وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[الكهف: ٥].

وهذه الكلمة التي تخرج من أفواههم هي جملة تامة، قالها اليهود والنصارى قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[الكهف: ٤] .

❊ ❊ ❊

وَقَوْلِهِ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام: ١١٥] .

فالكلمة هنا تشمل كلمات الله الكونية، وكلمات الله الشرعية صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام.

❊ ❊ ❊

---

[١] أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٢] انظر: «الاستيعاب» (٣/ ١٣٣٥) و «الإصابة» (٥/ ٦٧٥).

وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا اُسْتُعْمِلَ فِيهِ لَفْظُ الْكَلِمَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَلْ وَسَائِرِ كَلَامِ الْعَرَبِ، فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الْجُمْلَةُ التَّامَّةُ، كَمَا كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ الْحَرْفَ فِي الِاسْمِ، فَيَقُولُونَ: «هَذَا حَرْفٌ غَرِيبٌ» أَيْ لَفْظُ الِاسْمِ غَرِيبٌ.

أيضًا كلمة «حرف» في لغة العرب بمعنى الاسم، لكن في مصطلح النحاة يقصدون به ما دل على معنى في غيره، وليس باسم ولا فعل.

❊ ❊ ❊

وَقَسَّمَ سِيبَوَيْهِ الْكَلَامَ إِلَى اسْمٍ وَفِعْلٍ وَحَرْفٍ جَاءَ لِمَعْنًى، لَيْسَ بِاسْمٍ وَفِعْلٍ[١].

الحروف نوعان: حروف المباني وحروف المعاني.

فحروف المباني: هي الحروف الهجائية التي تبنى منها الكلمة، مثل الحاء من كلمة محمد .

وأما حروف المعاني: فهي كلمة ليست باسم ولا حرف، مثل «في»، «إلى»، «عن».

❊ ❊ ❊

وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ يُسَمَّى حَرْفًا لَكِنَّ خَاصَّةَ الثَّالِثِ أَنَّهُ حَرْفٌ جَاءَ لِمَعْنًى لَيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فِعْلٍ؛ وَسُمِّيَ حُرُوفُ الْهِجَاءِ بِاسْمِ الْحَرْفِ وَهِيَ أَسْمَاءٌ.

كل حرف هجائي له اسم يدل عليه، ككلمة «حاء»، وكلمة «ميم»..إلخ، فهذا اسم يدل على الحرف.

❊ ❊ ❊

[١] الكتاب (١/ ١٢).

وَلَفْظُ الْحَرْفِ يَتَنَاوَلُ هَذِهِ الأَسْمَاءَ وَغَيْرَهَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ: أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»[١].

وَقَدْ سَأَلَ الْخَلِيلُ أَصْحَابَهُ عَنِ النُّطْقِ بِحَرْفِ الزَّايِ مِنْ زَيْدٍ فَقَالُوا: زَايٌ، فَقَالَ: جِئْتُمْ بِالِاسْمِ، وَإِنَّمَا الْحَرْفُ «زَه»[٢].

في مصطلح النحاة كلمة «ألف» فيها ثلاثة حروف هي الهمزة واللام والفاء، لكن الرسول ﷺ سماها «حرفًا».

ثُمَّ إِنَّ النُّحَاةَ اصْطَلَحُوا عَلَى أَنَّ هَذَا الْمُسَمَّى فِي اللُّغَةِ بِالْحَرْفِ يُسَمَّى كَلِمَةً، وَأَنَّ لَفْظَ الْحَرْفِ يُخَصُّ لِمَا جَاءَ لِمَعْنًى، لَيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فِعْلٍ، كَحُرُوفِ الْجَرِّ وَنَحْوِهَا.

وَأَمَّا أَلْفَاظُ حُرُوفِ الْهِجَاءِ فَيُعَبَّرُ تَارَةً بِالْحَرْفِ عَنْ نَفْسِ الْحَرْفِ مِنَ اللَّفْظِ، وَتَارَةً بِاسْمِ ذَلِكَ الْحَرْفِ.

وَلَمَّا غَلَبَ هَذَا الِاصْطِلَاحُ صَارَ يَتَوَهَّمُ مَنِ اعْتَادَهُ أَنَّهُ هَكَذَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ.

خلاصة هذا الكلام: أن بعض الناس يشرح الآيات والأحاديث بما اصطلح عليه من المصطلحات الحادثة التي لم تكن معروفة في زمن النبي ﷺ.

---

[١] أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، عن ابن مسعود رضي الله عنه، بدون لفظ: «فأعربه»، وصححه الألباني.

[٢] قال الشيخ الشيخ ناصر بن حمد الفهد في «صيانة مجموع الفتاوى من السقط والتحريف» (ص ٨١): سقط حرف من الناسخ، وصوابه: (وإنما الحرف «زه»)، كما ذكره الشيخ رحمه الله في مواضع منها: (١٢ / ١٠٧، ٤٤٨)، (١٧ / ٤٢٠).

فالمؤلف ﷺ يريد أن يقول: إن مصطلح «كلمة» كان يطلق في زمن النبي ﷺ على الجملة الكاملة، لكن من لم يعرف ذلك يحسب أن «كلمة» في كلام الله تعالى أو في كلام النبي ﷺ مقصودٌ بها الكلمة بمصطلح النحاة، وهذا خطأ.

***

وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ لَفْظَ الْكَلِمَةِ فِي اللُّغَةِ لَفْظًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الِاسْمِ مَثَلًا وَبَيْنَ الْجُمْلَةِ وَلَا يُعْرَفُ فِي صَرِيحِ اللُّغَةِ مِنْ لَفْظِ الْكَلِمَةِ إِلَّا الْجُمْلَةُ التَّامَّةُ.

بعض الناس يحاول أن يوفق، فيقول: الكلمة لفظ مشترك - لفظ مشترك: أي له معنيان أو أكثر، ككلمة «عين» مرات تأتي بمعنى الجاسوس، ومرة تأتي بمعنى عين الماء، ومرات بمعنى آلة الإبصار-.

فبعض الناس يحاول أن يوفق فيقول: الكلمة لفظ مشترك، فمرات بمعنى اللفظ المفرد، ومرات بمعنى الجملة.

فشيخ الإسلام يقول: هذا غير صحيح؛ لأن لفظ «كلمة» في لغة العرب لها معنى واحد فقط، وهو الجملة، ولم تأت أبدًا بمعنى اللفظ المفرد.

***

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ الْمَشْرُوعَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ هُوَ ذِكْرُهُ بِجُمْلَةٍ تَامَّةٍ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْكَلَامِ، وَالْوَاحِدُ مِنْهُ بِالْكَلِمَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَنْفَعُ الْقُلُوبَ، وَيَحْصُلُ بِهِ الثَّوَابُ وَالْأَجْرُ، وَالْقُرْبُ إِلَى اللَّهِ وَمَعْرِفَتُهُ، وَمَحَبَّتُهُ وَخَشْيَتُهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ وَالْمَقَاصِدِ السَّامِيَةِ.

وَأَمَّا الِاقْتِصَارُ عَلَى الِاسْمِ الْمُفْرَدِ مُظْهَرًا أَوْ مُضْمَرًا فَلَا أَصْلَ لَهُ، فَضْلًا عَنْ

أَنْ يَكُونَ مِنْ ذِكْرِ الْخَاصَّةِ وَالْعَارِفِينَ.

بَلْ هُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ، وَذَرِيعَةٌ إِلَى تَصَوُّرَاتِ أَحْوَالٍ فَاسِدَةٍ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْإِلْحَادِ، وَأَهْلِ الِاتِّحَادِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

فصل

وَجِمَاعُ الدِّينِ أَصْلَانِ: أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، لَا نَعْبُدَهُ بِالْبِدَعِ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وَذَلِكَ تَحْقِيقُ الشَّهَادَتَيْنِ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَشَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

فَفِي الْأُولَى: أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ.

وَفِي الثَّانِيَةِ: أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ رَسُولُهُ الْمُبَلِّغُ عَنْهُ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ خَبَرَهُ وَنُطِيعَ أَمْرَهُ.

وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا مَا نَعْبُدُ اللَّهَ بِهِ، وَنَهَانَا عَنْ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا ضَلَالَةٌ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢].

هذه هي خاتمة الرسالة، وهي ملخص للرسالة.

قوله: «وَجِمَاعُ الدِّينِ أَصْلَانِ»: أي يجمع الدين أصلان.

والكلام هنا مكرر سبق بيانه، مر بنا الإخلاص والمتابعة، وأن كل عمل صالح له ديوانان:

الأول: لم فعلته؟ فلابد أن تفعله لله.

الثاني: وكيف فعلته؟ أن تفعله موافقا لشرع الله.

كما في الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هو المتابعة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هو الإخلاص.

وكذلك في الشهادتين: ففي الأول: «أشهد أن لا إله إلا الله» هو الإخلاص، **وفي الثانية**: «أشهد أن محمدًا رسول الله» هو المتابعة.

***

كَمَا أَنَّا مَأْمُورُونَ أَنْ لَا نَخَافَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نَتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَلَا نَرْغَبَ إِلَّا إِلَى اللَّهِ، وَلَا نَسْتَعِينَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَأَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَتُنَا إِلَّا لِلَّهِ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ مَأْمُورُونَ أَنْ نَتَّبِعَ الرَّسُولَ وَنُطِيعَهُ وَنَتَأَسَّى بِهِ، فَالْحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ، وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة] **فَجَعَلَ الْإِيتَاءَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ.**

كَمَا قَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وَجَعَلَ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] **وَلَمْ يَقُلْ وَرَسُولُهُ.**

كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣]= .

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٤] أَيْ حَسْبُكَ وَحَسْبُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر: ٣٦] .[١]

ثُمَّ قَالَ: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾[التوبة: ٥٩] فَجَعَلَ الْإِيتَاءَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْفَضْلِ؛ لِأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَالَ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[التوبة: ٥٩] فَجَعَلَ الرَّغْبَةَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾[الشرح: ٧-٨] .

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»[٢] . وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى مِثْلِ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

كَمَا فِي قَوْلِ نُوحٍ عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[نوح: ٣] .

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾[النور].

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

سبق بيان الشاهد من الآيات في الحديث عن الفرق بين الحقوق الخاصة لله، والحقوق المشتركة لله ورسوله.

---

[١] سبق بيان معنى الآية، وأن المقصود: «أي الله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين» .

[٢] سبق تخريجه .

فَالرُّسُلُ أُمِرُوا بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالطَّاعَةِ لَهُمْ.

فَأَضَلَّ الشَّيْطَانُ النَّصَارَى وَأَشْبَاهَهُمْ فَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ وَعَصَوْا الرَّسُولَ فَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَجَعَلُوا يَرْغَبُونَ إِلَيْهِمْ وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْأَلُونَهُمْ، مَعَ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَمْرِهِمْ وَمُخَالَفَاتِهِمْ لِسُنَّتِهِمْ.

أي النصارى عكسوا الأمرين، أُمروا أن يرغبوا إلى الله وحده ويتوكلوا على الله وحده، فأشركوا الرسل مع الله في الرغبة والتوكل، وأمروا أن يطيعوا الرسل فتركوا طاعتهم.

* * *

وَهَدَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ لِلَّهِ أَهْلَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ فَلَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ، فَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، وَأَسْلَمُوا وُجُوهَهُمْ لِلَّهِ، وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَأَحَبُّوهُ وَرَجَوْهُ وَخَافُوهُ وَسَأَلُوهُ وَرَغِبُوا إِلَيْهِ وَفَوَّضُوا أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، وَأَطَاعُوا رُسُلَهُ وَعَزَّرُوهُمْ وَوَقَّرُوهُمْ وَأَحَبُّوهُمْ وَوَالَوهُمْ وَاتَّبَعُوهُمْ، وَاقْتَفَوْا آثَارَهُمْ وَاهْتَدَوْا بِمَنَارِهِمْ.

وَذَلِكَ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الرُّسُلِ وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا إِلَّا إِيَّاهُ، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَيْهِ، وَيُكْمِلَهُ لَنَا، وَيُمِيتَنَا عَلَيْهِ وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

* * *

الفهرس


تم بحمد الله